الدكتور
كمال عبد الباقي لاشين

الابتداع والاتباع

دراسة في النقد العربي القديم

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٥١٠٦٧٢٤


بسم الله الرحمن الرحيم
١٣٧٤

دعاء

"اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت
وأصلح قلوب الناس فقد فسدت
ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل
ويموت النقص كما مات العلم."

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي

إهـــــــداء

إلى رجلين كانـــا من لُباب من عرفت

فماتوا كان لـــم يعرف المـــوتُ غيرهم
فثُكل عـــلى ثُكل ، وقـــبر على قـــبر
اسكانَ بطن الأرض لـــو يُقبل الفـــدا
فُديتـــم واعـَطينا بكـــم ساكنى الظهر

إلى رجب إبراهيم خليل ، واحمد جاد صالح
طيب الله ثراهمـــا وغفـــر لنـــا ولهمـــا ..

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الأحد بديع السموات والأرض ، والصلاة والسلام على رسولنا الكريم محمد المرسل بالهاديات النيرات ، والباقيات الصالحات.

هذا بحث فى مسالة من تراث « علم الشعر » عند العرب ، وعلم التراث كله باب عصى من العلم ، بعيد الغور ، فإما أن يؤخذ بحقه ، او لا .. فيترك لأهله ، ذلك أن التراث حين يدور الزمان بأهله ، ويطوى التاريخ صفحتهم تحول دونه حوائل ، وتصرف عنه صوارف أقواها ضياع بعضه فيبقى منقوصا ، وخفاء « مصطلحاته » التى هى مفاتيح نصوصه ، واحتجاب مقاصد أهله فى بعض ما بقى منه فيبقى غير مفهوم على الوجه الأتم ـ وأقساها ما ترمى به الأمم فى أدوار فشلها ، وذهاب ريحها من جهل كثير من الحفدة بما كنز لهم الأسلاف ، وزهد بعضهم فيه ، ورغبتهم فى قطعه وتجاوزه ، ثم استعارة رءوس الآخرين ، كأن الرءوس تعار أو تستعار . أقول استعارة ولا أقول استفادة ..

وهذا البحث يجتهد ـ قدر الاستطاعة ـ فى أن « يرسخ » فى كلام العلماء فيما هو بصدده ، ويأخذه بحقه ، ويكره أن «يزيغ» فيه ويعتسف ، ويتبع ما تشابه منه ، ويركب فيه الأهواء ، وإن كان فى الناس من يفعل هذا ويسميه « إعادة قراءة » . والرسوخ فى تراث السلف فى الشعر وفى غيره منهج أبعد غورا ، وأشد نصبا ، ولكنه ممكن لمن استطاع إليه سبيلا ، وهو يقتضى صبرا لا يشيخ في جمع المتناثر من كلامهم في

المسألة الواحدة ، ثم تسليط بعضه على بعض ليشرح لاحقه سابقه ، وليتم آخر منه أولا ، وليقضى محكمه على متشابهه ، ومفصله على مجمله ؛ فإن تفسير عصى كلام السابق بالمصباح اللاحق ميسور فى كثير من مشكل العلم فى الشعر وفى غيره ، وقد صنعت شيئا من هذا فى هذا البحث . ويقتضى الرسوخ قدرة على الاحساس بما قاله العلماء ثم ضاع ، قياسا على ما قالوه وبقى ، وعلى معرفة ما كان من علمهم وإن لم يأت به اللفظ عنهم ، بما جاء به اللفظ عنهم ، فإن ما فى رأس العالم من العلم أكثر مما فى ألفاظه منه ، ولو قيس ما علم ثم لم يكتب فى كل عصر بما علم وكتب لوجد كثيرا ، وذلك أظهر فى عصر المشافهة كما هو الحال عند الطبقات الأولى من النقاد العرب . وهذا علم ظنى قد لا يبنى به رأى ، ولكنه قد يوضح الآراء ، ويكشف الشبهات . ويقتضى « الرسوخ » أيضا معرفة ما ورد فى باب من أبواب العلم وهو من علم باب غيره ، أو ذكر فى مسألة وهو أدخل فى غيرها ، فإن القدماء كانوا ربما نثروا كلامهم ، وباعدوا بينه ثقة بمن يفهم عنهم ، ولابد أن يجمع الباحث إلى هذا وغيره خبرة حصيفة بلغة القوم ، وبعتادهم فى التعبير عن مقاصدهم ، ومذاهبهم فى إخراج مكانين صدورهم .

ولست أزعم أنى بلغت فى هذا البحث مبلغ الراسخين ، فما كان لى أن أبلغ من هذا إلا ما يسره الله تعالى لى - وإنى لأراه قليلا - إنما أردت أن أقول : إن هذا هو « منهج الرسوخ » فى علم التراث لمن رامه ، وطريق أخذ التراث بحقه لمن استطاع باءته . وقد شغلنى منذ زمن جامع ما قاله العرب القدماء فى ابتداع المعانى الشعرية ، واتباعها فجمعت من

ذلك ما أطقت ، ثم إنى ضممت القول إلى أخيه ، وفسرت الرأى بالرأى يفسره ، ونسقت الأقوال على أزمان قائليها ، مصطنعا منهجا « تاريخيا وصفيا » ينطق التراث بما تقوله نصوص التراث دون حمل عليه أو اعتساف ، فوجدت للقدماء فى الباب علما قديما ، وعناية باقية ، ورأيتهم أصلوا فيه أصولا فرعوا عليها فروعا ، وأتوا فيه بدقائق من الرأى ، ولطائف من النظر تأتى من نقد صنعة الشعر فى اللباب ، وتقع من مباحث الأصالة الشعرية فى الصميم ، ووجدت جملة كلامهم فى ذلك - إذا أنطق بما فيه - يمثل رؤية - وإن شئت قلت نظرية - فى صنعة المعانى الشعرية .

وأول عهدى بهذا البحث بعيد ، وصحبتى له طويلة : عقدت له عزما قبل نحو عشر سنوات ، ومعى يومئذ شباب النفس ، وطموح يزين لى زخرف الحياة ، ويطوى عنى ما فيها من قبح يأكل نفس الكريم = فأخذت منه بقسط ، وحصلت منه طرفا ، ثم دفعت عنه إلى غيره فتركته ، وما نسيته .

ثم إنى راجعته قبل أربع سنوات ، فكنت وهو كما قال الشاعر :

إذا ضيعت أول كل أمر ... أبت أعجازه إلا التواء

ضيعت أوائله فالتوت أعجازه ، وطال على سبيله .. لكنى مازلت بخواطرى أرفق بها ، ولا أعسف ، والخواطر - كما قال أسامة بن منقذ - كالينابيع إذا رُفق بها جَمّت ، وإذا عُسِف بها نَزَحت (البديع فى نقد الشعر : ٢٩٥) - حتى أحدثت له عزما شبيها بالعزم الأول .

وكان الذى دلنى على هذا البحث أول مرة ، وفتح لى باب النظر فيه فصل لطيف للعلامة مصطفى صادق الرافعى - رحمه الله ، عنوانه :

الاختراع والإتباع (تاريخ آداب العرب : ٤٤/٣ - ٤٨) ، فلفتني لفظا الاختراع والإتباع ، وكنت أمر بهما قبل فلا أحسن الالتفات إليهما ، لأنهما لم يكونا عندي في شهرة غيرهما من ألفاظ النقد العربي القديم ، ومصطلحاته .

ثم قرأت ما تيسر لي مما كتبه الدارسون قبلي في موضوع هذا البحث ، وأكثر فصول ، وفقر انتفعت بما انتفعت به منها ، ومن أخذت منه أحلت عليه . وأولى الدراسات السابقة بالذكر لاتساعها ، وقوة صلتها بهذا البحث كتاب : السرقات الأدبية : دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها للدكتور بدوي طبانة ، وكتاب : مشكلة السرقات في النقد العربي : دراسة تحليلية مقارنة للدكتور محمد مصطفى هدارة ، وبحث : مفهوم الابتكار في النقد العربي القديم للدكتور عبد الحكيم راضي .

أما بحث الدكتور راضي فإني لم أقف عليه ، لأنه لم يطبع - فيما أعلم - ، وعنوانه يدل على أنه يعالج موضوع ابتداع المعاني الشعرية وابتكارها في النقد العربي القديم ، وهو شطر هذا البحث ، فلست أعلم فيم اتفقنا ، وفيم افترقنا ، وإلام سبقني ، وماذا زدت عليه ؟ ، وأما بحثا طبانة وهدارة ، فقد قرأتهما ، وانتفعت بما انتفعت به منهما ، وشاركتهما في بعض المسائل ، والتقيت بهما من بعض الوجوه ، ولكني نزعت في هذا البحث منزعا يكاد يجعله أصلا في نفسه ، وإن كان مسبوقا بهما ، داخلا في بعض ما دخلا فيه .

فالباحثان قصدا إلى فكرة السرقات الشعرية فبنيا عليها الكتابين ، وإلى ما قاله العرب القدماء فيها فجعلاه أصلا خصاه بعنايتهما ،

واستفرغا فيه جل مجهودهما ، وكان ما قالاه فى ابتداع المعانى الشعرية وإبتكارها ، أو فى حسن أخذها وتوليدها فرع وتبع ، فقلبت أنا القضية لما رأيت أن البدء بالسرقات ، والإلحاح عليها ، وافرادها عما قيل فى الاتباع بعامة وفى الابتداع قد أضر كثيرا بنظرية العرب القدماء فى ابتداع المعانى الشعرية ، واتباعها ، وعفى على محاسن كثير مما قالوه فى هذا وباب ، مما هو أمس رحما بصنعة الشعر ، وأقوم قيلا ٠

فالشعر الحق عندهم بابان : باب هو ابتداع المعانى الشعرية والسبق إليها ، وباب هو حسن أخذها وتوليدها ، ذلك هو أصل الشعر وقاعدته ، أما السرقة ، وهى الأخذ القبيح ، والاتباع العاجز — فإنها شذوذ ، ونشوز ، وإنما يبدأ بالأصل لا بالفرع ، وبالشرعة لا بالشذوذ ٠ من هذا جعلت الابتداع والاتباع معا قاعدة وأصلا لنظرية العرب القدماء فى صنعة المعانى الشعرية ، وجعلت السرقة الشعرية ، وما قيل فيها لحقا وتبعا ، ، وأرجو أن أكون فى هذا على صواب من الرأى ٠

و « الابتداع والاتباع » هو دراستى الثانية فى النقد العربى القديم بعد « الموازنات الشعرية » ٠ ويوما بعد يوم يقوى فى نفسى أن فقه النص العربى القديم باب عسير ، وان تحرير مسائله ، وتخليصها لا يبلغ إلا بالصبر ، ولا يتم إلا مع المشقة ؛ فالشعر نفسه فن دقيق لطيف ، ونقده أدق والطف ٠٠ هذا ما عليه صاغة القول من الشعراء والنقاد ٠ قال الصولى : إن علم الشعر ، والكلام على معانيه ، وتمييز ألفاظه لا يقع لأفطن الناس وأذكاهم إلا بتعلم ، وتعب شديد ، ولزوم لأهل الصناعة طويل ، فكيف بمن دون هؤلاء ٠ (أخبار أبى تمام ، ١٢٦)

وقال حازم القرطاجنى : إن صناعة البلاغة — وهى جوهر نقد

الشعر - لا يتأتى تحصيلها فى الزمن القريب ، وإنما يبلغ المرء منها ما فى قوته أن يبلغه ، لأن وجوه النظر فيما يحسن فى صنعة الشعر ، وما يقبح لا تكاد تحصى كثرة ، ولكل استحسان ، أو استقباح اعتبارات شتى بحسب المواضع ، والأغراض ، والأحوال ، والمقاصد ، ولهذا تتشعب الطرق فى هذه الصناعة إلى ما يعز حصره ، ويعجز عن الإحاطة به (منهاج البلغاء : ٨٨ ، ١٠٤) . والكلام فى هذا المعنى كثير .

فإذا كان هذا نعت نقد الشعر ، وما يلزم نقاده فيه فليس بعجيب أن يعز الكلام فيه إلا على البصير ، ويمتنع إلا على الكفء ، والإشكال كل الإشكال فى فهم « مصطلحات » القدماء ، وتأويل المتشابه منها على نحو صحيح مرضى ، فلطف فن الشعر حمل القدماء على أن انتزعوا له مصطلحات من غير جنسه ، ونعوتا من غير مادته ، فاشتقوا له ألفاظا من نعوت الماء ، والثياب ، والتصوير ، وصوغ المعادن ، فقالوا : شعر عذب ، ونقى ، وصاف ، وكثير الماء والرونق ، ووصفوه بالرقة ، والصقل ، ومتانة النسج ، أو هلهلته ، وبحسن الحبك ، وجودة السبك ، والسهولة ، والجزالة ، والبهاء والطلاوة ... الخ .

ونحن نحتاج فى معرفة حقائق هذه النعوت فى الشعر ، والمراد بها إلى معرفتها أولا فيما انتزعت منه .. ثم إن هذا لا يتم إلا بحسن تأول ، ولطف تفهم . والقدماء معذورون حين اشتقوا للشعر نعوتا من غير مادته ، لأن الكلام على الكلام بالكلام صعب ، فلا مفر من قياسه بغيره من المحسوسات التى بين نعوتها ونعوته شبه ومشاكلة .

ونحن نرى نقاد الحداثة اليوم - وهم أكثر الناس حديثا عن المنهج ، وصرامة المنهج - يستخدمون في نقد الأدب مصطلحات من غير

مادته ، ومن علوم بعيدة جدا فى طبيعتها عن طبيعة الأدب ، فيشتقون له مصطلحات من علـوم الرياضـة ، والفيزياء ، والكيميـاء ، والعلوم الطبيعية ، والهندسة ، ومن المنطق ، والفلسفة ، وعلم النفس ، وغيرها فيستخدمون : الأفقى ، والإسقاط ، والتمـاس ، والبـاث ، والتشبع ، والبديل ، والاستبطان وغيرها [راجع : الأسلوب والأسلوبية للدكتـور عبد السلام المسدى : ١٢٥ - ٢٠٧) .

ولم يحرص العرب القـدماء على توحيـد المصطلحات النقـدية ، ولا جعلوا هذا موضع عنايتهم ، فتراهم يستخدمون عدة ألفاظ للدلالة على المعنى الواحد ، وهذا ما فعلوه فى الاصطلاح على معنى الابتداع والاتباع كما سترى . وتراهم من وجه آخر يستخدمون المصطلح الواحد بدلالات عدة فى سـياقات مختلفـة ، فهم يطلقون المعنى فى سـياق ويريدون به الخاطرة أو الفكرة ، ويطلقونه فى سياق آخر وهم يريدون به العبارة المخصوصة عن المعنى ، أو صـورة المعنى ، وكذلك يطلقون اللفظ وهم يريدون به الكلمة أو نطق اللسان ، ويطلقونه فى مقام آخـر ويريدون به الصورة التى يحدثها الشاعر للمعنى ، أى الصياغة اللفظية، ونظم الكلام [راجع دلائل الإعجاز : ٣١٥ ، ٣١٢)] ، ومثل هـذا فعلوا مع مصطلح « السرقة » وغيره .

وكان من نتيجة هذا كله أن كثيرا من مصطلحات القدماء أصبحت إشارات ، ومجازات أقوال إن حملت على ظواهرها فسدت ، وإن تأولت على وجهها صحت . والناظـر فى كلامهم محتـاج إلى لطف الفهم ، وصحة الإدراك ، وأن يكون مهيأ أصلا لفهم تلك الإشـارات كمـا قال عبد القاهر الجرجانى (دلائل الإعجاز : ٢٥٠) .

تلك هى أقوى العقبات أمام فقه النص النقدى القديم مما يعود إلى النص نفسه ، وثمت عقبة أخرى من خارجه : من بعض ورثته والناظرين فيه ، فقد نبتت نابتة ، ثم اكتهلت ، ثم شاخت وقد عقدت قلبها على استصغار ما قاله العرب الأوائل فى نقد الشعر ، وفى غيره ، وسوء الاعتقاد فى قائليه ، وصاروا بين منصرف عنه بالكلية يرى أنه قد مات بموت قائليه ، وأنه تاريخى قد ذهب بذهاب الزمن الذى قيل فيه ، وناظر فيه ، ولكن نظر المبغض ينظر ليطعن ، ويدرس ليقدح .. وقد رأيت نفرا من هؤلاء فى جامعة البحرين رأى عين ، وعرفت ذلك منهم معرفة قرب . ومما يكدر النفس ويشق عليها أن هؤلاء قد أشبهوا زمانهم فرضى عنهم ، ورضوا عنه ، وأن أمرهم فى ازدياد ، وجدهم إلى علو ، وأن لهم أسماء وألقابا بسطت لهم وجوه الصحائف ، ومكنتهم من آذان الناشئة . وإنهم لغمة من غمم العلم لا أرى لها من دون الله كاشفة ، ومشكلة من جملة مشاكل النقد العربى القديم ؛ لأنهم من ورثته ، ورثوه فضيعوه ، وشر الناس وارث مضيع .

وأنا أعلم أن هذه النابتة المدبرة لا يخلو منها علم عصر ، ولا أدب أمة ، وأنها وجدت فى تاريخ علم المسلمين وآدابهم من قديم ، ذكر ذلك ابن قتيبة فى مقدمة أدب الكاتب ، والسكاكى فى آخر كتاب المفتاح ، وغيرهما ، لكنها كانت شراذم قليلة ، وأصواتا واهنة ، وجدت من شيوخ أهل العلم ، والورثة الحافظين من يردها إلى الصواب ، ويأطرها على الحق أطرا إلا من أبى ، أما نابتة عصرنا فإنهم ينصرون بصمت العارفين ، وانشغالهم بدنياهم ، وبأشياء أخرى .

ومازال أهل العلم يخالف بعضهم بعضا ، وتستدرك طبقةمنهم على

طبقة ، مع حسن ظن اللاحق بالسابق ، واستفراغ الوسع فى تفهم ما قال وتأوله قبل اتهامه ، والطعن عليه . قال ابن سنان الخفاجى (٤٤٦ هـ) : « ومعاذ الله أن يحملنا بعضنا للتقليد على التسرع إلى نقص الفضلاء والتفنيد لما لعله اشتبه على بعض العلماء ، والرغبة فى الخلاف لهم ، وإيثار الطعن عليهم » . ثم حدد المنهج السديد للنظر فى كلام العلماء فقال : .. فننظر فى أقوالهم ، ونتأمل المأثور عنهم ، وتسلط عليه صافى الذهن ، ونرهف له ماضى الفكر ، فما وجدناه موافقا للبرهان ، وسليما على السبر اعترفنا لهم بفضل السبق فيه ، وإقررنا لهم بحسن النهج لسبيله ، وما خالف ذلك وباينه اجتهدنا فى تأويله ، وإقامة المعاذير فيه ، وحملناه على أحسن وجوهه ، وأجمل سبله ، ايجابا لحقهم الذى لا ينكر ، وإذعانا لفضلهم الذى لا يجحد ، وعلمنا أنهم لم يؤتوا من ضلالة ، ولا كلال ذهن وفطنة . ولكن لاستمرار القضية فى المحدثين ، وعمومها أكثر المخلوقين » (سر الفصاحة : ١٣٥) . أراد بالقضية : استيلاء النقص على الطباع البشرية ، حتى كان المحمود من غلبت حسناته سيآته ، وكان خطؤه يسيرا فى جانب صوابه . وقال أبو يعقوب السكاكى (٦٢٦ هـ) بعد كلام فذ فى الحقيقة والمجاز : وأنا أوصى ذوى الأبصار من الناظرين فى كتابى هذا إذا أورثهم كلامى نوع استمالة ، وفاتهم ذلك فى كلام السلف إذا تصفحوه ، ألا يتخذوا ذلك مغمزا للسلف ، أو باب تفضيل لى عليهم .. ثم قال : وإنما يستغرب أمر من قضى عمره راتعا فى مائدة علم السلف ، ثم لم يقو أن يتنبه .. (المفتاح : ٤١٣ ، ٤١٤) . فانظر إلى ما قاله هذا العالمان ، وما تقوله النابتة المدبرة المبغضة .!!

والقول فى إبتداع المعانى الشعرية وابتدائها ، أو فى أخذها

وتوليدها من أدق مسائل نقد الشعر ، وأبعدها غورا ، لأنه يقتضى الناقد استفاضة فى رواية الشعر ، ولطفا فى فهمه ، وسلامة فى الذوق يعرف بها المختص من المعانى والمشترك ، والأبكار منها والثيبات ، ويهتدى بها إلى ما بين المعانى من أرحام وإن بعدت ، وأنساب وإن خفيت ، ويستدل بها على وجه إحسان الآخذ المتبع ، أو إساءته إلى غير ذلك من دقائق هذا الباب ؛ ولذا لم يثبت فيه إلا الأقلون ، ولم يحسنه إلا المبرزون من القدماء ، ثم هو اليوم مغلق أو كالمغلق بعدما تركت الرواية ، وتقطعت أسبابها ، وهجر علم أنساب المعانى الشعرية أو كاد .
وأرجو أن تجد فى هذا الكتاب ما يقنعك بأن العرب القدماء قد عنوا بهذا الباب من أبواب نقد الشعر عناية خاصة ، وألفوا فيه تآليف ضاع الأكثر منها وبقى الأقل ، وأصلوا فيه أصولا فرعوا عليها فروعا ، وطبقوا كلامهم النظرى على نماذج كثيرة من الشعر ، فصلوا القول فى قليل منها ، وسكتوا عن كثير ، تاركين ما سكتوا عنه ليقاس على ما تكلموا فيه ، وهذا من جملة مذهبهم فى نقد الشعر .

وجعلت البحث فى تمهيد وفصلين ، فالتمهيد تتبع تاريخى لما قاله العرب القدماء فى ابتداع المعانى الشعرية واتباعها فى مرحلتى الشفاهة والكتابة ، والفصلان تحليل وصفى لأصول ما قالوا فى الابتداع والإتباع وفروعه . واستخدمت لفظ « الابتداع » فى عنوان الكتاب بدلالته اللغوية - مع علمى بأن الدلالة الشرعية قبحته ، واستأثرت بمعناه - لأنه كثير الورود فى نصوص النقد العربى القديم . وعندى أن لحياة النصوص بإحياء المصطلحات المستخدمة فيها ، وموتها بإماتتها ، وهذا معنى يغفل عنه المولعون بتغريب مصطلحات النقد الأدبى ، وتحديثها .

= ولأن النقاد المسلمين قد استخدموه فى سائر قرون الإسلام دون نظـر
إلى قبح دلالته الشرعية ، ولأنه بعد هذا وذاك يحقق الموازنة فى عنوان
الكتاب وهى مما يستحسن ٠

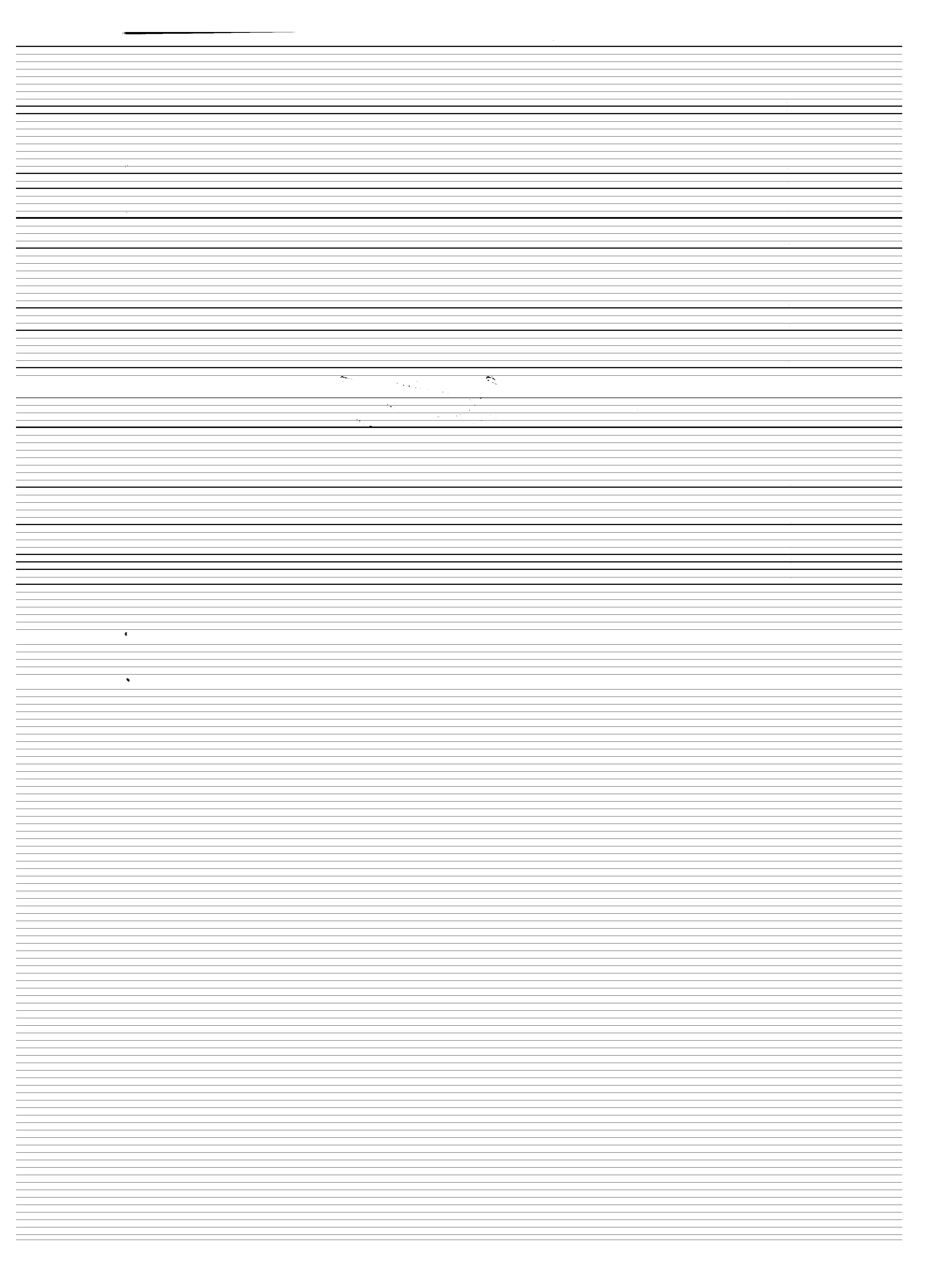
والحمد لله فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه المصير

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه

أبو حـــازم
كمال عبد الباقى لاشين
فى ٨ من رجب ١٤١٣هـ
الموافق ١ ينـــاير ١٩٩٣م



تمہید



— ١ —

الأحكام النقدية التى بلغتنا عن العصر الجاهلى عشرة أحكام ، أو تزيد قليلا ، ليس فيها فيما أعلم نص صريح فى مسألة الابتداع والاتباع ، لكن ثمت أبياتا من الشعر الجاهلى يصح تأولها على أن فيها إشارة إلى معنى الابتداع والإتباع فى الشعر ، ومعرفة به ، منها قول طرفة :

ولا أغير على الأشعار أسرقها
عنها غنيت • وشر الناس من سرقا (١)

فقوله : (ولا أغير على الأشعار أسرقها) ، وقوله (وشر الناس من سرقا) ذم للسرقة ، وهى ضرب من الاتباع والأخذ ، ولكنها اتباع العاجز ، وأخذ التكلة ، وفى هذا من وجه آخر رفع من قدر الابتداع وابتداء الفطن • وقوله : (عنها غنيت) يريد به : ان لى فى قدرتى على الابتداع والابتكار ، والاتكاء على النفس مانعا من أخذ كلام غيرى ، وهذا راجع أيضا إلى معنى الابتداع •

وكقول طرفة قول حسان :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا
بل لا يوافق شعرهم شعرى

ففى بيته إشارة إلى تفرد الشاعر وتميزه فيما يقول ، وهو قانون ابتداع المعانى •

ومن ذلك أيضا قول طرفة وقد يروى لحسان :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه
على المجالس إن كيسا وإن حمقا

---

(١) ديوانه : ٢١٦

فقوله : (الشعر لب المرء) يمكن ان يتاول على معنى الاتكاء على القريحة ، والمتح من الطبع ، وهو خاصية الابتداع الأصيل ، والاتباع الحسن . ومثله قول سُويد بن كُراع :

ابيت بابواب القوافى كانما
اصادى بها سربا من الوحش نزعا (٢)

وكنت ارى تاول قول كعب بن زهير :

ما ارانا نقول إلا معارا
او معادا من قولنا مكرورا

على أن فيه إشارة إلى أخذ المعانى ، واستعارتها ، وتقليبها واحتذاء بعض الشعراء بعضا - وهو جوهر الاتباع الشعرى - ولكنى وجدت البيت فى ديوان كعب ثالث ثلاثة أبيات هكذا :

ما صلاح الزوجين عاشا جميعا
بعد ان يَصرم الكبير الكبيرا
اى حين وقد دببت ودبت
ولبسنا من بعد دهر دهورا
ما ارانا نقول إلا رجيعا
ومعادا من قولنا مكرورا (٣)

فرايته فى هذا السياق يعطى معنى خاصا لا يستقيم معه ذلك التاول .

وانا اعلم ان ما قلته فى هذه الأبيات ، وما يقال فى أشباهها إنما هو تاويل بعد او قرب ، وليست دلالة المتاول كدلالة المحكم ، ولكن التاول هاهنا سائغ حسن لأن الشعر تكفى إشارته ، وقانونه اللمح لا التصريح .

---

(٢) الشعر والشعراء : ١/٢٣ .
(٣) شرح ديوان كعب بن زهير للسكرى : ١٥٤

واقــدم عبارة صريحة فى الابتداع وجدتها قول عمر رضى الله عنـــه فى امرئ القيس : « هو ســابق الشــعراء ، خســف لهم عين الشــعر ... » (٤) ، وقول على رضى الله عنــه فيه : هو « أســبقهم بادرة » ، وقد قالا هذا فى مطلع الإسلام . وهاتان العبارتان على وجازتهما أصل لما قيل فى معنى السبق الشعرى عامــة وسبق امرئ القيس خاصــة .
وقال على أيضا : « لولا أن الكلام يعاد لنفد » وقــد تأولتها على أنهــا تعنى توالد المعانى ، وتقبلها العبــارة الثانية ، وهو الأصــل فى باب الاتباع كما ســترى . ولم أقف في تراث المــائة الأولى على غير هــذه العبارات الثلاث .

ثم وجدت نصوصا معــدودة فى كلام الطبقــة الأولى من الشعراء المحدثين ، من أهل المائة الثانية ، أظهرها قول بشــار (١٦٧ هـ) فى صنيعته سلم الخاسر : إنه أخــذ معناى ثم كســاه ألفــاظا أخف وأحلى فسار قوله وكسد قولى . وهذا أصل فى معنى الاتباع الحسن . وقول أبى نواس (١٩٨ هـ) عن نفسه فى معنى نازع النابغة إياه : «لئن كان سبق فما أساء الاتباع » فقد ذكر الســبق وهو الابتــداع ، وعــرف للســابق منزلته ، وفرّق بين أخْذ المحسن وأخْذ المسيء . وهذا أصل فى التفريق بين الاتباع الحسن والسرقة كما سيأتى .

وفى المــائة الثالثة وجدت نصوصا أوضح ، وأشد تفصيلا من كل ما سبقها ، وإن كان الأصل واحدا ، منها . عبارة لأبى عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) فى تقليب المعانى ، وأخذ بعض الشعراء عن بعض ، وندرة

---

(٤) النصوص المشار إليها فى هذا السرد تأتى بتمامها ، وبألفاظ قائليها في ما يأتي من البحث

المعانى المتروكة لأصحابها ، الميئوس منها فى شعر العرب ، وعبارة طويلة فى معناها لأحمد بن أبى طاهر (٢٨٠ هـ) فى التباس شعر العرب، وأخذ أواخره من أوائله. وهاتان العبارتان أوضح وأتم ما وجدت فى بيان معنى الإتباع الشعرى عند العرب حتى زمانهما . وتلقانا فى هذه المائة عبارة البحترى (٢٨٣ هـ) فى تسويغ الأخذ لمن أخذ فأحسن ، واحتذى فاستجد وتأنق ، وقول يحيى بن على المنجم (٣٠٠ هـ) : « وحق من أخذ معنى ، وقد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه ، أو يزيد فيه حتى يستحقه ، فأما إذا قصر فإنه مسيء معيب بالسرقة ، مذموم بالتقصير » . وهو فى معنى ما قيل قبله ولكنه أتم وأبين .

هذا على الإجمال الشديد والتقريب شبه المخل تاريخ ابتداء القول فى الابتداع والاتباع الشعرى وما قيل فيه فى القرون الثلاثة الأولى . وقدر أن التتبع غير دقيق ، وأن ما ضاع من النصوص أكثر مما بقى ، فإن ذلك لا يمنع من القول : بأن النصوص فى هذه المرحلة من تاريخ النقد العربى قليلة إذا عدت ، مختصرة إذا حصلت . ولكن أيصح من أجل هذا أن يقال : إن العرب فى جاهليتهم ، وفى القرون الثلاثة الأولى من الإسلام لم يدركوا من أمر الابتداع والاتباع فى الشعر شيئا ذا بال ، وأن مبلغ علمهم فيه هو هذه النصوص المعدودة ، وما تدل عليه ؟

ليس الجواب عندى بنعم . صحيح أننا لا نستطيع إثبات هذا رواية ، ولكن لنا فى إثباته وجها آخر من الدراية والاستنباط ، وهذا يقتضى جملة من القول .

ثبت أمران دلني عليهما تأمل تاريخ علم الشعر عند العرب قبل هذا البحث ، وزادهما هذا البحث استحكاما ، وأحب للناظر في هذا الكتاب أن يشاركني النظر فيهما . الأول : أرى أن يقسم تاريخ علم الشعر ونقده عند العرب إلى طورين : طور الحكم الشفهي المنطوق ، وطور الحكم المؤلف المسطور ، وأرى هذا التقسيم لازما لمن رام فقه طبيعة الحكم النقدي عند العرب ، ومدى تطوره . فالحكم النقدي في الطور الأول حكم مشافهة ومذاكرة ، فهو خاضع لمنطق المشافهة والمذاكرة لا محالة ، وطبيعته من طبيعتهما .

والمذاكرة تكون بين عالم وعالم ، أو بين عالم وأعلم منه فهي لا تحتمل الإسهاب ، بل تجري على أوجز ما يكون من اللفظ ، كما قال مجد الدين النشابي الكاتب (٦٥٧ هـ) (٥) . والمشافه مهما اتسع علمه يجمل رأيه ، ويطوي حجته ، ويتجوز في لفظه ويتسمح ، ويحيل على علم السامع ، وهذا معنى نبه عليه أحد علماء المائة الأولى وهو عبد الله بن الأهتم فقال : « لا يتعجب من رجل تكلم بين قوم فاجتزأ أو قصر من حجته ، أو عزب عنه بعض القول ، وإنما يتعجب ممن أخذ دواة وقرطاسا ، وخلا بفكره وعقله كيف يعزب عنه من الكلام ما يريد ، ومن المطالب ما يؤم »(٦).فالمشافه مضيق عليه ، فهو يعطي على مقدار المشافه ، وبمقدار ما يحتمل وقت الخطاب ، والمسطر موسع عليه ، فهو يعطي على مقدار علمه وعقله ، ومقدار ما تحتمل القراطيس والزمن المتطاول .

---

(٥) انظر : المذاكرة في ألقاب الشعراء : ٢١ .
(٦) البرهان في وجوه البيان : ١٩٢

وهذا فى كل علم سبيله المشافهة والمذاكرة ، وهو فى علم الشعر أوضح لأنه - كما قال الآمدى - علم لا يستقر فى الذهن إلا بكثرة رواية ومشاهدة ، وطول ملابسة ، ولا ينتقل إلى ذهن الآخر بمجرد النعت والصفة ، وهل يستطيع صاحب السيوف - حين يخبرك عن سيف استحسنه - أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر بحيث يجعلك مشاهدا لها جميعا فى لحظة واحدة ، واقفا على كل علة ، محيطا بكل حجة (٧) ؟!

هذا هو عين ما يقع للناقد المشافه إذا أراد أن يخبرك عن حسن شعر ما ، أو تقدم شاعر بعينه فأنَّى له أن يحضرك كل شعر قيل ، وكل شاعر قال ، ويشرح لك كل هذا،ويفاضل بينه حتى يريك من أين حسن عنده ذلك الشعر ، أو قدم ذلك الشاعر ؟ . أما المؤلف المسطر فموسع عليه ، مفسح له فى ذلك كله .

فالوجازة ، والإجمال فى أحكام الطبقات الأولى من طبقات أهل العلم بالشعر من العرب يرجعان - أكثر ما يرجعان - إلى طبيعة المشافهة والمذكورة ولست أرى أن تعاب أحكامهم من قبل وجازتها وإجمالها ، وإنما يعاب الرأى الذى أخطأ فيه صاحبه . ولكن بعض الدارسين يأبون إلا ان يجعلوا الوجازة والإجمال فى أحكام الطبقات الأولى دليلا على قلة العلم بالشعر ، وضعف الذائقة النقدية ، والعجز عن إدراك أغوار الشعر وأسرار صنعته !! . وأعجب ما فى الأمر أن هؤلاء النقاد - على كثرة ما يتحدثون عن صرامة المناهج ، وما يسمونه « علمنة النقد

---

(٧) انظر الموازنة : ٢٠٧/١

الأدبي » إذا سئلوا عن الشعر والشعراء في عصرهم ، فأجابوا شفاهة، لم يقولوا إلا كما قال أهل الطبقات الأولى : فلان أكثر جيله معاصرة ، وفلان أوسع المعاصرين خيالا ، أو أكثرهم ثقافة .. الخ ، فإذا ما خلي بينهم وبين الأقلام والأوراق كان لهم شأن آخر ، فدل هذا على أن الأمر ليس مرجعه إلى المكنة النقدية ، وإنما إلى طبيعة المذاكرة والمشافهة ومباينتها لطبيعة التأليف والتسطير .

وكما قيلت أحكام النقد في ذلك الطور مشافهة فخضعت لطبيعة النطق الشفهي ، حملت - فترة من الزمن - مشافهة ، قبل أن تستقر في بطون الكتب ، فخضعت كذلك لطبيعة الحمل الشفهي .

والعرب جعلوا صدورهم في تلك المرحلة قراطيس العلم ، وأكبروا الحرف المحفوظ في القلب ، وقدموه على الحرف المحفوظ في الورق، حتى قالوا : حرف في قلبك خير من عشرة في طومارك . وسمع يونس ابن حبيب رجلا ينشد :

استودع العلم قرطاسا فضيعه
وبئس مستودع العلم القراطيسا

فقال : قاتله الله ! ما أشد صبابته بالعلم ، وصيانته للحفظ ، إن علمك من روحك ، ومالك من بدنك ، فصن علمك صيانتك روحك ، ومالك صيانتك بدنك(٨) . وإنما قدموا الحرف في الصدر لأنه مفهوم حاضر يحفظه فهمه ، ويحييه حضوره ، أما حرف الطومار فهو وديعة القراطيس ، وربما اتكل صاحبه على حفظ القرطاس له فلم يفهمه ، وتركه لساعة الاحتياج إليه، فعزب وهو قريب، ومات وهو حي. وتأمل

(٨) أمالي القالي ١/٢٢٣ .

انت هذا بالنظر فى واقع كثير من اهل زماننا : خـزائن كتب عامـرة بالعلم ، وصدور منه خاوية !!

والحمل الشفهى - مع اعظام العرب له أول الأمر - يدخله الانتقاص لموت الحافظ،أو لنسيان المحفوظ،أو لغيرهما مما يذهب بعلم الصدور، ولهذا ضاع كثير مما قالته العرب .

ومن لطائف هذا الباب الفصل الذى عقده ابن جنى - رحمه الله - لاثبات أن الأوائل من العرب قد أرادوا من العـلل والأغراض ما نسب بعـد إليهم ، وحمل لاحقا عليهم ، وفيه يقول : إن علمـاء الصدر الأول كان لهم علم أخذوه من مشاهدة وجوه الأعراب حين حادثوهم وقاولوهم. قلت : وينبغى على هـذا أن يكـون لنقاد المئتين الثانية والثالثة عـلم أخذوه من وجوه نقاد القرن الأول وعلمائه عند المذاكرة والمفاتشة ، كان هذا العلم جزء من معنى نصوص القدماء التى تروى لنا اليوم عارية منه. وهذا يقوى القول بأن انتقال علم الصدور إلى الطوامير ، أو علم المشافهة والمذاكرة إلى كلام مدون يقرأ مما ذهب ببعـض معانى كـلام الأوائل ، فاستغلق بعض ، واشتبه بعض ، وقـل فى الجملـة من يحسن التأنى إليه، فكثر عيابوه(٩)، وقد قال ابن طباطبا : إن للعرب سننا فى كلامها تستعملها بينها لا تفهم معانيها إلا سماعا(١٠). قلت : وهذا أيضا حال كلام الطبقات الأولى من أهل العلم : لهم فى كلامهم اشارات لا يـكاد يفهم معناها إلا سماعا منهم . وأين منا السماع ؟!

فالذى أدين به فى هذه المسألة أن النصوص القليلة الباقية بأيدينا من كلام أهل الطبقات الأولى ليست كل ما قالوه ، وهذا القليل الـذى

---

(٩) راجع سر الفصاحة ٥٣ .
(١٠) عيار الشعر ٣٧ .

بقى لا يكشف أبدا عن «بلغ علم القوم بنقد الشعر وتمييز الكلام . وهذا رأى لم تزدنى الأيام إلا أخذا به واعتقادا له . وقد قلت فى بحث سابق: إن التسليم بضعف الذائقة النقدية عند عرب الجاهلية ومن تلاهم استنادا إلى قلة ما بأيدينا من كلامهم ، وإلى وجازته معترض بأمور لا تكاد تدفع ، منها : مسألة تحدى القرآن للعرب ، وأن الله رضى لهم درجة الممتحن فى صنعة البيان ، وأحالهم على معرفتهم بالفرق بين نمط كلامه ونمط كلامهم . وقد عرف عقلاؤهم إعجاز كلام الله ، وفوته ، ولم يشكوا فى ذلك وإنما كانوا - كما قال الباقلانى(١١) - بين جاحد ، وكافر نعمة ، وحاسد ، ومعترض كذلك بالشأو الذى بلغوه فى احسان فن القول حتى صاروا فرسان الشعر ، وصاغة القول ، وسحرة البيان ، إلى أن قلت : « إن تحقيق الذوق النقدى عند الجاهليين يقتضى بحثا فى طبيعة الذوق والعقل العربيين يومئذ لا من خلال نصوص النقد المروية فقط بل من حلال ما يدل عليه تحدى القرآن لهم ، وما تدل عليه جودة شعرهم ، وحكمتهم ، وتأملهم ، وجواباتهم المسكتة ، وأمثالهم ، ووصاياهم وخطبهم - من عقل وذوق . والذى بقى من ذلك قليل لا يكاد يدل هو الآخر على حقيقة حالهم »(١٢) .

قلت ما قلت يومئذ استنباطا واستخراجا ، ثم وجدت بعد نصوصا دالة من كلام ثقات أهل العلم.فقد سئل الخليل بن أحمد عن علمه من أين أخذه ؟ فقال : من بوادى نجد والحجاز(١٣) ، وذكر الشريف المرتضى

---

(١١) إعجاز القرآن ٣٠٤ .
(١٢) الموازنات الشعرية فى النقد العربى القديم دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة .
(١٣) نزهة الألباء ٤٣ .

(٤٣٦ هـ) أبيات عمرو بن قميئة البارعة فى الطيف ثم قال : فانظر إلى هذا الطبع المتدفق ، والنسج المطرد المتسق من أعرابى قح قيل إنه مفتتح لوصف الطيف ، وكأنه لانطباع سبكه ، وجودة وصفه ، قد قال فى هذا المعنى الكثير ، ونظم منه الغزير وقلب ظاهره وباطنه ، وباشر أوله وآخره ، وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين ، وإجادة المجيدين ، ما سلك منهجه ، وأخرج كلامه مخرجه . ولكن الله تعالى أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة ، وهداهم من مسالك البلاغة إلى ما هو ظاهر باهر . ولهذا كان القرآن معجزا ، وعلما على النبوة لأنه أعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم »(١٤) .

وقال ابن سنان الخفاجى (٤٤٦ هـ) فى فصل لا يدفع أتيه ، ولا يفل حده فى فضل القدماء من العرب : « وأما العقول الصحيحة ، والأذهان الصافية ، فالأمر فى تفضيلهم بها واضح ، وذلك أنهم لم يكونوا أهل تعليم ودرس ، ولا أصحاب كتب وصحف ، ولا يعرفون كيف التأديب والرياضة ، ولا يعلمون وجه اقتباس العلم والرواية . وفى كلامهم من الحكم العجيبة والأمثال الغريبة ، والحث على محاسن الأخلاق والأمر بجميل الفعال . ما إذا تأملته غض عندك ما يروى عن حكماء اليونان، وسهل الأمر عليك فيما حكاه الناس عنهم ، ووجدت تلك الفصول اليسيرة ، والفقر القليلة تسند إلى جليل من الحكماء ، وتضاف إلى رئيس من العلماء ، وأمثالها وأضعافها فى شعر راع جلف ، ومن كلام عبد غمر ، ينشئها طبعه بلا تثقيف ، ويسمح بها خاطره عن غير صقال .

ثم لما صار هؤلاء القوم إلى الدين ، وتمسكوا بالشريعة ، وعادوا

---

(١٤) طيف الخيال ٦٦ .

أصحاب كتاب يدرس ، ومذهب يروى ظهر لعمرى من دقيق أفهامهم ، وعجيب كلامهم ما هو موجود لا يخفى على أحد جالس العلماء ، وخالط الكتب سَبْقَتُهم إليه ، ومعجزهم فيه ، وأنهم فرعوا من المذاهب،وولدوا من العلوم ما كان مَمْن قبلهم كان ممنوعا منه ، ومصروفا عنه »(١٥).

ووصف أبو يعقوب السكاكى (٦٢٦ هـ) عرب الجاهلية الذين خاطبهم الرسول ، ونزل عليهم الكتاب بأنهم « أيقاظ متفطنون لا يبارون قوة ذكاء ، واصابة حدس ، وحدة ألمعية ، وصدق فراسة،يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم كأن قد شاهدوا ، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يردوه ، ويثبتون أبعد شىء بحدة ألمعيتهم كأن ليس ببعيد ، وينظم لهم المجهول صدق فراستهم فى سلك المعروف من زمان بعيد »(١٦) .

وذكر قوله تعالى : « **وقيل يأرض ابلعى ماءك ...** » الآية ثم قال : إن الذوق إن ساعدك أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها. فهم القدوة،واقصى ما يدركه مَمْن بعدهم فى حسن الكلام وقبحه،وطبقاته ودرجاته أن يبلغ ما بلغوه(١٧) ، وهذا قول الباقلانى من قبل(١٨)

وذكر السكاكى بشارا وخلف الأحمر ومن فى طبقتهما فقال : إنهم من فحولة أهل التذوق ، ومن المهرة فيه ، والمتقنين السحرة(١٩) . وقال - بعد كلام له فى الحقيقة والمجاز : « إنى أوصيهم - يريد ذوى الأبصار الناظرين - إذا أورثهم كلامى نوع استمالة ، وفاتهم ذلك فى كلام السلف إذا تصفحوه - تأمل - إلا يتخذوا ذلك مغمزا فى السلف ،

---

(١٥) سر الفصاحة ٤٥ .
(١٦) مفتاح العلوم ٥٧٩ .
(١٧) السابق ٤١٧ ، ٥١١ .
(١٨) إعجاز القرآن ٢١٨ ، ٨٠ ، ٢٥٠ .
(١٩) مفتاح العلوم ١٧٣ .

أو فضلا لى عليهم » ثم قال : إنما يستغرب أمر من قضى عمره راتعا فى مائدة علمهم ثم لم يقو أن يتنبه (٢٠) ٠

فالمرتضى ، وابن سنان ، والسكاكى من أهل الطبقات المتأخرة ، ولم يكونوا فى زمان العصبية للعرب ، وبعضهم ليس بعربى الدم فلا يقال إنهم قالوا ما قالوا عصبية ، ولكن القوم قالوا بما يعلمون ٠

وأنت تجد حرارة وحمية فيما قالوه،وكأنى بالذى دعاهم إلى هذا أنه نبتت فى زمانهم وقبله نابتة مدبرة خفى عليهم علم الطبقات الأولى ، وشغلهم عنه ما شغلهم فاضطربوا فى تاريخ علم الشعر والفصاحة عند العرب،وظنوا أن ليس للأوائل منه كبير نصيب،وأن الحظ فيه للمتأخرين دونهم ٠ فقالوا ما قالوا ، وانصفوا أسلافهم ٠

الأمر الثانى(٢١)الذى دلنى عليه تأملى السابق فى تاريخ علم الشعر عند العرب ، وزاده هذا البحث استحكاما ، أن عبارات الطبقات الأولى من أهل العلم فتوح لما تلاها من الرأى ، ان طبقنا عليها قانون السبق والأخذ قلنا : إنها مبدعات آراء تدل على لطف فهم ، وحسن استنباط فلهم فيها فضل السبق ، ودرجة السابق مهما زاد اللاحق واتسع ٠

ذلك هو طابع الحياة الشجرة الباسقة من البذرة ، والصرح الشامخ من الحجر ، وهذه هى طبيعة العلم فى أى باب من أبوابه ينشأ قليلا ثم يكثر،ومجملا ثم يفصل،حتى تكون الكلمة نظرية،والعبارة كتابا،وقد نص على هذا المعنى مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (٦٠٦ هـ) وهو يعرض لتاريخ التأليف فى علم غريب الحديث ، فقال : « إن أول

---

(٢٠) مفتاح العلوم ٤١٣ ، ٤١٤ ٠
(٢١) راجع ص ٥٤ ٠

من جمع فى هذا الفن شيئا وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات، ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث - تأمل - وإنما كان ذلك لأمرين : أحدهما أن كل مبتدىء لشىء لم يسبق إليه ، ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه ، فإنه يكون قليلا ثم يكثر ، وصغيرا ثم يكبر ، والثانى: أن الناس كان فيهم بقية،وعندهم معرفة ، فلم يكن الجهل قد عم ، ولا الخطب قد طم »(٢٢) .

وعلى ذلك فكلمة عمر وعلى رضى الله عنهما - مثلا - فى ابتداع امرىء القيس ، وبجسه عين الشعر لمن بعده أصل لما قاله النقاد بعد فى ابتداع امرىء القيس ، وبدائعه التى سبق إليها ونوزع فيها فلم تلحق ، وما قاله النقاد بعد شرح لذلك الأصل ، وتفريع عليه ، وتوكيد له .

وقول بشار : يعمد إلى معانى فيكسوها لفظا أخف من لفظى ... الخ . أصل لما قيل فى حسن اتباع المتبع ، واستجداده العبارة للمعنى سبق إليه و (اللفظ الأخف) قد عبر عنه يحيى بن على المنجم بـ (حسن الصنعة) وعبر عنه ابن طباطبا بـ (حسن الكسوة) ثم شرح النقاد بعد ذلك معنى اللفظ الأخف وحسن الصنعة والكسوة وفرعوا عليها فصارت عند المرزبانى : اضاءه المعنى ، والزيادة فيه ، والإتيان بأجزل من كلام الأول ، وعند القاضى الجرجانى : نقل المعنى، وقلبه ، وتغيير منهاجه ، وترتيبه ، والزيادة فيه ، وتأكيده ، والتصرف فيه بالتعريض والتصريح ، والاحتجاج له والتعليل ، وعند الشريف المرتضى : حسن النسج ، وسلامة السبك ، ونصاعة العبارة وتقبل القلوب لها ، وعند ابن رشيق : اختصار الكلام إن كان طويلا ، وبسطه إن كان

---

(٢٢) النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/٥ .

كزا ، وبيانه إن كان غامضا ، وإحسان لفظه إن كان سفسافا ، وترشيق وزنه إن كان جافيا ، وقلبه أو صرفه . وعند حازم القرطاجنى أن يركب على معنى الأول معنى جديدا ، أو يزيد فى معناه ، أو ينقله ، أو يقلبه أو يركب عليه عبارة حسنة أو نحو ذلك .

- ٢ -

أرخت فيما تقدم لأحكام المشافهة والمذاكرة ، فى باب ابتداع المعانى الشعرية واتباعها - التى نقلت بعد من الصدور إلى القراطيس ، وفرقت فى الكتب بعد عملية التدوين ، وأؤرخ الآن لما كتب فى الباب من رسائل وكتب ، خالصة أو غير خالصة ، وذلك فى حدود ما وقع لى،ولم استقص كل الاستقصاء .

نص عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) على أن من قبله من العلماء قد وضعوا كتبا فى اختلاف العبارتين على المعنى الواحد ، وفى أخذ الشاعر من الشاعر ، وفى أن يقول الشاعران على الجملة فى معنى واحد ، ودونوا فى ذلك أشعارا ، وأن هذه الكتب عليها كبير معول فى معرفة مرجع الفصاحة والبلاغة فى الكلام ، وأن من ضلوا فى معرفة مرجع الفصاحة والبلاغة إنما أتوا من قلة نظرهم فى تلك الكتب(٢٣). واختلاف العبارتين على المعنى الواحد ... الخ هو صلب الاتباع الشعرى ، وقوله : دونوا فى ذلك أشعارا يدل على أن كلامهم فى المسألة قد جمع بين النظرية والتطبيق .. وكون هذه الكتب عليها المعول فى معرفة مرجع الفصاحة والبلاغة دليل على أن كلامهم فى الابتداع والاتباع من لباب نقد الشعر . وهذا كأنه ناظر إلى قول القاضى الجرجانى قبله : إن من لا يعرف دقائق الابتداع والاتباع فى معانى الشعر لا يعد

---

(٢٣) دلائل الإعجاز ٣١٦ نقلا وتصرفا .

من جهابذة الكلام ، ونقاد الشعر(٢٤) ٠

وعبد القاهر لا يذكر كتب من قبله فى هذا الباب بالذى ذكرها به ، ولا يحيل عليها بما أحال به عليها إلا وهى من الكثرة والنباهة بحيث ينبه إليها ، ويحال عليها ٠

واقدم من ذُكر له فى المسالة كتاب يوقف عنده - فيما أعلم - هو الآمدى (٣٧٠ هـ) : ذكر له ابن النديم ، وياقوت كتاب « الخاص والمشترك » ، وقال عنه ياقوت : فرق فيه بين المعانى التى تشترك العرب فيها ، ولا ينسب مستعملها إلى السرقة ، وان كان قد سبق إليها ، وبين الخاص الذى ابتدعه الشعراء وتفردوا به(٢٥)٠والكتاب بهذا الوصف من ادخل الكتب فى باب الابتداع والاتباع ، وهو يقوم على إحكام أصل من أصح أصولهم فى هذا الباب - كما سترى بعد -(٢٦) وهو : أن المعانى الاتفاقية المشتركة المبتذلة خارجة من باب السبق والاتباع ، أخرجها شيوعها ، وتساوى الأقدام فيها ٠ ونسب ياقوت للآمدى كتابا آخر - ولم يصفه - فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما(٢٧) ، وعنوان الكتاب يدل على أنه فى الاتباع الشعرى وفى صميم مسألة التوارد(٢٨) وكتابا الآمدى ضائعان ، وضياعهما خسران ، وأى خسران ٠ وللآمدى آراء حسنة ، وتطبيقات كثيرة جيدة فى كتابه الباقى : الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى » ٠

---

(٢٤) الوساطة ١٨٣ ، وهو فى العمدة مشروحا مفسرا ٢٦٥/٢ ٠
(٢٥) الفهرست ٢٢١ ، ومعجم الأدباء ٨٦/٨ ٠
(٢٦) انظر ما يأتى ص ٥٩ ، ١٥٩ ٠
(٢٧) الفهرست ٢٢١ ٠
(٢٨) انظر ما يأتى ص ١٦٧ ٠

وذكر المرزبانى (٣٨٤ هـ) فى خطبة كتابه : « الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء » أن له كتابا فى سرقات معانى الشعر أتى فيه على كثير منها . وهو ضائع أيضا . وذكر له عبد القاهر الجرجانى(٢٩) كتابا آخر ضائعا هو (الشعر والشعراء) عقد فيه فصلين حسنين فى الأخذ الشعرى ، نقل عبد القاهر بعضا منهما . ولا أدرى هل هما كتابان أو كتاب واحد ، ولكن عنوانهما ، وما نقله عبد القاهر عن الثانى منهما دليل على أنهما من مصادر الابتداع والاتباع فى الشعر . وفى كتاب المرزبانى الباقى : الموشح .. روايات ، وأحكام كثيرة تدخله فى ما دخل فيه كتاباه الضائعان .

وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى (٣٨٥ هـ) كتاب فى صنعتي الشعر والكتابة بعامة ، ولكنه عقد فيه فصلين(٣٠) : الأول فى (حسن الأخذ) نيف فيه على الأربعين مثالا ، والثانى فى (قبح الأخذ) زاد فيه على العشرين مثالا ، ونثر أمثلة أخرى وأقوالا فى المسألة فى سائر فصول الكتاب . فهو من مصادر هذا الباب وإن لم يكن خالصا له .

وقد أخبر أبو هلال عن نفسه - بعقب الأمثلة التى أوردها لقبح الأخذ - بأنه أتى فى هذا الباب على الكفاية ، وأن لا أحد سبقه إلى تفصيل القول فى أخذ المعانى الشعرية ،فجمع بين قول السابق المبتدع والآخذ التالى ، وبين فضل الأول على الآخر والآخر على الأول ، وأن العلماء قبله كانوا ينبهون على مواضع الأخذ أو السرق ويدعون

---

(٢٩) راجع دلائل الإعجاز ٣١٣ .
(٣٠) راجع الصناعتين ١٩٦ - ٢٣٨ .

التفصيل(٣١) . والحق أن أبا هلال قد أكثر من الأمثلة ، وافتن فى تحليلها ونقدها ، وفى محاولة استخراج المزية فى كلام السابق المبتدىء والمحتذى المتبع ، واتكأ فى ذلك كله على نفسه كثيرا فهو من حذاق هذا الباب . ولكنى أراه أسرف فى قوله : إنه أول من فعل .. إلا أن يحمل قوله على التجوز ، وأنه إنما أراد أنه عنى بذلك فوق عناية من سبقه .. وأبو هلال - رحمه الله - كان قوى الاعتداء بنفسه ، حسن الظن بعلمه .

وكتاب القاضى الجرجانى (٣٩٢ هـ) : « الوساطة بين المتنبى وخصومه » فى نقد الشعر عامة ، ونقد شعر أبى الطيب خاصة ، ولكن فيه أمثلة كثيرة ، وأقوالا بديعة ، ولفتات دقيقة فى باب الابتداع والاتباع،وفى أخذ المتنبى من الشعراء وأخذهم منه،وأخذ بعض الشعراء قبله من بعض .

وكتاب (المنصف) لابن وكيع التنيسى (٣٩٣ هـ) ، وكذا رسالة أبى سعيد محمد بن أحمد العميدى (٤٣٣ هـ) فيهما نماذج كثيرة جدا للأخذ الشعرى ولكن تحاملهما الواضح على أبى الطيب المتنبى أزاغ أذواقهما فخلطا كثيرا بين ما هو اتباع مشروع ، وأخذ سائغ تربو به صنعة الشعر ، وتتوالد المعانى وتتناسل ، وبين ما هو سرق بين يدل على العجز ، ويفضح العبقرية .

وابن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ) فريد فى عنايته ، بهذه القضية، فقد ألف فيها رسالة « قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب » . وهى خالصة لباب السبق والاتباع ، عقدها على اثبات سبق امرىء القيس ،

---

(٣١) الصناعتين ١٧٩ ، ٢٣٧ .

والإقرار ببدائعه الفائته والفائقة ، فكأنها شرح مفصل لمقالة عمر وعلى رضى الله عنهما فى بيان سبق امرىء القيس .

وذكر ابن رشيق فى موضع من كتابه (العمدة)(٣٢) عزمه على تسطير كتاب يحصى فيه معانى الجاهلية ، وابداعات المحدثين ، وما شاركوا فيه المتقدمين ، ويقيم به البرهان على أن ابن الرومى أكثر المحدثين اختراعا . وهذا النعت لا يصدق كل الصدق على رسالته : قراضه الذهب وإن كان فيها بعض منه . فاحر به أن يكون عزمة لم تنعقد وكتابا لم يؤلف ، أو ألّف كله أو الف منه شىء ثم ضاع فيما ضاع. كما أورد ابن رشيق نماذج كثيرة ، ونقدات ذكية،وآراء حسنة فى السبق إلى المعانى وأخذها فى الباب الذى عقده « للسرقات الشعرية ، وما شاكلها »(٣٣) فى كتاب العمدة .

وعقد عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) فى « دلائل الإعجاز » بابا للموازنة بين اللفظ المتعدد للمعنى المتحد ، نيف فيه على الخمسين مثالا من أمثلة الأخذ بعضها مما ورد فيه المعنى غفلا فى أحد الشعرين، مصورا مصنوعا فى الآخر ، وبعضه مما ترى فيه فى كل واحد من الشعرين صنعة وتصويرا ، وأستاذية على الجملة(٣٤) . ونثر أمثلة أخرى وآراء فى بقية كتاب « الدلائل » وفى كتاب « أسرار البلاغة » وفى « الرسالة الشافية » فى بيان إعجاز القرآن .

وقد أبر الشيخ فيما قال فى هذا الباب على من تقدمه ، وزاد على من سبقه.وليست زيادة عبد القاهر من جهة كثرة ما أورد من الأمثلة ، فالآمدى ، والقاضى ، وأبو هلال ، وابن رشيق قد أكثروا من الأمثلة، ولا من جهة أنه قال ما لم يُقل قبله فقد ذكر الشيخ نفسه أن العلماء

---

(٣٢) العمدة ٢٢٩/٢ ، وراجع تاريخ آداب العرب للرافعي ٤٦ .
(٣٣) راجع العمدة ٢٦٥/٢ - ٢٧٧ .
(٣٤) دلائل الإعجاز ٣١٦ وما بعدها .

بالشعر قبله قد ألفوا فى المسألة كتبا ، ولكنه استحق المزية - فيما أرى - وحاز الفضل من وجهين :

الأول : أنه كان ترجمان كلام السلف فى هذا الباب ، وكاشف خبيئه ، والمنبه على غامضه ودقيقه فهو الذى كشف مرادهم بالمعنى فى قولهم : أخذ المعنى ، وعن مرادهم باللفظ فى قولهم : كساه لفظا ، أو زاد على فلان فى اللفظ ، وبين وجه قولهم : فلان وشى المعنى ، وقولهم : فجاء بمعنى الأول .. وفرق بين أصل المعنى وصورته ... الخ . ولولا الشيخ - رحمه الله - لبقى أكثر كلامهم هذا من العصى الذى لا يعرف إلا سماعا ، لأنه من أقوال المشافهة والمذاكرة .

والثانى : أنه افتن أكثر من غيره فى تحليل نماذج مما تواطأ فيه الشعراء على معنى واحد ، وكشف عن وجوه المزايا فى العبارة الثانية عن المعنى المسبوقَ إليه ، واجتهد فى وضع أصول منهج لتعليل ما يدركه التعليل من الجمال الأدبى ، يمايز بين صور المعانى وهيآتها ، وفنون العبارة وطرائقها(٣٥) .

ثم ألف ابن الأثير (٦٣٧ هـ) ثلاثة كتب فى الابتداع والاتباع ضاع منها اثنان فيما ضاع وهما : «عمود المعانى» و «الرسالة فى المعانى المبتدعة» ، وقد وصف ابن الأثير كتاب « عمود المعانى » بقوله : « وقد ألفت فى ذلك - يعنى أعمدة المعانى وما يخرج من شعبها - كتابا ، وسميته عمود المعانى ، وجعلته مقصورا على ضروب المعانى الموجودة فى النظم والنثر ، وما فيها من الأعمدة المطروقة ، وما يخرج عنها من الشعب . وهو كتاب تعبت فى تأليفه زمنا طويلا ، وأنا ضنين به »(٣٦) .

(٣٥) راجع دلائل الإعجاز ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٣١٢ ، ٣٣٠ وغيرها .
(٣٦) الاستدراك ١١ .

ولم يمسكه عليه ضنه به فضاع . ومن الواضح من وصفه له أنه فى صميم باب ابتداع المعانى واتباعها .

وأما « الرسالة فى المعانى المبتدعة » فقد فاضل فيه بين الكلامين اختلف معناهما(٣٧) ، فهو شركة بين قضيتى الموازنات الشعرية ، والابتداع والاتباع ، وإن كان عنوانه يدل على أنه أدخل فى باب الابتداع . وهذا الكتاب ضائع كذلك . وكتابه الثالث باق مطبوع وهو : « الاستدراك فى الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذة الكندية من المعانى الطائية » وهو بحث فى الأخذ الشعرى بشقيه : الاتباع المشروع والسرقة المذمومة ، وهو يشبه من بعض الوجوه رسالة ابن رشيق: « قراضة الذهب » . يضاف إلى هذه الثلاثة كتابه الكبير « المثل السائر » وأخص المبحث الذى عقده فيه للسرقات الشعرية .

وعقد أبو الحسن حازم القرطاجنى (٦٨٤ هـ) فصلا فى كتابه : « منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء » بعنوان : « معلم دال على طرق العلم بأنحاء النظر فى المعانى من حيث تكون قديمة متداولة ، أو جديدة مخترعة »(٣٨) حشد فيه جل أصول الباب ، وجمع بين الرواية والدراية: بين أقوال من تقدمه ، وبين قوة ملكته فى التحليل والاستنباط ...

وذكر الدكتور هدارة أن فى مكتبة بلدية الاسكندرية مخطوطا لمحمد ابن أبى بكر الرازى من رجال المائة الثامنة بعنوان « معانى المعانى » قصد فيه إلى استخراج معانى الشعر المبتدعة(٣٩) . ولم يتيسر لى الاطلاع عليه .

---

(٣٧) السابق ٦٠ .
(٣٨) منهاج البلغاء ١٩٢ ـ ١٩٦ .
(٣٩) مشكلة السرقات ١١٩ .

هذا سرد لأبرز ما ألف فى الابتداع والاتباع ، وبدهى أنى تركت كتبا كثيرة لم تخل من نص أو أكثر فى الباب ، وهى الكتب المصادر فى النقد العربى القديم . وزد عليها كتب البلاغيين المتأخرين .. السكاكى ومن بعده فيما كتبوه عن السرقات ، هذا ما بقى من مؤلفات القدماء ، أما ما ذهبت به الأيام فكل ما كتب فى الشعر ومعانيه ، وفى طبقات الشعراء ، وفى السرقات مما لم يبلغنا إلا اسمه ، وهو أكثر من أن يحصى .. وهذا بعض ما استخرجته من كتاب الفهرست لابن النديم وحده :

« معانى الشعر » لأبى الحسين على بن محمد بن الزبير الأسدى الكوفى وصفه ابن النديم بأنه « راوية جماعة للكتب ، صادق فى الحكاية ، منقر بحاث » (ص ١١٧) ، و « معانى الشعر » لليمان بن أبى اليمان البندنيجى لقى ابن السكيت (ص ١٢٢) ، و « الترجمان فى معانى الشعر » لأبى عبد الله المفجع محمد بن عبد الله الكاتب البصرى(ص١٢٣) ، و « معانى الشعر » لمقداد بن عبد الحميد الكرخى المعروف بابن لزة (ص ١٢٣) ، و « معانى الشعر » لعلى بن محمد بن عبدوس (ص ١٢٧) ، و « معانى شعر البحترى » للآمدى (ص ٢٢١) ، و « معانى الشعراء » للبحترى !! (ص ٢٣٥) . ومنها : كتاب « السرقات » لابن المعتز (ص ١٦٩) و « سرقات الشعراء » لأحمد بن أبى طاهر طيفور (ص ٢٠٩) ، و « كتاب السرقات » لأبى القاسم جعفر بن حمدان الموصلى . قال ابن النديم : « ولم يتمه ، ولو قد أتمه لاستغنى الناس به عن كل كتاب فى معناه » (ص ٢١٣) وكتاب « سرقات البحترى من أبى تمام » و « السرقات الكبير - لم يتمه - كلاهما لأبى ضياء بشر بن يحيى النصيبى (ص ٢١٣) .

وبعد .. فإن هذا السرد لتاريخ القول فى الابتداع والاتباع يكشف عن أمور :

أولها : أن العرب القدماء قد عنوا بالقضية عنايتهم بغيرها من مباحث النقد الأدبى ، فقالوا فيها شفاهة ومذاكرة ، ولما صاروا أهل كتابة كتبوا فيها وسطروا .

وثانيها : أن ما ضاع مما ألف فى القضية أكثر مما بقى ، وأن جل ما كتب فيها خالصا لها منذ الآمدى قد ضاع .. وهذا يزكى ما قلته من أن الذى ضاع من تراث الطور الشفهى كثير ، ويحول بين الباحث وبين تأريخ القضية تأريخا دقيقا ، وتقدير عطاء القدماء فيها تقدير صائبا ، ويحمل على التوقف عن اصدار أحكام قاطعة على مبلغ ما وصل إليه النقد العربى القديم فى هذا الباب من أبواب نقد الشعر .

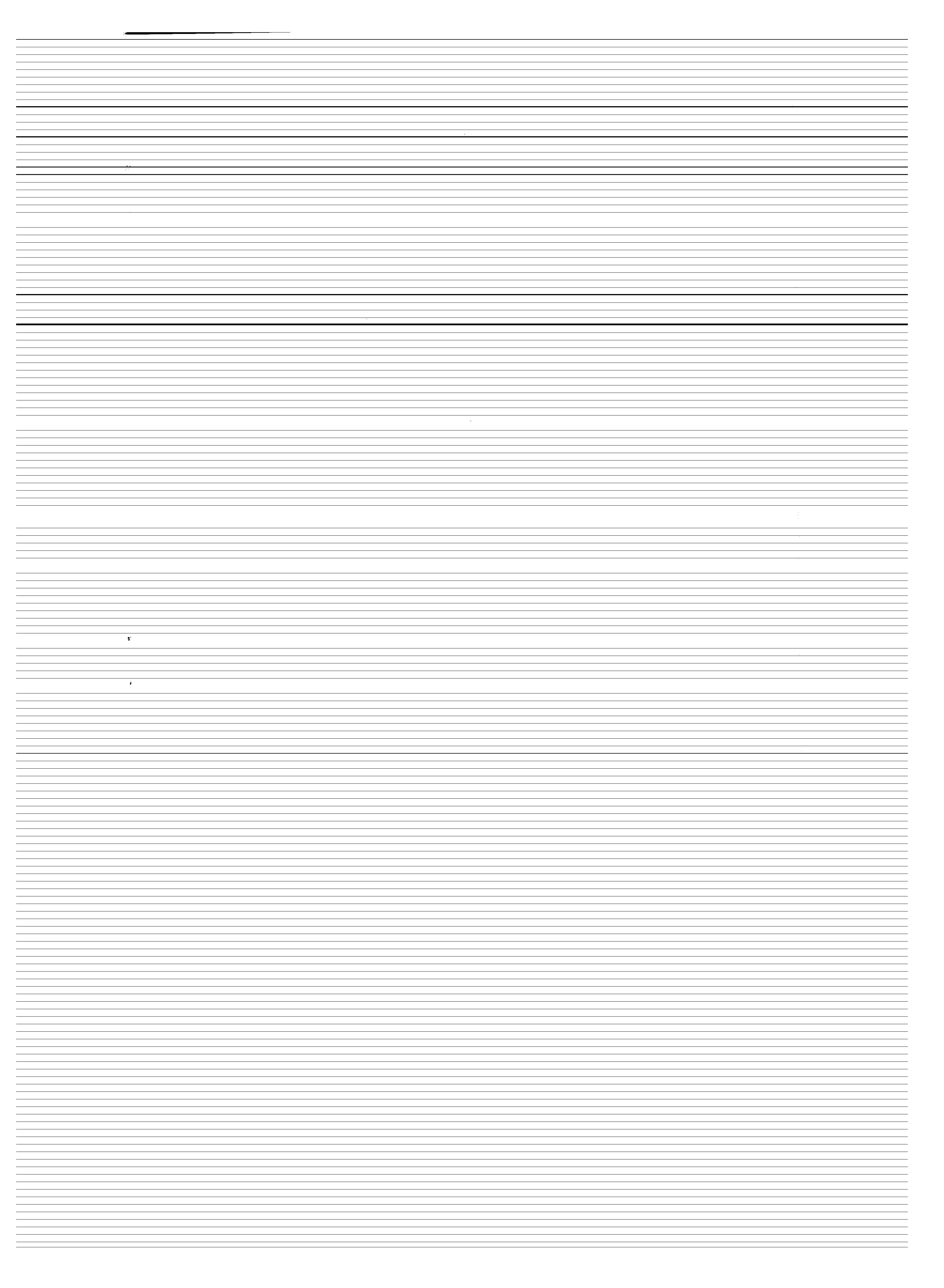
وثالثها : أن ما كتبوه فى القضية قد تداخل بعضه مع الذى كتبوه فى « الموازنات » و « السرقات » .

ورابعها : وآخرها أنهم قد مضوا فى هذه القضية على مثل ما مضوا عليه فى غيرها ، وجمعوا فى أحكامهم فيها بين الرواية والدراية ، وبين النظرية والتطبيق،وبين الوجازة والتفصيل،وبين إظهار العلة والسكوت عنها ... إلى غير ذلك مما هو معروف من مذاهبهم فى الحكم النقدى، وطرائقهم فيه .

الفصل الأول



الابتداع



- ١ -

قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) للعباس بن عبد المطلب ، وسأله عن الشعراء : « امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين الشعر ... »(١) وذكر أبو الحسن : على بن أبى طالب (رضى الله عنه) امرأ القيس فقال : « رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ... »(٢). وقال أبو نواس (١٩٨ هـ) ـ وقد عابه عمرو الوراق بأخذ معنى من معانى النابغة الذبيانى : « ... لئن كان سبق فما أسات الاتباع »(٣). وقال رجل لدعبل بن على ـ وزعم له دعبل أن أبا تمام أخذ منه بعض معانيه ـ : « لئن كان سبق بهذا المعنى فتبعته فما أحسنت ، وإن كان أخذه منك لقد أجاد ، فصار أولى به منك »(٤) .

وقال أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) : « وقل معنى من معانى الشعر القديم تفرد بإبداعه شاعر ، إلا ورأيت من الشعراء من زاحمه ، واشتق منه شيئا ... »(٥) . وقال ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ـ وذكر معنى من معانى الخمر عند الأعشى زاحمه فيه أبو نواس ، وزاد عليه ـ « فللأعشى فضل السبق إليه ، ولأبى نواس فضل الزيادة فيه »(٦) .وقال أحمد بن أبى طاهر (٢٨٠ هـ) ـ بعدما ذكر التباس كلام العرب بعضه ببعض . وأخْذ إعجازه من صدوره ، وأواخره من أوائله ـ : « والمبتدع

---

(١) الشعر والشعراء ١/١٣٣ . والأغانى ٨/٢٩٤٥ ، والعمدة ١/٧٧ ، والمزهر ٢/٢٩٦ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٢/٣١ .
(٢) شرح نهج البلاغة ٤/٤٩٦ ، والأغانى ١٧/٦٢١٩ ، والعمدة ١/٢٨ وثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ١٣١ .
(٣) دلائل الإعجاز ٣٢٦ .
(٤) الصناعتين ٢١٣ .
(٥) الحيوان ٣/٣١١ .
(٦) الشعر والشعراء ١/٧٩ .

منه ، والمخترع قليل إذا تصفحته ، وامتحنته ... »(٧) وقال يحيى ابن على المنجم (٣٠٠ هـ) : « وحق من أخذ معنى ، وقد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه ... »(٨) .

وقال ابن طباطبا العلوى (٣٢٢ هـ) : « وإذا تناول الشاعر المعانى التى سبق إليها ، فأبرزها فى أحسن من الكسوة التى عليها لم يعب ، بل وجب له فضل لطفه ، وإحسانه فيه »(٩) . وذكر الآمدى (٢٧٠ هـ) أبا تمام فقال : « إن له مخترعات كثيرة ... »(١٠) .وقال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (٣٩٢ هـ) : « إنك إذا اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع وجدت منه مستفيضا متداولا ... الخ »، وقال أيضا فى الشاعر يشارك الجماعة فى المعنى المتداول ثم ينفرد بزيادة مستحسنة : « فيريك المشترك المبتذل فى صورة المبتدع المخترع »(١١) .

وقال الشريف الرضى (٤٣٦ هـ) فى الشاعر يعبر عن المعنى المتداول بأحسن عبارة وأبلغها : « فكأنه مبتدئه ومنشيه ، وما يضره أن سُبق إليه ، إذا كان منفردا بإحسان العبارة عنه ، فحظ العبارة فى الشعر أقوى من حظ المعنى »(١٢) .وقال ابن رشيق (٤٦٣ هـ) : « والمخترع معروف له فضله متروك له من درجته » وقال فى المتبع المحسن الذى زاد على من أخذ منه : « فهو أولى به من مبتدعه »(١٣) .

وقال حازم القرطاجنى (٦٨٤ هـ) : « فمراتب الشعراء فيما يلمون به من المعانى إذن أربعة : اختراع ، واستحقاق ، وشركة ،

---

(٧) حلية المحاضرة ٢٨/٢ . (٨) الموشح ٤٥١ .
(٩) عيار الشعر ٧٦ . (١٠) الموازنة ١٢٣/١ .
(١١) الوساطة ١٤٩ ، ١٨٦ . (١٢) طيف الخيال ١٠٤ .
(١٣) العمدة ٢٧٤/٢ .

وسرقة »(١٤) ·

هذه طائفة من نصوص كلام أهل العلم بالشعر من العرب القدماء: أربعة عشر نصا عليها وعلى أمثالها المعول فى فهم ما قاله القدماء فى باب (السبق إلى المعانى الشعرية) ، اجتزأت منها على مقدار الحاجة· وإنما عمدت إلى إثباتها فى هذه الفقرة بألفاظ قائليها ، وعلى توالى أزمانهم ليقف الناظر فيها ، على حقيقة (الألفاظ) التى استعملها النقاد القدماء ، للدلالة على معنى (الابتداع فى الشعر ، والسبق إلى المعانى) ، وليلم بطرف من تاريخ دوران هذه الألفاظ على ألسنتهم ، وتطورها ، وما بلغ مبلغ « المصطلح » لشيوعه وكثرة دورانه ، وما لم يبلغ ·

وأول ما يدل عليه تأمل النصوص أن نقاد الشعر من العرب لم يلتزموا فى هذا الباب (مصطلحا) واحدا لا يتجاوزونه ، ولم يلتزم الناقد الواحد منهم فيه لفظا واحدا لا يتعداه · هذا على أساس النصوص التى وجدتها فأثبتها ، فكان الناقد منهم يصف الشاعر تارة بأنه (سبق) إلى المعنى ، وأخرى بأنه (ابتدعه) ، وثالثة بأنه (اخترعه ··) وهكذا · وذلك معلوم من مذهب القوم فى الاصطلاح ، وطريقتهم فى الحكم ، فلما كان (السبق) ، و (الابتداع) و (الاختراع) وما جرى مجراها ألفاظا متعددة ذات دلالة واحدة تقريبا وهى : البدء ، وفعلُ الشىء أوّل(١٥) استخدموها جميعا للمعنى الواحد ، وهو:ابتداء الشاعر المعنى لم يسبق إليه ·

ولفظ (السبق) أقدم ألفاظهم فى هذا الباب ، وأطولها عمرا،

---

(١٤) منهاج البلغاء ١٩٦ ·
(١٥) انظر لسان العرب : (س ب ق) و (ب د ع) و (خ ر ع) ·

وأكثرها ترددا فى نصوصهم التى بأيدينا ، ورد فى كلام عمر وعلى رضى الله عنهما ، وبقى دائرا فى كلامهم إلى القرن الرابع الهجرى ، وما بعده ، وبلغ مبلغ المصطلح ، واستعمله المتنبى ، ووصف به نفسه فقال :

أنا السَّابق الهادى إلى ما أقوله
إذا القولُ قبل القائلين مقولُ (١٦)

ثم غلب على نقاد القرنين الرابع والخامس ، ومن بعدهم لفظا (الابتداع) و (الاختراع) كما تجده فى كلام الآمدى ، والقاضى الجرجانى ، وابن رشيق ، وعبد القاهر الجرجانى ، وحازم القرطاجنى ، وغيرهم ٠

ومما يدل عليه تأمل النصوص المثبتة هنا ، وغيرها مما هو من بابها ، أن ثمت ألفاظا دارت فى كلامهم على قلة ، ولم تشع شيوع سابقاتها مثل : (البدء) ، و(والابتداء) ، و(الأولية) ، و(الإنشاء) ، و(الابتكار) ، و(الإغراب)(١٧) ٠

على هذا جرى النقاد القدماء فى استعمال تلك الألفاظ ، وتدويرها فى كلامهم ، ثم فرق ابن رشيق بآخرة بين (الاختراع) و (الإبداع) - وإن كان معناهما فى أصل العربية واحدا - فجعل الاختراع للمعانى ، والإبداع للألفاظ(١٨) وإن لم يشع تفريقه بين اللفظين كل الشيوع ٠

وقد تحامى النقاد العرب استخدام لفظ (الخلق) ، مع أنه قد شاع ونبل لكثرة استخدام القرآن العظيم له ، ومع أنه من حيث الدلالة

---

(١٦) ديوان أبى الطيب ١٠٨/٣ ٠
(١٧) ممن استخدم لفظ الابتكار : أبو هلال العسكرى : الصناعتين ١٩٧ ، والشريف المرتضى ٠ طيف الخيال ٦٢ ، واستخدم أسامة ابن منقذ لفظ (الاغراب) ٠ البديع فى نقد الشعر ١٣٢ ٠
(١٨) راجع العمدة ٢٣٥/١ ٠

اللغوية بمعنى ما استعملوه من الألفاظ : فلم يقولوا فى الشاعر خالق(١٩) كما قالوا فيه سابق ، ومبتدع ، ومخترع .. إلخ . ويمكن تعليل هذا من وجهين : الأول : أن مقولة (الخلق الأدبى) التى أولع بها المعاصرون اليوم ، وأكثروا مضغها لاتلتئم مع نظرية العرب فى (صنعة الشعر) كل الالتئام ، لأن الخلق فى أظهر معانيه : ابتداء من عدم ، وإيجاد لاعلى مثال ، وصنعة الشعر العالى عند العرب شقان : شق هو ابتداع المعانى ، وشق هو توليد لها وأخذ ، وظاهر إن الأخذ والتوليد ايجاد من موجود ، وإجادة على مثال . أما الابتداع فهو مظنة أن يصح وصف عمل الشاعر فيه بأنه إيجاد من عدم ، ولكنه عند التحقيق ليس إيجادا من عدم صرف ، لأنه ابتداء تمده رواية ، ويرفده موروث . هذا من حيث الفن والصنعة ، وساعود إلى أشباع هذه المسألة . ووجه ثان من التعليل اعتقادى وهو أن يكونوا تركوا وصف الشاعر بأنه (خالق) تأدبا مع الله لأنه خالق كل شىء وفى خلق الموجودات تجلت قدرته وطلاقتها . وقد رجعت إلى لفظ (خلق) وما تصرف منه فى القرآن الكريم فوجدته تكرر فى نحو مائتين وخمسين موضعا ، الخلق فيها جميعا منسوب إلى الله تعالى إلا فى نحو أربعة عشر موضعا الخلق فيها منسوب إلى المخلوقين على المشاكلة أو مجاراة الخصم(٢٠) . فالخلق على التحقيق إذن كله لله . لهذا قال بعض أهل اللغة : إن (الخالق) بالألف واللام إذا أطلقت انصرفت إلى الله سبحانه وتعالى ، فلا تجوز

---

(١٩) لم يشذ عن هذا - فيما اعلم - إلا ابن رشيق فانه ذكر الخلق مضافا إلى المعانى فى قوله : الاختراع خلق المعانى التى لم يسبق إليها .. الخ العمدة ٢٣٥/١ .

(٢٠) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (خلق) .

صفة لغيره(٢١)٠ثم كأنى بهم تركوا وصف (الخالق) خالصا لله تعالى بالألف واللام وبغيرها ورعا،وتأدبا،وفى اللغة متسع لهم٠وربما كانت مقولة (الخلق الأدبى) - التى ترددت فى الفكر النقدى الغربى ثم نقلها بعض أدبائنا - بقية من بقايا فكرة (الإلهام) اليونانية القديمة التى كانت تزعم أن الشعراء تلهمهم الآلهة ٠

- ٢ -

من الأصول التى نص عليها المحققون من النقاد القدماء : إن السبق فى الحقيقة وصف للشاعر لا للشعر ، وعند التدبر مزية فى القائل لا فى القول ، وإن النصوص التى جاء فيها السبق وصفا للمعانى الشعرية مبناها على التجوز ، لا على التحقيق ٠

ومن أوائل من نص على هذا - فيما أعلم - قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) ، فإنه قال : « واحسب أنه اختلط على كثير من الناس وصف الشعر بوصف الشاعر ، فلم يكادوا يفرقون بينهما ، وإذا تأملوا هذا الأمر نعما ، علموا أن الشاعر موصوف بالسبق إلى المعانى ، واستخراج ما لم يتقدمه احد إلى استخراجه ، لا الشعر »(٢٢)٠ثم تبعه أبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) ، وزاد فذكر العلة ، ووجه الرأى فقال: « على أن ابتكار المعنى ، والسبق إليه ، ليس هو فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما هو فضيلة ترجع إلى الذى ابتكره ، وسبق إليه فالمعنى الجيد جيد ، وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وسط ، والردىء ردىء وإن لم يكونا مسبوقا إليهما »(٢٣)٠وهذا المعنى نفسه فى كلام من عاصر قدامة وأبا هلال ، ومن جاء بعدهما من محققى النقاد كابن طباطبا ، والآمدى ، والقاضى الجرجانى ، والشريف الرضى ، وابن سنان ،

---

(٢١) لسان العرب (خلق) ٠

(٢٢) نقد الشعر ١٥٢ ٠ (٢٣) الصناعتين ١٩٧ ٠

وابن رشيق ، وعبد القاهر ، وحازم القرطاجنى ، وغيرهم ٠

وليس معنى نص قدامة بن جعفر ومن عاصره أو جاء بعده على هذا الأصل النقدي الجليل ، أنه غاب عمن كان قبلهم من أهل العلم بالشعر ٠ لا ، وارجع إلى النصوص التى أثبتها أولا لترى أن عمر وعليا (رضى الله عنهما) ، وأبا نواس ، وأبا عثمان ، وابن المنجم قد جعلوا السبق أو الابتداع وصفا للشاعر ، وعقدوه مزية له ٠ وقول قدامة : قد اختلط على كثير من الناس معناه أنه لم يكن قبل ، كذلك وأنه حين اختلط لم يختلط على كلهم ٠

أما الآمدى والقاضى الجرجانى فقد جاء (الابتداع) أو (الاختراع) وصفا للمعنى الشعرى لا للقائل فى بعض ما نقلته عنهم ، وذلك منهم على التجوز والتوسع لا على التحقيق كما تقدم ، فالأصل معمول به عندهم جميعا ٠

فان قلت : فما قيمة لهذا الرأى عندك حتى تنعته بالأصل الجليل؟ قلت : لأنه أصل الأصول فى فهم نظرية الابتداع والاتباع فى الشعر عند العرب ، وبرهان نير على مبلغ ما علموه من أسرار صنعة الشعر ، وهو وحده - إذا تدبرته - حرى بان يرد عن القدماء كثيرا من اللغو الذى رموا به فى بعض ما كتب فى (السرقات الشعرية) ٠ وحقيقة هذا القول أن الشاعر حين يبتدع معنى من المعانى،مما يقال فيه:إنه معنى مختص بقائله ، ثم يأتى شاعر فينازعه إياه فيزيد عليه فيه زيادة ويصنعه صنعة أحسن من صنعته أو يعجز عن هذا،ثم يأتى الناقد فسبيله إما أن يعمد إلى الحكم على الشاعرين،أو يفاضل بين الشعرين فإن حكم على الشاعرين قدم السابق لأن السبق فضيلة فيه ومزية له لما ستعلمه بعد،وإن فاضل بين المعنين من حيث الصنعة قدم الأجود منهما،والأدخل فى حسن الصنعة.فللمفاضلة بين الشاعرين فى هذا وجه ، وللمفاضلة بين المعنيين

وجه آخر ، فإذا جمع الناقد الوجهين قال : فللأول فضل السبق وللمتبع ـ إن كان أحسن ـ فضل الزيادة والإحسان ، وهذا قانونهم فى البـاب كله إلا من ختله الجهل منهم ، أو أعمته العصبية .

ثم إنهم أبقوا للسابق فضيلة سبقه ، وحفظوها له ، وإن زاد عليه ـ فى الإحسان ـ الذى نازعه المعنى . قال القاضى الجرجانى : إن السبق هو الفضيلة العظمى(٢٤).وقال ابن رشيق : إن « المخترع معروف لـه فضله ، متروك له من درجته »(٢٥).وبقولهما قال أكثر النقاد القدامى من قبل ومن بعد ، إن تصريحا ، وإن غير تصريح ، فعلى أى شىء بنوا هذا الرأى ؟

قل كلامهم الصريح فى هذا ، وأكثر ما جاء عنهم فيه إنما هـو وحى ، وإشارة إلى المعانى من طرف خفى ، وهو مذهبهم فى كثـير مما قالوه . وهذا طرف مما عقلته عنهم فى هذا الباب .

كأنى بهم قد بنوا هذا الرأى على أن معـانى النفس غيب حتى تظهر ، وخبىء حتى تكشف،وهو معنى صحيح نقله أبو عثمان الجاحظ ـ رحمه الله ـ عمن وصفهم بأنهم «بعض جهابذة الألفاظ،ونقاد المعانى» قالوا : إن معانى الصدور ، ودفائن العقول ، وكنوز النفوس ، والخواطر إنما هى مستور خفى ، ومحجوب مكنون ، وبعيد وحشى ، وموجـود كالمعدوم،وإنما حياتها فى التعبير عنها،وإخراجها بحق الفاظها(٢٦). ومتى كان الأمر كذلك فإن السابق من الشعراء يأتى إلى معانى العقـل والقلب وهى غيب مستور ، فيستثيرها ـ بفطنته ـ من مكامنها ، وينفخ فيها روحها ، وينقلها من عالم النفس وهو غيب إلى عالم الشهادة ، وهو

---

(٢٤) انظر الوساطة ٢٧٤ .   (٢٥) العمدة ٢٧٥/٢ .
(٢٦) راجع البيان والتبين ٥٤/١ بتصرف .

اللفظ ، فإذا جاء من بعده فاستولد تلك المعانى ، أو شققها ، أو عدل بها عن جهتها ونقلها ... وجب أن يبقى للأول فضل استخراج المعنى، واستثارته من مكمنه فى العقل ، أو القلب ، مهما زاد المتبع وجوّد ، لأن تجويده ، أو بعضه - عند التحقيق - من فطنة السابق ، وكدحه فى طلب المعنى . فهالة السراج - عند التحقيق - من سواد الزيت . وقد نص الشريف المرتضى على هذا المعنى فقال : إن فضيلة السبق إنما ينالها السابق من جهة استخراجه المعنى ، واستنباطه ، الدالين على قوة طبعه ، وصحة فكره لأن السبق نتيجة الفكر ، وثمرة الخاطر(٢٧) .

فالشاعر المبتدع - إذن - يعمل عملين : تكون المعانى غيبا فيحضركها بفطنته ، يختار لها اللفظ الحامل لها ، والكسوة اللائقة بها ، أما المتبع فالمعنى محضر لديه فهو يولده أو يصرفه ، أو يزيد فى نقشه ، وتوشيته(٢٨) . ويتصل بهذا ما أشار إليه الباقلانى : من أن تخير الألفاظ للمعانى التى عرفت ، وتنوزعت أيسر وأقرب من تخيرها للمعانى التى تخترع ، وتبتدع - وهو معترض عليه فى هذا الرأى - ولكنه بنى عليه أنه إذا اتفق اللفظ المختار للمعنى المبتدع،وانضاف إلى ذلك حسن التصرف، وموافقة المعانى للألفاظ ، والألفاظ للمعانى ، فتلك الطبقة العليا من البراعة ، ويأتى دون هذا عنده اختيار الألفاظ الرائقة للمعنى المتداول المقول(٢٩) .

وأنا أعد تركهم فضيلة السبق للسابق - مهما زاد المتبع - من دقائق الآراء ، ولطائف الفطن ، وأراه فقها نقديا يصيب صميم ما يقوله المعاصرون عن الأصالة الشعرية.وهو من بعد رأى بصير مؤسس على أصل

---

(٢٧) طيف الخيال ٩٠ .
(٢٨) راجع الصناعتين ٢١٦ .
(٢٩) راجع إعجاز القرآن ٤٢ .

صحيح هو ان المبتدىء فى الامور ليس كالمقتدى ، وهو أصل قديم ٠
قال العتبى : وسمعت اعرابيا يقول : « ليس المبتدىء كالمقتدى »(٣٠)
قلت : وليس من بدأ بناء كمن رفع بناءه على بناء غيره ٠وسترى أن هذا
الرأى منسجم مع فهم العرب لمعنى الشعر وصنعته ، وما به يصير الشاعر
شاعرا ، وهو الفطنة إلى المعانى واستخراجها ، ونظوم الكلام وتاليفها ٠

- ٣ -

ولكن فى أى شىء يكون الابتداع ؟ وعلى أى شىء يقع الوصف به؟٠
قال نقاد الطبقات الأولى : إن الابتداع واقع فى المعانى ، ثم سكتوا فكان
قولهم هذا ـ وكذا ما أشبهه ـ من عصى القول وعسيره ، وصار مزلة
ولدت سوء فهم كثير فى مبلغ معرفة العرب بالألفاظ والمعانى ،
وموضعهما من صنعة الشعر ٠

ولا ريب أننا نلقى اليوم العنت وما فوقه فى فهم كثير من مصطلحات
الأوائل ، ومرامى كلامهم : عنتا يكاد يطيّش الحليم ، ويُعجل المتثبت ،
وإنما يمنع من ذلك حسن الظن بالعلماء ، وجميل الاعتقاد فيهم ،
ومعرفة انهم اشبهوا عصورهم ، وكتبوا لأزمانهم وخاطبوا من هو من
طبقتهم ٠ وفى مثل حالهم ٠ قالوا : إن امرأ القيس سبق إلى معان اتبع
فيها وزوحم عليها ، ومثل هذا قالوا فى أبى تمام ، فبقى قولهم :
(مَعَانٍ) خفيا ، ومرادهم فيه عصيا ، ثم جاء الآمدى (٣٧٠ هـ)
فكشفه بعض انكشاف بقوله : إن ضالة الشعراء وطلبتهم (لطيف المعانى)٠
قال : ومن هذا الوجه قدم امرأ القيس من قدمه ، وقدم أبا تمام
من قدمه(٣١) فزاد بقوله (لطيف المعانى) زيادة ، ثم جاء ابن رشيق
(٤٦٣ هـ) فقال : « إن المعانى التي يقال : إنها اختراعات ، وإن

(٣٠) البصائر والذخائر ٢٧٣/١ ٠
(٣١) الموازنة ٤٢٠/١ ٠

اخذها سرقات إنما هى المقاصد ، وترتيبها ، والطرق إليها »(٣٢)
فكشف قناع الراى ، وفك عنه اكثر قيوده.ثم جاء عبد القاهر (٤٧١ هـ)
- رحمه الله - ترجمان كلام الأوائل ، فجلى - لنا - مرادهم ، وأسمع
عنهم،وقال : إن السبق والاختراع واقع فى المعانى من جهة « ترتيبها
على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التاليف مخصوصة»(٣٣)٠
ومضى يشرح هذا القول وما اتصل به فى حديثه المسهب عن النظم ،
وكلامه عند الصورة والاسلوب ، ويفيض فى هذا ما شاء الله له أن
يفيض(٣٤) ٠

اقول : « كشف لنا ، وجلى لنا » لان هذا الكلام العصى لم يكن
خفيا على من قالوه ، ولا على من فى مثل طبقتهم ممن عاصرهم ،
او جاء بعدهم ، وهذا مثال يدل على ان كلام الأولين أصول كلام
الآخرين ، وأن كلام الآخرين كثيرا ما يكون شرحا لاشارات عصية ،
ومقاصد خفية فى كلام من تقدمهم اخفاها غربتها عن زمانها ، وأن
تفسير خبىء كلام السابق بإفصاح اللاحق ميسور فى كثير من مشكل العلم
فى الشعر وفى غير الشعر إذا رزق المرء حسن الظن بالعلماء ، والرسوخ
فى العلم ، والصبر على معاناة النظر ٠ وقد نص المتاخرون من القدماء
على أن الأوائل منهم سبقوا إلى الفطن فى مغارسها ، وإلى أبكار الأفكار
فى خدورها(٣٥) ٠ فالعجب العجب ممن يجعل وضوح كلام المتاخر علة
فى تقبيح خفى كلام السابق ، ولو كان ذلك حقا وعدلا لكان الذين فصلوا

---

(٣٢) قراضة الذهب ٥٥ ٠
(٣٣) أسرار البلاغة ٩٧/١ ، ودلائل الاعجاز ٣٥٤ ٠
(٣٤) راجع دلائل الاعجاز ٤٤ ، ٣٠٩ ، ٣٤٥ ٠
(٣٥) راجع دلائل الاعجاز ٣٥٠ ، وسر الفصاحة ١٣٥ ، والمفتاح للسكاكي ٤١٣ ، ٤١٤ ، ومنهاج البلغاء ١٢٢ ٠

المجمل ، وجلوا الغامض أولى بقوله ليعظم فى أعين الناس ما صنعوا ... ، ولكنهم كانوا بررة باسلافهم منصفين . واعود الآن إلى بيان معنى وقوع الابتداع فى المعانى ، وهذا خلاصة ما فهمته من كلامهم فى هذا الباب .

أدرك القدماء أن للمعانى صورا من الوجود ، يتلو بعضها بعضا. وربما كان نص الجاحظ الذى رواه وحكاه عن بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى ـ ممن عاصره أو كان قبله ـ وذكروا فيه أن للمعانى « وجودا غيبيا » فى الصدور والعقول ، قبل أن يكون لها « وجود حضورى » فى اللغة الحاملة لها ، والالفاظ التى بها ودلاتها وفيها حياتها(٣٦) = من اقدم ما قيل فى هذا . واوضح منه قول ابن سنان (٤٥٤ هـ) : إن للمعانى وجودا رباعيا : وجودها فى انفسها ، ووجودها فى افهام المتصورين لها ، ووجودها فى الألفاظ الدالة عليها ، ووجودها فى الخط الذى هو اشكال تلك الالفاظ المعبر بها عنها(٣٧).وهذا التفصيل نفسه فى وجود المعانى تجده واوضح منه عند حازم القرطاجنى (٦٨٤ هـ)(٣٨) . وربما أخذ العرب هذا التقسيم من الفلسفات القديمة التى نقلت إلى اللسان العربى ، وعليه بنى الحسن بن وهب كتابه : « البرهان فى وجوه البيان » فجعل البيان اربعة اقسام : بيان الاعتبار ، وبيان الاعتقاد ، وبيان اللفظ ، وبيان الخط .

والوجود الأول : وهو وجود المعانى فى انفسها لا اعرف كيف يكون ؟ وكانه فرض فلسفى . وادعه وآخذ فيما هو أجدى . فهمت من كلام عبد القاهر تصريحا ، ومن كلام غيره غير تصريح أن (مادة

---

(٣٦) راجع ما سبق ص ٧ وعاود نص الجاحظ فى صور الدلالة فى : البيان والتبين ١/٥٥ .

(٣٧) سر الفصاحة ٢٢٦ . (٣٨) منهاج البلغاء ٩ .

المعنى) العارية من التصوير ، وطينته الخالية من التشكيل غير (صورة المعنى) ، وهى الوجود اللفظى له فى نظم مخصوص ، وهما غير (الألفاظ) المتواضع عليها . فـ (الألفاظ المفردة) من حيث هى ألفاظ ونطق لسان لا يتصور فيها ابتداع ، لأنها لا تختص بواحد دون واحد حتى يتوخى فيها نظم مخصوص،لأن الابتداع واقع مع الاختصاص . والمعانى الذهنية - أو طينة المعنى التى لم تشكل وتصور - لا يتصور وصفها بأن فيها ابتداعا ، إذ ليس لها وجود حضورى خارج الذهن يعرف به كونها مختصة أو غير مختصة . فلم يبق إلا المعنى المصور فى هيئة مخصوصة من اللفظ ، وهو الذى يقال فيه : إن فلانا ابتدعه أو سبق إليه . خذ مثلا قول أبى تمام فى بعير أكله طول السرى :

رعتْه الفيافِي بعد ما كانَ حقبةً
رعاهَا وماءُ الروْض ينهلُ ساكبُه

فمحال تصور ابتداع أو سبق فى (رعته) أو (الفيافى) من حيث هما ألفاظ تنطق ، لأن أبا تمام أخذهما عن مواضعه فلا اختصاص لهما به . والمعنى الذهنى قبل أن يشكل ويصور هو مطلق « هزال البعير وذهاب لحمه » وهذا أيضا لا يقع فى مثله ابتداع . بقيت الصورة المخصوصة للهزال فى قول أبى تمام (رعته الفيافى .. إلخ) وفى هذا وحده يوصف القائل بأنه ابتداع معنى ، ويوصف آخذه منه على وجهه بأنه سارق ، ومن آخذه فولده ، وزاد فيه وصنعه بأنه متبع محسن ، حائز رتبة الاحسان كما حاز الأول رتبة السبق . فقولهم : ابتدع معنى - إذن - معناه ابتدع صورة مخصوصة لمعنى . بقى أن تعلم أن مصطلح (صورة المعنى) الذى ذكره عبد القاهر واستفاده من كلام الجاحظ(٣٩)

---

(٣٩) راجع : دلائل الاعجاز ٣٣٠ .

هو ما كان القدماء ربما عبروا أيضا باللفظ تجوزا واتساعا ، وقد نبه الشيخ - رحمه الله تعالى - على هذا فقال : إنهم حين قالوا فى اللفظ : إنه يزين المعنى ، ويحليه وما أشبه هذا لم يريدوا باللفظ إلا الصورة التى يكون عليها المعنى ، والخاصية التى اختص بها فى كلام القائل(٤٠) . ثم كشف الشيخ طرفا من طريقة القوم فى انتزاع المصطلحات فى باب الأدب بحديث مسهب عن مصطلح « صورة المعنى »(٤١) .

ومما يزيدك قناعة بأنهم جعلوا الابتداع فى صورة المعنى : أى فى صنعته على هيئة مخصوصة توجب مزية = أن تتأمل قولهم : الشعر صناعة ، وتشبيههم صنعة المعنى فى الشعر بصنعة الكرسى ، والخاتم ، والسوار ، ومايشبهها (٤٢) . ويتصل بما نحن فيه : وهو أن الابتداع حيث الاختصاص أنهم قسموا المعانى الشعرية إلى قسمين : معان مشتركة ، ومعان مختصة . وهذا التقسيم مفهوم من أقوال الطبقة الأولى فى امرىء القيس ، وأبى نواس،وأبى تمام،وغيرهم من فحول المبتدعين ، ولكن نقاد القرن الثالث الهجرى وما بعده هم الذين نصوا عليه صراحة ، وفصلوا القول فيه . قال القاضى الجرجانى (٤٣) : إن المعانى المشتركة الشائعة منها ماهو مشترك عام ابتداء ، مما هو مركب فى النفس تركيب الخلقة،ومنها ما كان فى أصله مبتدعا مخترعا ، وعزيزا فردا ، ثم شاع وتدووِل فابتذل ، وخرج إلى الاشتراك . فالأول كحسن الشمس والقمر ، ومضاء السيف ، وبلادة

(٤٠) راجع دلائل الاعجاز ٣١٢ ، وأسرار البلاغة ١/١١٣ .
(٤١) انظر دلائل الاعجاز ٣٣٠ .
(٤٢) انظر : نقد الشعر : ٤ ودلائل الإعجاز : ٢٥٥ .
(٤٣) راجع : الوساطة : ١٤٩ ، وانظر قبله : الموازنة ١/٥٥ .

الحمار وجود الغرث ونحوها . وهم متفقون بالاجماع على أن ما هذا حاله لا يقال لمبتدئه سابق مبتدع،ولا لآخذه متبع أو سارق ما لم توصل به لطيفة تخرجه إلى الاختصاص - والثانى مثل تمثيل الاطلال بحروف الكتاب ا وتشبيه الفتاة بالغزال فى حسن الجيد والعينين ، ونحو ذلك.وهذا يقال لمبتدئه : مبتدع سابق ، ولا يقال للتالى فيه سرق بعدما خرج إلى الشيوع والاشتراك . وقال القاضى فى موضع آخر(٤٤) : إن المعانى المبتذلة قد تصير إلى الاختصاص إذا دخلتها صنعة،أو وصلت بها لطيفة . ثم جاء عبد القاهر ففصل القول فى هذا الأصل الذى نبه عليه بلديه القاضى الجرجانى ، وقال : إن المعانى المشتركة العامية ، التى لا يدخلها التفاوت ، ولا يصح فيها التفاضل تبعث من جديد إذا لحقتها صنعة ، وعمل فيها نقش ، وركب على المعنى معنى، ووصلت به لطرفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعرض والرمز والتلويح ، فصار بها غيّر منه ، واستؤنف من صورته من الخاص الذى يُمتلك أى يقال لقائله : مبتدع ، ولآخذه على وجهه سارق(٤٥).

ثم جاء حازم القرطاجنى بآخرة فاستوعب كل ما قاله العلماء بالشعر قبله ، وجعل القسمه ثلاثية لا ثنائية ، كما هى عند الجرجانيين، وقال : المعانى على ثلاثة أقسام : « معان كثرت وشاعت » وهى ما وجد مرتسما فى كل فكر ، متصوّرا فى كل خاطر مثل ما يتداوله الناس من تشبيه الشجاع بالأسد ، والكريم بالغمام . وهذا لا يوصف مبتدؤه بابتداع ، ولا يعاب آخذه . ومعان قلت فى نفسها ، أو بالنظر إلى كثرة ما عداها ، وهذا قد يكون مبتدعا ويكون من أخذه على وجهه

---

(٤٤) الوساطة : ١٥١ .
(٤٥) أسرار البلاغة : ٢٧٣ .

سارقا ، ومن تعرض له فزاد فيه زيادة حسنة متبع سائغ الاتباع . والقسم الثالث : هو « المعانى النادرة » التى لم يوجد لها نظير ، وهى ابتداع محض ، وآخذها إما متبع محسن أو سارق مذموم . ويسمى حازم المعانى المشتركة الشائعة : « المعانى الجمهورية » ، والمعانى النادرة « المعانى العقم » (٤٦) . وليس لكلام حازم هذا على من تقدمه كبير فضل ـ إلا من جهة جودة التقسيم ـ لانه لم يزد على أن جعل المعانى المختصة قسمين : مختصة قليلة ، ومختصة نادرة ، فالأولى يقع فيها التنازع والتوالد ، والثانية أغلقها مبتدعوها ، أو كادوا ، فلا تكاد تدِرّ لغيرهم. وبيان هذا فى الحديث عن صور الابتداع ومراتبه. ولعله قد اتضح مما تقدم أن جعلهم الابتداع والسبق فى المختص من المعانى الشعرية دون المشترك منها أبلغ دليل على أنهم لم يفهموا الابتداع على أنه مطلق سبق ، أو محض أولية ، بل أولية مخصوصة ، وسبق مصنوع . فإذا أضفت إلى هذا ما ورد سابقا من أن الابتداع عندهم إنما يكون فى هيئة مخصوصة للمعنى ، وصنعة مختصة بقائله ، ظهر جليا أن الابتداع فى الشعر عندهم هو « بصمة » الشاعر ، و « خصيصة » القائل ، وان كلامهم هذا من أدخل الكلام فى ما يكتب اليوم فى : « مباحث الأصالة الشعرية » ، لولا أن القوم صدور خذلتها اعجازها ، وبيضة تركت وأعطى الجناح غيرها .

وقولهم : إن المعنى يكون فى أصله مختصا ، ثم يبتذل ويخلق لكثرة الرد ، ويكون مبتذلا ، ثم يصير مختصا إذا صنع ووصلت به لطيفة أصل جليل آخر من أصول نظرية الابتداع والاتباع الشعري عند

---

(٤٦) راجع : منهاج البلغاء : ١٨٨ ـ ١٩٤ .

العرب ، فكان للمعانى الشعرية عندهم - وهى معانى النفس والقلب - حياة كحياة الناس ، وفيها ما فيهم .. يولد المعنى شابا فتيا ثم يرده الاستعمال إلى أرذل العمر ، ولا يزال به حتى يشيخ أو يدخل قبر الأدب ، كما ترد الحياة الفتى اليافع إلى أرذل العمر ثم تدخله القبر . وقد يلد المعنى الفانى معنى فتيا بكرا كما تخرج الذرية من أصلاب الشيوخ الفانين ، أطعمة القبور .. وهكذا جعلوا للمعانى الشعرية ولادة ، وحياة ، وموتا ، وبعثا ونشورا ، وقالوا : إنها تتناسخ ، وإنها تتخاصب وتتناتج وتتوالد بقرائح المبدعين ، وفطن الفطناء المبلغين عن النفس والحياة معانيهما .

وبعد فلا تظن أنى حملت على الأوائل فى هذا المعنى ما ليس لهم ، أو نسبت اليهم ما لا يعطيه كلامهم ، بل تأمل أنت جملة كلامهم فى هذا الباب : ما ذكرت هنا وما لم أذكر ، وأرجع البصر فيه كرتين لتعلم أنى إنما اجتهدت قدر استطاعتى ان احسن البلاغ عنهم ، وعسى ان تكون فى هذا خيرا منى وأكثر توفيقا .

على أن قولهم : إن المعنى المختص يلاك ، فيخلق ، فيخرج إلى الاشتراك يفهم منه أيضا أن المعانى المبتدعة تعرف فى عصرها وزمانها بأوضح مما تعرف بعد عصرها وزمانها . وهذا صواب ، فرب مخترع علمى عتيق هو اليوم أضحوكة العلماء ، وملعبة الصبيان والناشئة ، قد كان فى يوم مولده أحدوثة الأحاديث ، وأعجوبة الأعاجيب . وكذلك رب معنى يجرى اليوم على لسان العامى فيستقبح منه ، كان فى مبتدئه بكر الأبكار ، وغرة الغرر . وهذا معنى - إذا تأملته - دقيق ، ويمكن أن نجد فيه تفسيرا لتفاوت النقاد فى استجادة بعض الشعر ، واختلافهم فيه واستحسانه لاختلاف الأعصر ، ولما نجده كثيرا فى أحكام النقاد . من قولهم : إن الناس كانوا يستحسنون قول فلان حتى قال فلان كذا فأبر عليه ، فنسى قوله . وكما أن ابتداعات

الشعراء تعرف أكثر فى زمانها ، كذلك هى فى لغتها وبين أهلها ، وهى فكرة لطيفة نبه إليها القاضى الجرجانى فقال : إن منشأ ابتداعات الشعراء ، ومرجع الحكم فيها قد يرجع إلى ما اعتاده القوم والفوه . وعد من هذا تشبيه العرب الفتاة الحسناء بتريكة النعام - أى بيضة النعام - وفى الأمم من لم يرها . وكذا أوصافهم التى تعود إلى الفلوات وركوب الأبل وفى الناس من لم يتصحر ولم يركب(٤٧) . ومتى كان الأمر كذلك ، فإن الإحساس بابتداعات الشعراء ، ومواضع المزية فيها لا يعرفه من جهل معتاد القوم فى حياتهم ، وبيئتهم ، ومعاشهم ، ولغتهم . وهذا هو الذى حجب عنا بعض الشعر القديم. ولهذا وغيره قال الجاحظ : إن الشعر العربى لا يترجم ، ولو ترجم لبطل أكثر حسنه ، وهو قول له مشهور . ومن جملة الفوائد التى يدل عليها تامل كلامهم فى تقسيم المعانى إلى مختصة، ومشتركة، وما أسسوه على هذا التقسيم = أن الاتباع السائغ فى صنعة الشعر شىء ، والسرقة العاجزة شىء آخر . وهذا باب آخر من الحديث عن الفرق بين الاتباع والسرقة عندهم سيأتى موضعه .

ولعل فى الناس من يسره أن يعلم أن تقسيم النقاد العرب القدماء المعانى الشعرية - من حيث وقوع الابتداع أو الاتباع فيها - إلى مختصة ومشتركة هو هو ما قاله بعض النقاد الأوربين ، بيد أنهم سموا المعانى المختصة : « الصور الإبداعية » والمعانى المشتركة : « الصور الاستعمالية » (٤٨) .

---

(٤٧) راجع : الوساطة : ١٥٠ .

(٤٨) راجع : بنية اللغة الشعرية لجان كوهن : ٤٤ ، ٤٥ .

- ٤ -

وإذا كان الابتداع عند العرب هو السبق إلى مختص المعانى وأبكارها، فبأى شىء يتحقق هذا عندهم : أبفطنة ومكابدة أم بإلهام (٤٩) وتلق ؟

روى عن بعض قدماء اليونان أنهم كانوا يزعمون - فيما يزعمون - أن الشاعر ملهم بالآلهة ، وأن الشعر عطاء الآلهة وفنها لاعطاء الشاعر وفنه ، وأن الآلهة تفقد الشعراء صوابهم لتتخذهم وسطاء لها ، مثلما تفعل بالأنبياء ، والعرافين ، وأن الإله نفسه هو الذى يحدثنا ويكلمنا بألسنة الشعراء » (٥٠) وحسن الظن بعقول فلاسفة اليونان يحمل على الترجيح بأن هذا الذى نقل عنهم - إن كان صحيحا - مجازات أقوال ، لا حقائق أقوال ، وأنه منهم مبالغة فى منزلة الشاعر، ورفع لقدره . كما غالى أحفادهم فى الفكر من الأوربيين فزعموا أن الشاعر نبى أو متنبىء ، ونقله عنهم بعض أهل زماننا تهوسا ، وقلة تحقق ، وغالوا فيه . ومنهم من قال - إن صح ما روى (٥١) : إن الفنان فى ساعة إلهامه ثمل بخمر الله - أستغفر الله من اللغو ، وسوء الأدب وفشل الرأى - .

---

(٤٩) ترجع : مادة (ل هـ م) فى أصل اللغة إلى معنى الكثرة والزيادة : فاللُّهَام: الكثيرو اللَّهُوم: الأكول،واللَّهَم:الكثير العطاء . ثم خص (الإلهام) بدلالة شرعية ، وهي : أن يلقى الله فى نفس عبد من عباده أمرا يبعث على الفعل أو الترك .. أى : صار الإلهام نوعا من الوحى . لسان العرب (ل هـ م) .

(٥٠) راجع : فلسفة الفن المعاصر لجان مارى جويو ترجمة سامى الدروبى : ١٢٨ ، ومحاوره أيون لأفلاطون ترجمة محمد صقر خفاجة وسهير القلماوى : ٢٧ عن مشكلة الإبداع الفنى للدكتور على عبدالمعطى محمد : ٣٩ وما بعدها .

(٥١) انظر : مشكلة السرقات .. للدكتور هدارة : ٢٤٧ .

أما العرب القدماء فالشعر عندهم فطنة ومجاهدة ، لا إلهام وتلق ، فهم أبعد شيء عما روى عن اليونان القدماء من فهم لطبيعة الشعر ، ولمعدن الإبداع ومنبعه ، فالشاعر عندهم - أى العرب - صانع لاملهم ، وهو صادر عن نفسه هو ، وعبقريته هو ، وفطنتــه هو لا عن إلهــام يأتيه من خارج نفسه . فاذا صح أن اليونان ومن وافقهــم من أنصــار المدرسة التلقائية(٥٢) يرون أن الشعر (إلهام) فان العرب يرون الشعر (فطنة) . فما معنى كونَ الشعر فطنة ومجاهــدة ؟ وما الدليل على ان العرب كانوا يرونه كذلك ؟

الشعر من (ش ع ر) ، وشَعَرَ عندهم بمعنى فطن . والفطنة : الفهم ، وهى ضد الغباوة ، فهى الادراك الصحيح ، والمعرفة الواعية .

قال قيس بن عاصم :

لا يَفْطِنُون لعيــب جارهــــــم
وهــــم لحفــــظ جــــواره فُطُنُ(٥٣)

فالشاعر من شعر يشعر شعرا : إذا فطن ، وهو لا يستحق هــذا الوصف عندهم حتى يقع له من الفطنة فى معانى الشعر ، ودقائقه وأوزانه مالا يقع لغيره(٥٤) . فكأنهم اختاروا لكلام الشاعر هذا اللفظ (الشعر) دون غيره من الفــاظ اللغــة لأن عمله قــائم على الفطنة . وذكر الباقلانى أن كفار قريش حين وصفوا الرسول ﷺ - فيما وصفوه به - بأنه شاعر إنما أرادوا أنه جاء بكلام فيه فطن ومستجدات أقوال ، كما أن الشاعر يأتى فى كلامه بفطن ومستجدات أقوال (٥٥) .

---

(٥٢) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة : ١٨٨ ا ١٨٩ .
(٥٣) راجع : لسان العرب (ف ط ن) ، والعين : ٢٥١/١ .
(٥٤) انظر : الزينة فى الكلمات الاسلامية : ٣٠/١ ، وسر الفصاحة : ٢٧٨ ، وخزانة الأدب : ٢٧٠/١ .
(٥٥) راجع : إعجاز القرآن : ٧٦ .

وههنا وجه آخر من النظر وهو أن وصفهم النبى ﷺ بأنه شاعر من أقوى الأدلة على أنهم لا يرون الشعر إلهاما من إله ، لأنهم قالوا ذلك وهم يكذبون النبى فى أن ما جاء به وحى من عند الله .. ولو كانوا يرون الشعر إلهاما من إله لقالوا له : لدينا شعراء ملهمون من الله كما أنك ملهم . ولموضع الفطنة والمكابدة فى عمل الشاعر جعلوا الشعر صناعة ، والشاعر صانعا . وهذا المعنى قديم فى شعر الجاهلين الذين وصفوا ألسنتهم بأنها تحوك الشعر ، وتصنع القول ، وتنسجه ، وما فى هذا المعنى وهى كثيرة ، ثم دارت على ألسنة العلماء بالشعر ونقاده عبارة « صنعة الشعر » أو « صناعة الشعر » منذ ابن سلام الجمحى إلى ابن خلدون (٥٦) ، وتوسع المتأخرون من نقاد العرب القدماء فى بيان معنى كون الشعر صناعة ، والشاعر صانعا ، وبسطوا ما كان موجزا من ذلك فى كلام الأوائل منهم : فقال قدامة بن جعفر : الشعر صناعة والغرض فى كل صناعة هو إجراء ما يصنع على غاية من الجودة والكمال . وجعل الشاعر كالنجار ، والصائغ . وجعل المعانى للشعر بمنزلة المادة الموضوعة كالخشب والفضة ، والشعر فيها بمنزلة الصورة كالكرسى والسوار(٥٧) . وجعل عبد القاهر سبيل الشعر والكلام سبيل التصوير وصياغة المعادن ، وضرب لذلك المثل الذى ضربه قدامة وغيره وهو الفضة والذهب ، والخاتم والسوار (٥٨) . ومما يقال هذا : إن قدامة ومن بعده قد أخذوا هذا المعنى عن اليونان ، فليس بعربى إنما هو منقول ! لكنى وجدت حسان بن ثابت يصف لسانه بأنه

---

(٥٦) انظر : النصوص مجموعة فى بناء القصيدة الجاهلية : ٥٧ وما بعدها .
(٥٧) راجع : نقد الشعر : ٣ وما بعدها .
(٥٨) انظر : دلائل الاعجاز : ٢٥٥ .

صانع وأنه حائك فى قوله من قصيدة يمدح فيها الذوائب من فهر وإخوتهم ، وهى مشهورة :

أهدى لهم مِدَحى قلب يؤازره
فيما يحب لسان حائك صَنَع

ووصف ابن الزبعرى لسانه بأنه راتق - والرتق للثياب - فى قوله:

يا رسول المليك إن لسانى
راتق ما فتقت إذ أنا بور (٥٩)

ومثل هذا كثير فى شعر الأوائل من الجاهليين ، فعلم من هذا أنه معنى عربى يصح أن تفسر به نظرية العرب فى الشعر منذ جاهليتهم .

فإذا كان الشعر عندهم صناعة كما ترى ومهارة ، وإذا كان الشاعر صانعا يعلو فى الصنعة وينحط .. فالشعر عندهم فطنة ومكابدة لا إلهام وتلق من أى قوة من خارج النفس .

وشىء آخر ، وهو أنهم اشترطوا للشاعر صحة الطبع ، وقوة القريحة ، وكثرة الرواية والتحفظ من كلام الفحول ، لا يكون فحلا مبرزا إلا بهذا ، واشترطوا له وجود الباعث ، وطول التمرس ، وطلبوا له على الجملة اكتمال الأدوات التى لابد من اكتمالها قبل مراس الشعر وتكلف نظمه . ونصوصهم فى هذا كثيرة جدا ، وأنا اكتفى بنص واحد للقاضى الجرجانى يكاد يفى بها . قال - رحمه الله تعالى : « الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية ، والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت عنده هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته فى

---

(٥٩) راجع : البيان والتبين : ٢٧٨/٣ وديوان حسان : ٢٤٠ . ولسان العرب : (ب و ر) .

الإحسان » (٦٠) . فأصول الشعر ، وأركان الشاعرية عند القاضى : (الطبع) وهو ما عليه طبع الإنسان ، وفطر ولو شئت جعلته (الموهبة) . و (الرواية) وهى حفظ كلام الفحول والنظر فيه ، و (الذكاء) وهو قوة العقل وصحته ، تلك ثلاثة ، ثم تأتى (الدربة) وهى التمرس وطول معالجة القريض فتقوى فى الطبع ، وتزيد فى فائدة الرواية وفى قوة الخاطر ، وصحة النظر ، وهذا كله شرح لمعنى (الفطنة) فى الشعر ، أو لنظرية الفطانة عند العرب ونقض لنظرية (الإلهام) . فلا إلهام للشاعر عندهم من خارج نفسه وملكته ، أو من قوة غيبية غريبة عنه ، وإنما تلهمه موهبته وطبعه ، وروايته وحفظه ، وذكاؤه ورأيه ، ودربته وطول مراسه للشعر . تلك الأربعة القواعد هى ركائز نظرية الفطنة ، وعليها يرفع بناء الإبداع الشعرى وعلى قدر حظ الشاعر منها يكون حظه من الإحسان فى الشعر أو الإساءة كما قال القاضى .

وتلك الأربعة الركائز التى ذكرها القاضى هى (أدوات الشعر) التى ذكرها ابن طباطبا قبله فى قوله : « إن للشعر أدوات لابد من إعدادها قبل مراسه ، وتكلف نظمه (٦١) . أما نصوصهم فى بواعث الشعر وأسبابه ، التى تقوى ما قلته من أن الشعر عندهم فطنة ، ومكابدة ، ومجاهدة ، وأن الشاعر لا يُلَقَّى القول فكثيرة معروفة(٦٢) .

ويدل على أن الشعر عندهم فطنة ومكابدة الأصل الأول الذى ذكرته وهو : أن السبق إلى المعانى المختصة ، وابكار الأفكار فضيلة للشاعر

---

(٦٠) الوساطة : ١٦١ .
(٦١) راجع : عيار الشعر : ١٠ .
(٦٢) البيان والتبين : ١/٣٥٧ ، ونزهة الألباء : ٢٥٥ ، ونضرة الإغريض : ٣٩٨ ، والعمدة : ١/١٧١ .

السابق باقية له وإن نازعه غيره من الشعراء معناه ، وزاد عليه فيه . وذلك لأن السبق من نتاج الفكر ، وثمرات الخاطر ، ولأنه دليل استنباط واستخراج ، وبرهان على قوة الطبع وصحة الفكر(٦٣) . ولا معنى لجعل السبق فضيلة للسابق إلا إذا كان الشعر فطنة ومكابدة . بل إن الألفاظ التى اصطلحوا عليها للدلالة على معنى الابتداع مثل السبق والابتكار ، والاختراع وغيرها من حيث اشتقاقها اللغوى من الأدلة على ما نقول . والشعر العالى عندهم بابان : باب هو ابتداع للمعانى وسبق ، وباب هو اتباع فيها وتوليد ، ومقولة الإلهام بقوة من خارج نفس الشاعر تسقط نظرية الابتداع والاتباع فى الشعر من أساسها ، وتنقضها من أصلها ، وقد عرف وجه هذا فى (باب الابتداع) ، ووجه فى (باب الاتباع) أن يصير حديثهم عما يجب على المتبع من الإحسان والزيادة فى المعنى الذى نازع فيه المتقدم ، وقولهم : إن الشعر المتبع قد يأتيك فى الاتباع بإبداع جديد الخ = أن يصير كلامهم هذا لا طائل من ورائه ، ولا معنى له ، ولا محصل .

وكل ما قلته إلى الآن فى إثبات أن الابتداع فى الشعر عند العرب يكون عن فطنة ومكابدة لا عن إلهام وتلق هو كلام نظر ودراية ، وتأول لنصوص ، أما الرواية الصريحة فإنى وقعت على نصين صريحين فى هذا الباب : الأول قول أبى عثمان الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدوا ببعير أو عند المقارعة ، أو المناقلة ، أو عند صراع أو فى حرب ، فما هو إلا أن

---

(٦٣) راجع : ما سبق ص ٥٢ ، وراجع : طيف الخيال : ٩٠ .

يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتاتيه المعانى إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده »(٦٤) فقول أبى عثمان : « ... وكانه إلهام » هو موضع الشاهد ، وهو دليلنا ، فهو نفى لأن يكون الشعر الذى جرى على البديهة ، وفاض من نفس قائله فيضا طبعيا = إلهاما لأن الشئ لا يشبه بنفسه كما هو معلوم من قوانين التشبيه فى العربية ، وإذا انتفى ذلك عن شعر الطبع والفيض النفسى ، فانتفاؤه عن الشعر الذى صنعه قائله ، وجوده ، وردد فيه نظرة من باب أولى . وابن رشيق يفرق بين الارتجال الذى هو إنشاء الكلام شعرا أو نثرا من غير روية ولا تفكر - وهذا يوافق معنى الارتجال فى أصل اللغة لأنه من الانصباب والسهولة = وبين البديهة التى فيها شئ من الروية والتفكر وإن قل ، والجاحظ كما ترى يجعلهما واحدا . على أن قول الجاحظ : إن شعر البديهة والارتجال تكاد تخفى فيه المعاناة ، والمكابدة ، وإجالة الفكر ، والاستعانة فيه من وجه آخر إثبات هذه الأربعة فى غيره من الشعر .

النص الثانى قول الباقلانى - رحمه الله تعالى : إن الشعر عند العرب ووجوه النظم المستحسنة لديهم توفيق لا توقيف ، وفطنة لا وحى ولا إلهام . ولهذا صار كلام البشر غير ميئوس منه وان علا ، وكلام الله تعالى ميئوسا منه (٦٥) وهذا الكلام أصرح ، والدلالة فيه أبهر وانور . فالنقاد العرب القدماء لم يذهبوا فى فهم الشعر ، والحكم عليه ، مذهبا فلسفيا غيبيا يذهب بهم الخيال فيه كل مذهب ، ويطرحهم التوهم فيل كل مطرح كما فعل اليونان - ان صح ما روى

---

(٦٤) البيان والتبين : ٢٨/٣ .
(٦٥) إعجاز القرآن : ٢٨٩ .

عنهم - وإنما كان نقدهم للشعر ، ونظرهم نتاج تأمل ونظر فى نصوص الشعر نفسه ، لانتاج نظر ذهنى مجرد بمعزل عن نصوص الشعر ، وذلك قبل أن يغبّر النقد الأدبى الخالص بأشياء من مباحث الفلسفة عند المتأخرين . فمن أقدم النصوص النقدية فى باب الابتداع والاتباع قول الجاحظ « نظرنا فى الشعر القديم والمحدث ، فوجدنا المعانى تقلب ، وبعض يأخذ من بعض .. »(٦٦) وقول أبى عثمان : (نظرنا فى الشعر القديم والمحدث فوجدنا) دليل على أن نقد الشعر عند الحذاق من النقاد الأوائل من العرب كان نقدا « نصيا » لا نقدا « غيبيا » تجريديا . وخلاصة ما تقدم أن العرب لم يخوضوا فى غيب العملية الشعرية ، واقتصر نظرهم على المدرك لهم من الشعر ، والمعقول لهم من أمره . ولعمرى لقد كانوا أصح عقلا حين سكتوا عن غيب لا يبلغ القول منه ، ولا يعود الموغل فيه بطائل . وقد قال ابن الأثير أن أحدا من علماء البيان ممن تكلم فى المعانى الاختراعية لم يشر إلى طريق يسلك فيها لأن هذا مما لا يمكن فاضربوا عنه (٦٧) .

ومما تقع به الشبهة فى نفى اعتقاد العرب أن الشعر إلهام أشعار لبعض الشعراء ذكروا فيها أن لهم شياطين يمدونهم بالقول ، ويلقون إليهم .. وروايات لبعض الرواة يذكرون فيها أسماء تلك الشياطين الملهمة ، وألقابها ، وكناها ، وقبيلها ، وأسنانها ، وجنسها ... إلخ .

---

(٦٦) الحيوان : ٣/٣١١ .
(٦٧) المثل السائر : ٢/٥٥ .

من مثل قول الأعشى :

حبانى أخى الجنىّ نفسى فداؤه
بأفيحَ جياش العشيات مرجم

وقوله :

وما كنتُ ذا خوفٍ ولكن حسبتى
إذا (مسحل) أسدى لىَ القولَ أفرقَ

وقول أبى النجم :

إنىّ وكلّ شاعر من البشرْ
(شيطانهُ أنثىّ وشيطانى ذكرْ

فما رآنى شاعرٌ إلاّ استتر
فعلَ نجوم الليلِ عاينّ القمرْ

وقول الفرزدق :

كأنها الذهبَ العقيانَ حبرها
لسانُ أشعرَ خلقْ الله (شيطانا)

وقول جرير :

إنىّ ليلقى علىّ الشعرَ مكتهلُ
منَ الشياطينِ ابليسُ الأباليس(٦٨)

ومثل هذا موجود فى شعر غير هؤلاء . ويقوى هذا روايات وأخبار ذكرت أسماء شياطين الشعراء . وقد تتبع الرافعى - رحمة الله تعالى - أكثر ما ورد فى الأشعار والروايات من أسماء شياطين الشعراء ، وألقابها ، وكناها .. (٦٩) . وزعم ابن شهيد فى رسالة « التوابع والزوابع » أنه كان للخطباء والكتاب شياطين كما للشعراء شياطين وادعى أنه لقى فى أرض الجن شيطان الجاحظ ، وشيطان بديع الزمان ، وشيطان

(٦٨) الأشعار مجموعة فى كتاب الشعراء نقادا للدكتور عبد الجبار المطلبى : ٢٠ ، ٢١

(٦٩) انظر : تاريخ آداب العرب : ٥١/٣

عبد الحميد وغيرهم(٧٠) . ومن طرائف التوهم وغرائب التأول أخذ هذه الأخبار والأشعار مأخذ الجد ، ثم القول : إن العرب كانوا أيضـا ملهمين فى الشعر كاليونان ، بيـد أن اليونان الهمتهم الآلهة ، والعـرب الهمتهم الشياطين !! (٧١) .

وقد تصدى الرافعى ـ رحمـه الله ـ لدفع ذلك التوهم الطـريف ، والتأول الغريب وقال : إن تلك الأشـعار والروايات لا تقوم دليلا على أن العرب قد أخذوا بنظرية الإلهام فى فن الشعر ، وإن الشـعر الذى ذكرت فيه الشياطين إنما هو على وجه المثل والمجـاز لاعلى التحقيق . وقال : إن العرب تسمى (الغضب) شيطانا ، و (الكبر) شيطانا ، و (الفطنة) و (شدة العارضة) شيطانا ، ويطلقون الشيطان على كل عات متمرد من الجن ، والإنس ، والدواب ، وعلى الراكب المنفرد الضارب فى الأرض وحده ، ويرجح الرافعى أن يكون الشعراء قد نقلوا ذلك عن الكهانة وهى أذهب فى القدم عندهم ، إذ كانوا يجعلون لكل كاهن نجيـا (شيطانا) يسمونه التابع أو الرائى (٧٢) .

والذى قاله الرافعى جلى صحيح ، وأزيده بيـانا فأقول : إنه قـد اتضح جليا مما قدمت أن الشعر عند العرب فطنـة ومكابدة ، ولا يستقيم هذا بحال مع القول بأن الشياطين تلهمهم القول ، هذه واحدة ، وأخرى أننا لا نجد فى نص نقدى واحد من نصوص النقد العربى القديم المعمول عليها أن الجن يلهمون الشعراء على الحقيقة ولو كان هـذا لهم رأيا لمـا

---

(٧٠) التوابع والزوابع عن النثر الفنى فى القرن الرابع ٣٢٢/١
(٧١) انظر : محمد بن عبد الجليل مقال (معاناة القدماء للشعر) ضمن كتاب (القراءة والكتابة) مطبوعات الجامعة التونسية : ١٤٦، ١٤٧
(٧٢) انظر : تاريخ آداب العرب ٤٩/٣ ، ٥٠ ولسان العرب (شطن) وانظر فى استعانة كهان العرب بالجن : البيان والتبين : ٢٨٩/١

صح ان تخلو منه احكامهم النقدية البتة . وثالثة : ان الشعراء الذين زعموا فى بعض شعرهم انهم معانون بالشياطين هم الذين نصوا ايضا - هم وغيرهم - فى بعض شعرهم على ان الشعر مجاهدة ، ومكابدة ، وتحكيك ، ورتق ، وصنع لسان .. الخ ، وانه لب الشاعر يعرضه لاهبة الشيطان ، وانه نطق لسانه - اى الشاعر - لا نطق الشيطان على لسانه :

قال حسان أو طرفة :

وإنّما الشعرُ (لبّ المرْء) يعرضهُ
على المجالس إنْ كيسا وإنْ حمقا

وقال سويد بن كراع :

ابيتُ بابوابِ القوافى كانمـا
اصادى بها سربا من الوحشِ نزعا

وقال عمرو بن معد يكرب :

فلوْ انّ قومى (انطقتنىْ رماحُهم)
نطقتُ ولكنّ الرماحَ اجَرّتِ

وقال كعب بن زهير فى شعر الحطيئة وشعره :

(يقومها) حتى تقوم متونها
فيقصرُ عنها كلّ ما يتمثلُ
كفيتك لا تلقى من الناسِ شاعراً
تنخلَ منها مثلما اتنخلُ

وقال الأصم الباهلى : - ونسب لابن أحمر عاصر الفرزدق وهاجاه : -

انفى قذى الشعرَ عنه حينَ ابصرهُ
فما بشعرىَ من عيبٍ ولا ذام
كانما اصطفى شعرى واغرفهُ
من لجّ بحرٍ غزيرٍ زاخر طام

منــــه غـــرائب أمثـــال مشهرة
ملمومـــة زانهـــا وصـفى وإحكامى

وقال عدى بن الرقاع :

وقصيدة قـــد بت أجمـع بينهـــا
حتى أقــوم ميلهـــا وسنادها
نظـــر المثقف فى كعوب قناتـه
حتى يقيـــم ثقــافه منادهـــا

وقال ذو الرمة :

وشعر قـــد أرقت لـــه غريـــب
أجنبـــه المســـاند والمحـــالا
فبـت أقيمـــه وأقـــد منـــه
قـوافى لا أعـــد لهـــا مثـــالا

وقال دعبـــل بن على :

لا تعـرضن بذم لامـــرىء طبـــن
ما راضه قلبه أجراه فى الشفة (٧٣)

ومثل هذا كثير جدا فى دواوين الشعراء : قدماء ومحدثين : فهذا الشعر يدفع ذلك الشعر . وحسان الذى زعم إن له شيطانا من (بنى الشيصبان) يجعل الشعر من عمل لسانه هو ، ويصفه بأنه حائك صنع ، ويقول فى وصف إحدى قصائده فى هجاء ابنى المغيرة :

يغلى بها صدرى واحسن حوكها
وإخالها ستقال إن لم تقطع (٧٤)

---

(٧٣) الشعراء نقادا : ٣٠ وما بعدها وراجع : الشعر والشعراء : ٢٣/١ ، والموازنة : ١٣/١ .

(٧٤) ديوانه : ٣٢٥ وانظر أيضا : ٢٤٠ ، ٣٢٩ وراجع : البيان والتبين : ٢٧٨/٣

فهل بعد قوله (يغلى بها صدرى) يصح أن يحمل على الجد قوله الذى هزل فيه : إن له شيطانا شاعرا من بنى الشيصبان ؟! .

فلم يبق بعد هذا إلا أن نحمل أشعارهم التى ذكروا فيها استلهام الشياطين على أنها مجاز وتخيل ، وضرب مثل وتهويل ، أو على أن الشاعر قد يذكر الشيطان وهو يريد به الغضب ، أو الفطنة ، أو شدة العارضة وهى جميعا من معانى الكلمة فى اللغة كما عرفت . ويقوى عندى أن قصد الشاعر القديم من ذكر الشياطين التخييل والتهويل : أننى وجدت الشعراء يذكرونها أكثر ما يذكرونها فى مقام الهجاء والثلب ، أو فى مقام المفاخرة والمغالبة ، فكأن الشاعر منهم يهول بذكر الشياطين تخويفا أو تعجيزا لمن يهجوه ، وقطعا أو إفحاما لمن يفاخره ، لما كان يعتقده العرب من أن الشياطين تأتى من الفعل بما لا قبل للإنسان برده ، أو فعل مثله . ومن دفع الطريف بالطريف أن تنظر فى قول أبى النجم المذكور آنفا :

إنىَ وكلُ شاعرٍ منَ البشرْ

شيطانهُ أنثىَ وشيطانى ذكرْ

فإن حملت هذا البيت على الجد - وهو هزل - كان المعنى أن شيطان أبى النجم وحده هو الذكر وشياطين سائر الشعراء إناث . فكيف يصح هذا وسائر الشعراء العرب غير أبى النجم ادعوا فى أشعارهم - أيضا - أن شياطينهم ذكور ، وسموهم أسماء مذكرة ؟!!

هذا ومن فطنة الدارس أن يميز فى النصوص بين ما هو حقيقة وما هو مجاز ، وبين ما قصد به قائله إلى الجد ، وما قصد به إلى الهزل .. والغفلة عن هذا التمييز قد تأتى بالعجائب المضحكات من الرأى والتأول .

فقد صح الآن بالرواية والدراية أن الشعر عند العرب فطنة وحذق ، وصنعة جنان ولسان ، وليس إلهاما أو تلقيا من إله أو شيطان ، وعلى

هذا فالابتداع عندهم هو نتاج الطبع ، والعقل ، والرواية ، والدربة ، ودليل الفطنة ، والحذق ، والمهارة ، وقوة الملكة الشاعرة . وهذا أصل آخر من أصول نظرية الابتداع والاتباع عند العرب . وقد ذكر ضياء الدين بن الأثير أن المعانى الابتداعية منها ما يستخرج من (شاهد الحال) ، وهى المعانى التى تنشئها الحوادث المتجددة ، وتولدها الأمور الطارئة ، ومنها ما يستخرج (من غير شاهد حال متصورة) وهذه أصعب منالا(٧٥) . فالأولى معانى الحياة المتجددة ، والثانية معانى الفطن الفذة ، والنفوس الحية والصدور العامرة .

ولو شئت أن أجرى مع الخاطر حيث جرى لقلت : إن الإبداع شيء مركوز في الطبيعة البشرية . فليس شيئا يأتيها من خارجها . فقد خلق الله تعالى الإنسان الأول : آدم عليه السلام خلق إبداع ، فكان إبداع الإنسان فيما يأتيه فى حياته أثر من آثار ذلك الإبداع فى خلقه ، وسر من أسرار تلك النفخة التى أوجدته .

وقد أشار ابن المقفع إلى معنى لطيف جدا يمكن أن يعد أصلا لقوة تلك السجية فى العرب - أعنى سجية حب التميز الباعث على الإبداع والتجويد - حين قال : إن العرب حين لم يكن لها أول تؤمه ، ولا كتاب يدلها احتاج كل واحد منهم إذا خلا إلى فكره ، ونظره وعقله (٧٦) . وكان هذا موضع فرق بين حضارة الأمة الأمية ، وحضارة الأمة الكاتبة ، فالأولى صحائفها قلوبها ، وخزائنها عقولها ، وهاديها رءوسها . والثانية صحائفها ما دونه لها أوائلها ، وتركه لها أسلافها . وقد كان العرب فى طور المشافهة يرفعون شأن الكلمة المحفوظة ويقدمونها على المكتوبة . وورد

---

(٧٥) المثل السائر : ٢/٧ - ٢١ وهذا المعني نفسه لأبي هلال في الصناعتين : ٦٩ .

(٧٦) البيان والتبين : ٢٨/٣

عنهم فى ذلك أقوال منها قولهم : « لا تأخذوا العلم عن صحفى » ؛ وقولهم : « حرف فى قلبك خير من عشرة فى طومارك » . وقول أعرابى:

ستودعَ العلمَ قرطاساً فضيعه

وبئسَ مستودعُ العلم القراطيسا

ولا ينبغى حمل هذه الأقوال ، وأمثالها على ذم العرب الكتابة على الإطلاق ، بل معناها أن خير العلم ، وأنفعه عندهم ما كان فى القلوب والعقول قبل أن يكون فى الكراريس والأوراق . وشر الناس أمة أسفارها بالعلم محشوة ، ورءوسها منه فارغة ..

— ٥ —

ومن أصولهم فى باب الابتداع قولهم : إن الإبتداع معين لا ينضب ، وعين لا تغور ، وإنه مفتوح أبدا ما بقيت فى الحياة أسرار ، وفى النفس ذخائر ، وفى القلب دفائن . قال الرمانى : « ولو قال قائل : قد انتهى تأليف الشعر حتى إن أحدا لا يمكنه أن يصنع قصيدة لم تقل لكان ذلك باطلا »(٧٧) . وقال ابن رشيق : « ومازالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا ، وتولد »(٧٨) . وقال ابن الأثير : « إن باب الإبتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن ذا الذى يحجر على الخواطر ، وهى قاذفة بما لا نهاية له » (٧٩) وهذا المعنى — وإن كان نصا فى كلام الآخرين — كما ترى — مفهوم ضمنا من كلام الأولين ، ومن جملة أحكامهم على الشعر والشعراء . فعلى أى شىء بنوا هذا الرأى ؟

الذى فهته من كلامهم أنهم بنوه على طبيعة دلالة التأليف فى اللسان العربى من وجه ، وعلى طبيعة المعانى ، وتكاثرها فى النفس من وجه

(٧٧) النكت في إعجاز القرآن : ١٠٧
(٧٨) العمدة : ١ / ٢٦٣
(٧٩) المثل السائر : ٣ / ٣١١

آخر : أما طبيعة دلالة التأليف فمنـه قول الرمانى : « إن دلالة التأليف ليس لهـا نهـاية »(٨٠) . وقـول الشريف المرتضى : إن المعنى يصـير باختلاف العبارة عنه ، وتغير الهيئات عليـه - وإن كان واحـدا - كأنه مختلف فى نفسه(٨١) . ثم أفاض عبد القاهر فى هذا ما شاء الله له أن يفيض فى حديثه عند النظم . والذى صرح به هؤلاء ، ونصوا عليه مفهوم من كلام صدور أهل العلم بالشعر من العرب ، ولطيف إشاراتهم ، وربما كان الأصل فيه قول على بن أبى طالب رضى الله عنـه : « لولا أن الكلام يعاد لنفد »(٨٢) فقد فسر على هذا المعنى أو قريبا منه(٨٣) .

والمعنى فى هـذا الكلام كله أن كل تصرف فى تأليف الكلام ، أو استجداد فى العبارة ، أو تغيير فى هيئـات التراكيب يأتى بجـديد فى الدلالة والمعنى .. وهذا التصرف والاستجداد مبناه على الإتساع فالإتيان بجديد المعانى - إذن - لا حد له ، وإجتهاد إنسانى لا يغلق بابه . وهذا هو الوجه اللغوى فى اتصال سيب الإبتداع فى معانى الشعر .

أما طبيعة المعانى وتكاثرها فى النفس ، وتناتجها فاقدم ما وجدت نصا من كلامهم فيه قول الشريف المرتضى : « فالمعانى معرضة لكل خاطر، جارية على كل هاجس » (٨٤) ، وقـوله - عنـد ذكر بعض معـانى ذم الطيف ومدحه - : « وهذه المعانى فى المدح والذم قد تتشعب ، وتتركب ، فيتولد بينها من المعـانى مالا ينحصر ، ولا ينضبط ، بحسب قوة طبـاع الشاعر ، وصحة قريحته ، وغريزته » (٨٥) . ثم فصل حازم القرطاجنى

---

(٨٠) النكت فى إعجاز القرآن : ١٠٧
(٨١) الشهاب فى الشيب والشباب : ٣
(٨٢) الصناعتين : ١١٩٦
(٨٣) راجع : العمـدة : ٧٤/١
(٨٤) طيف الخيـال : ٦٣
(٨٥) السـابق : ١٦

فى بيان هذا المعنى تفصيلا ، فقال : إن المعانى تتكاثر فى النفس ، وتتلاقح وتتخاصب ؛ اذ يوجد لكل معنى معنى يقاربه ويناسبه ، وآخر يباينه ويضاده ، ثم يوجد للمناسب معان مخالفة ، وللمخالف معان مناسبة .. وهكذا . وإنما ينال نسل هذه المعانى بوجوه النظم ، وضروب التاليف (٨٦) . ويقوى عندى أن عبارة أبى عثمان الجاحظ ـ التى أسىء فهمها ، وشنع بها عليه (٨٧) . والمعانى مطروحة فى الطريق .. من هذا الباب .

غير أنى وجدت فى بعض نصوصهم ما يدل على أن الإبتداع وإن كان إجتهادا إنسانيا مفتوح الباب ، إلا أن له مضمارا ومجالا ، ورسوما تضبطه ، وأصولا تحكمه . وأصرح نص وجدته فى هذا قول الآمدى : « وإذا اعتمد الشاعر الإبداع ، فمن سبيله ألا تخرج عن سنن القوم فإنه لم يحظر فيه عليه مستغرب المعانى ، ومستطرفها » (٨٨) . وهذا القول ـ مع وضوح ظاهره ـ لا يكاد يعطى نفسه ، أو يخرج شطاه ، والآمدى من نبغة النقاد القدماء ، وبصرائهم بالشعر ، فليس بالذى يتهم ذوقه ، أو يطرح قوله . فما مراده بسنن القوم ؟

سنن القوم ـ بفتح السين ـ : أولهم ومقدمهم (٨٩) ، والسنن من السن ، وهو الصقل والتحسين (٩٠) ، فإن حملنا عبارة الآمدى على هذا المعنى اللغوى كان المراد أن الفحول المبدعين من الشعراء العرب

---

(٨٦) راجع منهاج البلغاء : ١٤
(٨٧) راجع : مشكلة السرقات .. : ١٩٧
(٨٨) الموازنة : ٥٢٣/١
(٨٩) العين : ١٩٨/٧
(٩٠) اللسان : (س ن ن)

صاغة القول قد صقلوا طرائق فى النظم ، وهذبوا فنونا من القول ، وأن من يأتى بعدهم من المبدعين لا يسوغ له الخروج على ما صقلوا من طرائق القول ، وطرائفه ، وهذبوا من فنونه وأفنانه ، وعبدوا من طرقه ودروبه، وأن يدع ذلك كله خلف ظهره ٠

وللآمدى كلام آخر يحدد فيه أصول فن الشعر عند أهل العلم به ، لعله مما يعين فى فهم مراده بسنن الفحول .. قال : « وليس الشعر عند أهل العلم إلا حسن التأتى ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ فى مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل فى مثله ، وأن تكون الإستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه »(٩١) ٠ فـ (حسن التأتى) و (قرب المأخذ) و (اختيار الكلام و (وضع الألفاظ مواضعها) و (إيراد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل فى مثله) و (كون الإستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، غير منافرة لمعناه) هى أصول صنعة الشعر الجيد ، وهى مما هدى إليه نبغة الشعراء ، وصاغة القول من النظوم الحسنة ، والمذاهب الصقلية ٠

وهذه الأصول الستة التى ذكرها الآمدى هى التى وقف عندها القاضى الجرجانى ، ثم المرزوقى من بعد(٩٢) ، وزاد عليها واحدا ، وأطلق عليها « عمود الشعر » فجعلها من الشعر بمنزلة عمود الظهر من الإنسان ، أو بمنزلة العمود من الخيمة ٠

ولست أفهم السنن فى كلام الآمدى وغيره إلا على أنه الأصول

---

(٩١) الموازنة : ٤٢٣/١

(٩٢) راجع : الوساطة : ٤١٣ ، وشرح ديوان حماسة أبى تمام للمرزوقى : ١/ ٣ ـ ٩

الكبرى للصوغ الشعرى التى عبدها الفحول ، ووقع عليها الاستحسان من طبقات الشعراء ، وتلقيت بالقبول عند أهل الذوق الصحيح من ذاقة الشعر ، والناقدين له ، لا كل ما قالوه ، لأن الحسن ليس بواجب لهم فى سائر ما قالوا كما ذكر الجاحظ(٩٣) رحمه الله . وهذا السنن أشبه شىء بالمضمار الذى تستبق فيه الخيل ، لا يرد سابقا عن غايته ، ولا يقطع أولا عن أوليته .. ولهذا قال الآمدى : إن مراعاة هذا السنن لا يحرم المبدعين مستغرب المعانى ومستطرفها .

هذا . وقد عقد أحمد بن فارس - رحمه الله تعالى - بابا فى كتاب (الصاحبى) بعنوان « باب سنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز » دل فيه على أن سننهم ما اهتدوا إليه ، وعبده الفحول منهم من تصرف حسن ، وافتنان بديع ، وتشقيق طريف ، وتوليد عجيب ، وعد من هذا : الاستعارة - وأمرها ظاهر ، وحسنها باهر - ، والحذف والاختصار ، والتكرار والإعادة - إرادة الإبلاغ ، وعناية بمعنى ما كرر لفظه - ، وإضافة الفعل إلى ما ليس فاعلا على الحقيقة - وهو فى كلامهم كثير - وتحويل الخطاب ، - وهو الإلتفات من ضمير إلى ضمير - ، والتوهم والإيهام - وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعل ذلك كالحق كقولهم : (وقفت بالربع أسائله) وهم أكمل عقلا من أن يسألوا رسما لا يسمع ولا يعقل ، ولكنهم لما رأوا السكن قد ارتحلوا توهموا سؤال الربع عنهم - ومن سننهم تقديم الكلام وهو مؤخر فى المعنى ، وتأخيره وحقه التقديم ، والإيماء إلى الشىء دون التصريح (٩٤) .. إلخ . وهذا شرح وتفريع على تلك الأصول التى ذكرها الآمدى ، والقاضى الجرجانى ، والمرزوقى ...

---

(٩٣) الحيوان : ٣ / ١٣٠

(٩٤) راجع : الصاحبى : ٢٢٩ - ٤١٧

وأنا أضرب مثلين مما عدوه خروجا على السنن مما قد يعين على وضوح مرادهم في هذه المسألة : الشعراء يستعيرون ، ويفتنون في الاستعارة .. والاستعارة ـ كما عرفت ـ من سنن العرب ومذهبهم بشرط أن تكون الاستعارات لائقة بما استعيرت له غير منافرة لمعناه . والشعراء يشخصون الدهر ، ويستعيرون له فيقولون : رمانا الدهر ، وأعرض عنا ، ولقينا ، بكذا فيجعلون له يدا ، ووجها ، وإرادة ، فلما جاء أبو تمام إلى هذا المعنى استرسل ، ومال إلى الرخصة ، وأوغل فجعل للدهر أخدعا فقال :

يا دهر قوم من أخدعيك (٩٥)
فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

فقال له بعض النقاد أفرطت فخرجت على السنن ، فأسأت : قال القاضي الجرجاني : إن البديع ـ يريد الإستعارة ـ قائم على التوسط ، وجعل الأخدع للدهر ، ونحوه إن حملت على التحقيق أخرجت عن طريقة الشعر ، وإن اتبع فيها الرخص ، وأجريت على المسامحة أدت إلى فساد اللغة ، واختلاط الكلام (٩٦) . وقال ابن سنان الخفاجي : إننا لا نجعل للدهر أخدعا لأجل أنهم قالوا : أعرض عنا الدهر وانحرف ، ثم قال : « إن المجاز لا يقاس عليه » (٩٧) .

فسنن العرب في الإستعارة المقاربة ، وكونها لائقة ، وأبو تمام خارج هنا على هذا السنن . ولا أعلم أحد من القدماء أستحسن استعارة الأخدع للدهر في شعر أبي تمام ، وكلهم تعقبه فيها . والذي قاله القاضي

(٩٥) الأخدعان : عرقان في اللبتين سميا بذلك لخفائهما . العين : ١/١١٥
(٩٦) انظر الوساطة : ٢٣٧ .
(٩٧) سر الفصاحة : ١٢٢ ، ١٢٣

وابن سنان صحيح عندى ، ولطالما قلبت النظر فى استعارة الأخدع للدهر فما رأيت لها حسنا ، ولا قبولا فى نفسى ، ولا سكونا من قلبى ، وقبول النفس ، وسكون القلب هنا ميزان الحكم هنا . قال القاضى الجرجانى : إن البديع وغرائبه « يميز بقبول النفس ونفورها وينتقد بسكون القلب ونبوه ، وربما تمكنت الحجج من اظهار بعضه ، واهتدت إلى الكشف عن صوابه وغلطه » (٩٨) .

وعد إلى قول القاضى : ان اتباع الرخص فى الاستعارة والتشبيه ، والإيغال فيه يؤدى إلى فساد اللغة ، واختلاط الكلام = فتامله فإنه أصل الداء فى شعر كثير من معاصرينا .

ومن العجيب ان أبا تمام - الذى جد فى أثر غرائب المعانى ، وأوغل فى ذلك ، واتكأ على نفسه ، وركت الرخص .. فتقحم فيما تقحم فيه - يجعل سنن العرب ، ومذاهب فحولها المرجع فيقول فى وصيته للبحترى « وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من الماضين ، فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى »(٩٩) . ولكنها عثرات الطبع ، وكبوات الابتداع ، وهى قليلة لا تدفع إحسان أبى تمام ، وهو كثير .

وقول ابن سنان : إن المجاز لا يقاس عليه قول دقيق جدا من الوجه الذى قصده ، فنحن نقول : رمانا الدهر فنجعل له يدا فيحسن ذلك ، ونقول : أعرض عنا ، فنجعل له وجها فيحسن ذلك ، ونقول : وطئنا الدهر : فنجعل له قدما فيحسن ذلك . ولكننا إن جعلنا له أخدعا ، أو قفا ، أو بطنا لم يحسن ذلك ، فلو كان المجاز مقيسا عليه فى مثل هذا

---

(٩٨) الوساطة : ٢٣٤

(٩٩) منهاج البلغاء : ٢٠٣

لصح أن يجعل للدهر أخدع ، وقفا ، وبطن ، كما حسن أن يكون له يد ، ووجه ، ورجل لأنها جميعا من أعضاء الحى ولكنه حسن فى الأولى ولم يحسن فى الثانية ، وعيار هذا هو الذوق الصحيح كما قال القاضى - رحمه الله تعالى - . والمثل الثانى من شعر ابن الرومى : من المعروف أن من سنن العرب فى الشعر تحسين اللفظ ، وتجويده ، وتحبيره ، وحسن اختياره ، ووضعه موضعه اللائق ، ولا يضحى بهذا عندهم بحال، قال أبو هلال إن « مدار البلاغة على تحسين اللفظ ، وتجميل الصورة » (١٠٠) ، ومن سننهم أيضا أن الشعر لمح تكفى إشارته عن إطالته ، ووحيه عن تصريحه وأنه ليس بالهزر طولت خطبه . فلما جاء ابن الرومى خرج على هذا السنن فى بعض شعره ، فضحى بالعبارة من أجل المعنى ، وأكثر مضغ المعانى ولوكها ، وتشعيبها وتفريعها حتى يستهلكها ويميتها ، فأشار الشريف المرتضى إلى هذا المذهب فى شعر ابن الرومى ، ونبه على خروجه فيه عن أسلوب العرب فى شعرها أحيانا ، وإن كان يأتى فيه أحيانا أخرى بالدرة النفسية والجوهرة الدفينة فقال : « وفلسفة هذا الرجل - أى ابن الرومى - فى شعره ، وتطلبه لطيفَ المعانى ، مع إعراض عن فصيح العبارة وغريبها - وإن كانت مذمومة مستبردة فى الأغلب الأكثر - ربما أثارت دفينا ، أو أخرجت علقا ثمينا » (١٠١ . وقال فى موضع آخر : « ومن شأن ابن الرومى أن يورد المعنى ، ثم يأخذ فى شرحه فى بيت آخر ، وإيضاحه وتشعيبه ، وتفريعه ، فربما أخفق وأكدى ، وربما أصاب فأصمى ، لأن الشعر إنما تحمد فيه الإشارة والإختصار ، والإيماء إلى الأغراض ، وحذف فضول

---

(١٠٠) الصناعتين : ٣١٠

(١٠١) الشهاب فى الشيب والشباب : ٧٩

القـــول » (١٠٢) .

والذى قاله الآمدى وغيره من النقاد القدماء من أن على الشاعر ألا يخرج فى ابتداعه وإبداعه عن سنن الفحـول المبدعين ، والمستحسن من مذاهبهم فى الشعر = مما ينكره أكثر أدباء (الحداثة) اليوم ونقادها أشد الإنكار ، ويسميه أحـدهم (العـادة الشعرية) ، ويرى أن الثبات عليها ، وترك التحول عنها ، نفى لذات الشاعر ، وباطن الإنســان !! ، وأن هذه العادة حينئذ تصير « شرعا » آخر !! ومعيارا أول (١٠٣) .

والأمر - فيما أرى - على غير ما ظن ، لأن الشعر صـناعة كغيرها من الصناعات ، وفن إنسانى كسواه من الفنون ، ولكل صناعة أو فن سنن يلتزم ، وأصول تراعى مهما تغيرت الأشكال والصور ، فإذا سقط هـذا السنن وتلك الأصول سقطت الصناعة أو الفن ، أو خرجا إلى صناعة أخرى وفن آخر . وفى كل السنن والعادات مستحسن باق معمر ، وفيها ما ينسخ بعضه بعضا ، وحديثنا عما حسن وارتضى ، ومراعاته لا تلغى ذات الشاعر بحال ، ولو كان ذلك لوجد الشعر العربى القـديم كله مذهبا واحـدا ، وشعراء العرب القدماء جميعا أمثلة محذوة ، ولكننا نراهم افتنـوا ، وأعطوا أنفسهم فى مضمار فسيح رسومه ما يُرضى الأذواق الصحيحة ، وترتاح إليه النفوس الصافية ، ولا ينتهى إلى فساد اللغة ، واختلال الكلام كما قال القاضى الجرجانى . وإن من نظر فى أمر البيان الشعرى اليوم عند بعض شعراء الحداثة ممن أسماهم الدكتور هلال الشايجى « فريق المنبتين »(١٠٤) ، ورأى كيف حملهم ركوبُ الرخص ، واتباعُ الهوى ،

---

(١٠٢) الســابق : ٣٩

(١٠٣) أدونيس : الثابت والمتحول : ١/٥٣

(١٠٤) مقال : مفهوم الأصالة فى النقـد العربى القـديم . مجـلة كلية الآداب بفاس عدد (٤) ١٩٨٨ ، ص١٧٥

وهدم الاصول على أن افسدوا اللغة ، وادخلوا عليها اعظم الخلل = عرف سداد ما قاله القدماء فى هذه المسألة .

هذا .. ومراعاة السنن فى صنعة الشعر ، وإبداعه لا يعنى الغفلة عن اختلاف الأذواق لاختلاف الازمان ، والبقاع ، فقد لاحظ النقاد القدماء ان شعراء البداوة شاكلوا بشعرهم أزمانهم وبقاعهم .. وشعراء الحضارة شاكلوا بشعرهم أزمانهم وبقاعهم ، وهذا هو الاصل فى تقسيم الشعراء إلى قدماء ومحدثين . ووجدت عبد الكريم النهشلى ينبه على هذا المعنى بكلام صريح ويقول : إن الأزمنة ، والأمكنة ، والمقامات تختلف ، فيحسن فى وقت مالا يحسن فى آخر ، ويستحسن اهل بلد مالا يستحسن غيرهم ، ولذا قابل حذاق الشعر كل زمان بما استجيد فيه ، من غير أن يخرجوا عن حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة (١٠٥) وهذه الثلاثة : حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة من سنن العرب فى كلامهم .

وحاصل ما تقدم هنا أن الحذاق من نقاد العرب أدركوا أن الابتداع الشعرى اجتهاد إنسانى لا ينفد مدده ، ولا ينقطع سببه ، وأنه باق ببقاء خصوصيات التركيب اللغوى ، وذخائر النفس والقلب ، وأسرار الحياة والكون ، موجود ما وجدت الخواطر الحية ، والقرائح العبقرية .. هذا من وجه وهو من وجه آخر اجتهاد تحكمه أصول ، فليس انفلاتا ولا انقطاعا . فالابتداع من هذا الوجه نماء لا نشاز ، وتوسعه لا شذوذ ، والمبتدع جماعى لا خارجى ، وجواد فى مضمار لا عير منفلت .

---

(١٠٥) عن العمدة لابن رشيق : ١/٧٥

- ٦ -

والابتداع عندهم مرتبتان : ميئوس منه ، وغير ميئوس منه ، وذلك ان الشاعر حين تهديه فطنته إلى معنى بكر فيصوره ، فيحسن فيه ويبدع إما أن يأتى به على صورة تحديه من ان يُطمِع فيه وتيئس من بعده منه ، أو يأتى به على صورة من الحسن فائقة ، ودرجة من الجودة ظاهرة ٠٠ ثم يكون مع ذلك قابلا لأن يلقح ويولد فينازعه فيه من بعده فحول الشعراء وحينئذ إما أن يُغلَب عليه ، أو يشارك فى حسنه ، أو يقع المنازع له دونه ولنا أن نسمى المرتبة الأولى من الابتداع (الابتداع الفائت) والثانية (الابتداع الفائق) أو نسمى الأولى (الابتداع العقيم) والثانية (الابتداع الولود) ٠

وقد أخذت هذا التقسيم من صريح نصوصهم النظرية ، ومفهوم كثير من احكامهم التطبيقية ، واقدم نص وجدته فى هذا عبارة أبى عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) التى قال فيها : وقل من معانى الشعر معنى تفرد شاعر بإبداعه ، إلا نوزع فيه ، وزوحم ، واشتق منه شيء إلا وصف الذباب لعنترة(١٠٦) وقد نقلتها أول هذا الفصل ٠

ومن بعده قال احمد بن أبى طاهر (٢٨٠ هـ) « كلام العرب ملتبس بعضه ببعض ، وآخذ أواخره من أوائله ، والمبتدع منه ، والمخترع قليل إذا تصفحته ، وامتحنته ٠٠٠ ومن ظن أن كلامه لا يلتبس بكلام غيره ، فقد كذبه ظنه ، وفضحه امتحانه ٠٠٠ ولو نظر ناظر فى معانى الشعر والبلاغة حتى يخلص لكل شاعر بليغ ما انفرد به من قول، وتقدم فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ، ولا بعده لألفى ذلك قليلا

---

(١٠٦) انظر الحيوان ٣١١/٣ ٠

معدودا ، ونزرا محدودا »(١٠٧) .

ثم أعاد أبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) قول الجاحظ كما هو(١٠٨) ، ومثله ابن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ)(١٠٩) . وهذا القول متردد فى كلام كثير من النقاد حتى جعله العباسى فى (معاهد التنصيص) رأيا عاما ، ونسبه إلى العلماء بالشعر ، وجهابذة المعانى(١١٠) .

ثم فصل حازم القرطاجنى (٦٨٤هـ) القول فى هذه المسالة فى حديثه عن المعانى الشعرية من حيث السبق إليها(١١١) . وأما أحكامهم التى يفهم منها تقسيم الابتداع إلى ميئوس منه ، وغير ميئوس ، وتقسيم المعانى تبعا لذلك إلى عقيم وولود فهى أكثر من أن تحصى ، وسيمر بك بعض منها فتامله .

ونظريتهم فى هذا الباب ان المعانى الفائتة الميئوس منها قليلة جدا ، وهذا واضح من النصوص التى نقلتها ، وان جل معانى الشعر قابلة للتلقيح والتوالد ، والتناسل .. فما الذى يجعل المعنى المبتدع ميئوسا منه ؟

رد ابن رشيق ، وحازم القرطاجنى ذلك إلى ان بعض المعانى بطبيعتها مفردة لا تعقب ، وعقيم لا تلد ، فهى فى ذلك كالناس ، فمتى عبر الشاعر عن معنى من تلك المعانى باحق الفاظه ، وجاءه من أصح

(١٠٧) حلية المحاضرة ٢٨/٢ .
(١٠٨) انظر الصناعتين ٢٢٣ .
(١٠٩) انظر قراضة الذهب ٦٩ .
(١١٠) معاهد التنصيص ١٢٣/٢ .
(١١١) راجع منهاج البلغاء ١٩٤ وما بعدها .

ماتيه اغلقه وحماه ، وسمى ابن رشيق هذا الضرب (المعانى المفردة ، والتشبيهات العقيم)(١١٢) ، وجعله حازم قسما ثالثا من أقسام المعانى من حيث السبق إليها ، ووضعه فى المرتبة العليا من الشعر من حيث استنباط المعانى ، من بلغها فقد بلغ الغاية القصوى ، ودل على نفاذ خاطره ، وتوقد فكره ، ودقة استنباطه ، فاذا ساعدته العبارة وأطاعه القول فتلك المرتبة التى لا تدانى .. ثم قال : « والمعانى التى بهذه الصفة تسمى العقم لأنها لا تلقح ، ولا تحصل عنها نتيجة ، ولا يقتدح منها ما يجرى مجراها من المعانى ، فلذلك تحاماها الشعراء ، وسلموها لأصحابها ، علما منهم أن من تعرض لها مفتضح (١١٣) .

وذكر ابن رشيق فى موضع آخر وجها ثانيا لليأس من بعض المعانى المبتدعة ، فقال إن المعانى التى حماها أصحابها ، وسبقوا بها ، هى التى أخذت حقها من اللفظ ، فلم تبق فيها فضيلة تلتمس(١١٤) وهذا فى معنى قول أبى العلاء المعرى : « إن من الشعر ما يصل إلى غاية لا يمكن تجاوزها » قال ابن سنان الخفاجى : ومازلت أسمع أبا العلاء يقول ذلك القول(١١٥) ، فأبكار المعانى قد تقع العبارة عنها وافية تامة بأن تأخذ حقها من اللفظ ، وقد تقع العبارة عنها دون ذلك فتبقى فيها فضيلة تلتمس من جهة تصحيح المعنى أو تجويد العبارة وذلك باب الاتباع الشعرى كما سترى .

على أنهم متفقون كما تقدم على أن الابتداع الفائت قليل جدا ، يتفق للشاعر العبقرى المحكم فى اللمع القليلة من شعره ، والنادر

(١١٢) انظر العمدة ٢/٢٧٧ .
(١١٣) راجع منهاج البلغاء ١٩٤ .
(١١٤) قراضة الذهب ٥٦ .
(١١٥) سر الفصاحة ١٢٥ .

العجيب من نظمه ، ولا يطرد له ذلك بحال(١١٦) ، وهو فلتات الفطن التى لا توجد فى كل فكر ، وعلى كل حال ، بل هى مقصورة على بعض الأفكار دون بعض ، وموجودة لها فى بعض أحوالها دون بعض(١١٧) وهـم يطلقون على ذلك الضرب من المعانى المبتدعة الفاظا مثل المعنى (المحمى) و (العقيم) و (المسلم لقائله) و (الذى لم يوجد له نظير) و (لم ينازع فيه قائله) و (لم يجسر عليه أحد) و (الفرد) و (اليتيم) و (الذى لا يولد) .. ونحوها .

ولقلة المعنى المبتدع الميئوس منه لم يتفقوا له على مثال مجمع عليه - فيما أعلم - إلا قول عنترة فى نعت الذباب :

وترى الذبابَ بها يغنى وحده
هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحك ذراعه بذراعه
قدح المكب على الزناد الأجذم

وقد ذكرت أن الجاحظ - فيما أعلم - أول من أشار إلى تفرد عنترة بهذا المعنى ، وأنه ترك له ، ثم جاء من بعده أبو هلال فنقل معنى عبارة الجاحظ وزاد عليها بعض زيادة فقال : « وما يعرف للمتقدم معنى شريف إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه إلا بيتى عنترة : (وذكر البيتين السابقين) فإنه ما نوزع فى هذا على جودته ، وقد رامه بعض المجيدين فافتضح(١١٨) . وكذا ذكر ابن رشيق معنى عنترة .. ثم قال « فلم يجسر عليه أحد »(١١٩) ثم قال العبّاسىّ فى

---

(١١٦) راجع إعجاز القرآن ١١٢ .
(١١٧) راجع منهاج البلغاء ١٩٤ .
(١١٨) الصناعتين ٣٣٢ . (١١٩) قراضة الذهب ٦٩ .

معاهد التنصيص : « وما زال العلماء بالشعر ، وجهابذة المعاني يرون ان قول عنترة اوحد فرد ، ويتيم فذ ، وانه من المعاني العقم التي لا تولد »(١٢٠) .

وإنما حكموا على هذا المعنى بانه متحامى لما وجدوا الشعراء قد تركوه لعنترة ولم ينازعوه فيه مع ما هو مركوز في طباع الشعراء من انتهاب الاجادات ، ومنازعة المحسنين ، وقد صرح حازم القرطاجني بهذا المعنى فقال : (... إذ لا يكون المعنى من الغرابة والحسن .، بحيث مرت العصور ، وتعاورت ذلك الموصوف الالسنة ، فلم تتغلغل الأفكار إلى مكمنه إلا وهو ضيق المجال ، وبعيد الغور ...)(١٢١) .. وقد نظرت في الشعر الذى جمعه ابن قتيبة فى (باب الذباب) من كتاب (المعاني الكبير) فما وجدت أحداً من أولئك الشعراء الذين نعتوا الذباب وذكروه قد اقدم على عنترة في هذا المعنى ، أو جسر عليه(١٢٢) .

اما قول أبي هلال : « وقد رامه بعض المجيدين فافتضح » فإني لم اقف أول الأمر على من رامه فافتضح ، ثم توهمته ذا الرمة الذى نقل المعنى والصفة من يدى الذباب إلى رجلي الجندب فقال :

كان رجليه رجلا مُقْطِفٍ عَجِلٍ
إذا تجاوب من بُرْدَيه ترنيم

ولكن ابن رشيق قال : إن ذا الرمة وإن كان انتفع بعنترة من وجه

---

(١٢٠) معاهد التنصيص ١٢٣/٢ .
(١٢١) منهاج البلغاء ١٩٤ .
(١٢٢) المعاني الكبير ٦٠٣/٢ - ٦١٠ .

بعيد واخذ معناه فاخفاه - إلا انه على الحقيقة لم يعرض لعنترة فى معناه(١٢٣) .

ثم علمت بآخره أن الذى رام معنى عنترة فافتضح هو ابن الرومى . قال حازم - فى باب (قديم المعانى ومخترعها) : « الا ترى أنهم عابوا على ابن الرومى - وحظه من الاختراع الحظ الأوفر - تعرضه لقول عنترة : (وذكر البيان) .. بقوله يصف روضة :

وغرد رِبْعِيّ الذباب خلالها
كما حثحث النشوان صنجا مشرعا

فكانت لها زنج الذباب هناكم
على شدوات الطير ضربا موقعا

على أن ابن الرومى قد نحا بالمعنى نحوا آخر حين جعل تغريد الذباب ضربا موقعا على شدوات الطير . وهذا تخييل محرك إلى ما قصد ابن الرومى تحريك النفوس إليه وابلاغها به .. »(١٢٤) .

ووجدت فى (معاهد التنصيص) أن بعض المتأخرين من الشعراء قد تعلقوا بمعنى عنتره ، وراموه فما بلغوا .. قال أبو محمد بن عبد المجيد بن عبدون :

على ربا لم يزل شادى الذباب بها
يلهى بآنق ملفوظ ومضروب

كالغيد فى قهب الأزهار أذرعه
قامت له بالمثانى والمضاريب

---

(١٢٣) قراضة الذهب ٦٩ . والمقطف : راكب الدابة القطوف ، وهى البطيئة . هامش الصحيفة السابقة .

(١٢٤) منهاج البلغاء ١٩٤ ، ١٩٥ . وانظر معاهد التنصيص ١٢٣/٢

وقال أبو بكر بن سعيد البطليوسى :

كـان أهازيـج الذبــاب اســاقف
لهـا مـن ازاهير الرياض محاريـب

وقال حازم القرطاجنى :

ألقى ذراعا فـوق أخـرى وحـكى
تكلف الاجـذم فى قطـع السـنى

كأنمـا النـور الـذى يقرعـه
مقتدحـا لزنـده سـقط ورى (١٢٥)

وإذا كان معنى عنترة قد بقى متروكا له حتى زمن ابن الرومى مع وقوع التنازع فى أكثر المعانى فقد بقى حكم النقاد القدماء عليه صحيحا ، ولو وجدوا من نازعه المعنى وشاركه الاحسان فيه لذكروه ولاستدرك متأخرهم على متقدمهم ، والاشعار التى ذكرتها لا تقدح فى حكمهم . أما من أين صار معنى عنترة هذا فريدا محميا .. فلعله إنما كان كذلك لأنه بطبعه من التشبيهات العقم التى استوفت حظهـا من اللفظ .

وبقى فى تشبيه عنترة أمران يحسن الوقـوف عليهما الأول : أن هـذا التشبيه قصد به محـاكاة هيئة بهيئة - وهى هنـا هيئة حـركة الذباب بهيئة حركة المقتدح الأجذم - ومتى كان الأمر كذلك لم يلتفت إلى تفاوت ما بين المشبه والمشبه به فى المقدار أو اللون .. إذ المحاكاة إنما تعلقت بالهيئة لا بالمقدار لما كان القصد إلى محاكاة إحدى الحالتين بالأحرى ولذلك استحسن تشبيه الذباب بالقادح (١٢٧) .

---

(١٢٥) راجع معاهد التنصيص ١٢٣/٢ .
(١٢٦) منهاج البلغاء ١١٤ .

الأمر الثانى : أن العرب يشبهون فى الافعال ، وفى الـذوات ..
فيشبهون الفعل بالفعل ، والشىء بالشىء والذات بالذات .. وهذا الأخير
من مذاهبهم التى برعوا فيها ، واختصوا بها ، وزادوا بها على ما كان
عند اليونان قبلهم . هذا ما قاله ابن سينا ، وحـازم القرطاجنى من
بعده فى نص جم الدلالات انقله لفائدته ــ وإن كان طويلا ــ قال حازم:
« فإن الحكيم ارسطاطاليس ، وإن كان اعتنى بالشعر بحسب مذاهب
اليونانية فيه ، ونبه على عظيم منفعته ، وتكلم فى قوانين عنه ، فإن
اشعار اليونانية إنما كانت أغراضا محدودة فى أوزان مخصوصة ومدار
جل أشعارهم على خرافات كانوا يضعونها يفرضون فيها وجود أشـياء
وصور لم تقع فى الوجود ، ويجعلون حديثها أمثالا وأمثلة لما وقع فى
الوجود ... وكانت لهـم طريقة أيضـا ــ وهى كثيرة فى أشعارهم ــ
يذكرون فيها انتقال أمور الزمان وتصاريفه ، وتنقل الدول وما تجرى
عليه أحوال الناس وتؤول إليه . فأما غير هذه الطرق فلم يكن لهم فيها
كبير تصرف كتشبيه الاشياء بالاشياء فإن شعر اليونانيين ليس فيه شىء
منه . وإنما وقع فى كلامهم التشبيه فى الافعال لا فى ذوات الافعال .

ولو وجد هذا الحكيم ارسطو فى شعر اليونانيين ما يوجد فى شعر
العرب من كثرة الحكم والأمثـال ، والاسـتدلالات ، واختلاف ضروب
الإبداع فى فنون الكلام لفظـا ومعنى ، وتبحرهم فى أصـناف المعانى
وحسن تصرفهم فى وضعها ، ووضع الألفـاظ بازائهـا ، وفى أحـكام
مبانيها ، واقتراناتها ، ولطف التفاتاتهم ، وتتميماتهم ، واستطراداتهم،
وحسن مآخذهم ، ومنازعهم ، وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شـاؤا
لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية .

فإن أبا على بن سينا قد قال عند فراغه من تلخيص كتابه فى الشعر
« هذا هو تلخيص القدر الذى وجد فى هـذه البلاد من كتاب الشـعر

للمعلم الأول . وقد بقي منه شطر صالح ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع فى علم الشعر المطلق وفى علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلاما شديد التحصيل والتفصيل ... »(١٢٧) .

وأدع هذا النص ينطق بما فيه ، ويجادل عن نفسه ، ويعطى الناظر فيه على قدر ما يعطيه من النظر ، ولكنى أشير إلى بعض الدلالات .. فقول حازم إن ارسطاطاليس إنما اعتنى بالشعر بحسب مذاهب اليونانية فيه . يدل باطنه على أن تلك القواعد لا توافق بالضرورة الشعر عند غير اليونان ولولا ذلك ما احتاج إلى هذا التنبيه ، وذلك الاستثناء .. فحمل تلك القواعد على شعر غير اليونان قسرا باطل .. هذه واحدة .

وقوله : إن مدار جل أشعار اليونان على خرافات كانوا يضعونها ويجعلونها أمثلة لما وقع فى الوجود ـ يدل باطنه على أن شعر العرب ليس كذلك ، لان مدار كلامه على المفارقة بين الشعر عند العرب وعند اليونان ، وهذا من الادلة التى تضعف رأى من يسوقون الشعر الجاهلى سوق الحطمة ، ويسومونه سوم الأسير المغلول لينزل على ما يريدونه من التفسير الأسطورى والخرافى .. فشعر العرب ـ كما فهم حازم ، وهو معدود فى المتأثرين بالنقد اليونانى ـ هو شعر الواقع والموجود ، لا شعر الخرافة كما عند اليونان .. وهذه ثانية .

وقوله : لو وجد ارسطاطاليس فى شعر اليونان ما وجد فى شعر العرب ... الخ لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية .. فيه دليل على انه لا يصح تسليط نقد أدب ما على أدب آخر كما يفعل بعض المعاصرين ، ودليل على أن شعر العرب يقتضى نقدا غير النقد الذى

(١٢٧) السابق ٦٨ ، ٦٩ .

وضعه ارسطاطاليس على شعر اليونان .. وهذا يقوى ما أدين به من أن النقد العربى نشأ عربيا محضا على شعر عربى محض .. وفى باطن الكلام - لمن يحسن التأمل - دليل أيضا على أن النقاد العرب لم يتشيعوا لنظرية اليونان فى الشعر عندما ترجمت إليهم إلا ما كان من أثر هنا أو أثر هناك لأنهم رأوها تفسر شعرا غير الذى بأيديهم ... وهذه ثالثة .

وفى النص دلالات أخرى

وفى عود أخير إلى معنى عنترة نقول : إن هذا التشبيه ليس مما يسأل فيه عن الهدف والمغزى لأن العرب حين تشبه إما أن تقصد إلى التأثير فى النفس ، وتوجيهها نحو فعل أو انفعال - وهو التشبيه النفسى أو الوجدانى - أو تفعل ذلك للتعجيب فقط من مقدرة الشاعر على الجمع بين المتباعدات المتشابهات ، وقدرته على ابتداع لطائف الكلام التى يقل التهدى إلى مثلها(١٢٨) . ومما يذكر هنا الخبر المشهور الذى روى عن جرير حين سمع عدى بن الرقاع ينشد :

تزجى أغن كأن إبرة روقه

. . . .

فلما بلغ هذا الموضع من الشعر قال : وماذا عسى هذا الأعرابى أن يقول ؟ وحين قال فى تمام البيت :

. . . .

قلم أصاب من الدواة مدادها

ملىء قلبه عليه حسدا . فمقالة جرير دليل على أن للكلام مضايق لا ينجو منها إلا الفطن .. وفى مضايق الكلام تلك تمتحن الفطنة ،

---

(١٢٨) منهاج البلغاء ٩٠ .

وتبتلى الطباع . والتشبيه هنا أيضا لا شىء فيه إلا القدرة على جمع المتباعدات المتشابهات ، والاهتداء إلى لطائف الكلام .. ولو كان جرير حاضرا حين قال عنترة ما قال فى الذباب لقال فيه مثل مقالته فى عدى .

ومن دقيق ما هدى إليه الباقلانى - رحمه الله - قوله : إن الابتداع الميئوس منه فى كلام البشر ليس معجزا ، ولا يقدح فى إعجاز القرآن لأن النظم البشرى هو قدرة البشر وهى مهما علت متناهية ، ومطموع فيها ، والقرآن كلام الله وقدرته وهى غير متناهية وغير مطموع فيها . قال : وإنما صار لبلاغة البشر حد تنتهى عنده لأنه جرى فى المعلوم أن سيكون القرآن معجزا (١٢٩) ويقوى ذلك المعنى قولهم إن المعنى المبتدع يلاك فيخرج إلى الاشتراك ، وأن المعنى الفائق لا يبقى فائقا أبد الدهر وكم من معنى فرد استخرجه شاعر فعرف به وسلم له ثم غلب عليه وانتزع منه (١٣٠) .

أما الابتداع الفائق غير الميئوس منه ، والذى يقع فيه التنازع ، وينتهب حسنه ، ويسرى فى أصلاب الشعر الذى يأتى بعده ، فهو دائرة الشعر الفسيحة ، ومضمار شعر الحذاق المجيدين ، والفحول المبدعين ، وهو للشعر كماء الأصلاب للذرية .

وقد مثل له النقاد القدماء بأمثلة كثيرة جدا ، وأكثر أمثلته مستخرجة من شعر رءوس الشعراء فى كل عصر وطبقة : امرىء القيس ، وبشار ، وأبى نواس ، وابن الرومى ، وأبى تمام ، والبحترى ، والمتنبى ..

---

(١٢٩) انظر إعجاز القرآن ١٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ .
(١٣٠) راجع الموازنة ١٨٦/٢ .

وقد علمت أن عمر وعليا رضى الله عنهما أشارا إلى سبق امرىء القيس وابتداعه ، ومتابعة الشعراء بعده له فيما سبق إليه ، ومنازعتهم اياه فيما فطن له من هيآت المعانى ، وصورها ... فالرأى اذن فى ابتداع امرىء القيس ، وتقدمه عتيق جدا .. ولهذا كان شعره موضع عناية نفر من وجوه أهل الرواية ، وصدور أهل العلم بالشعر منهم أبو عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وخالد بن كلثوم ، ومحمد بن حبيب وأبو سعيد السكرى،وأبو العباس الأحول،وابن السكت وغيرهم(١٣١).

وروى ابن سلام الجمحى - وهو من أقدم من ألف فى النقد عند العرب - إن امرأ القيس لم يقل ما لم يقل ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها .. فاستحسنت واتبع فيها كبكاء الصحب ، والتبكاء على الديار، ورقة النسيب ، وقرب المآخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض ، والخيل بالعقبان ، والعصى ، وتقييد الأوابد(١٣٢) .

وقال الآمدى : « ألا ترى أن العلماء بالشعر احتجوا فى تقديمه بأن قالوا : هو أول من شبه الخيل بالعصى ، وبالوحش ، والطير ، وأول من قال : قيد الأوابد ، وأول من قال كذا وكذا فهل هذا التقديم إلا من أجل معانيه »(١٣٣) . وقال ابن رشيق : « وله اختراعات كثيرة يضيق عنها الموضع ، وهو أكثر الناس اختراعا فى الشعر وأكثرهم توليدا »(١٣٤) .

فابتداع امرىء القيس كالمجمع عليهم عندهم من حيث انه ابتدع هيآت وصورا لمعان لم يكن يعبر عنها قبله بمثل تلك الصور والهيآت .

---

(١٣١) الفهرست لابن النديم ٢٢٣ .
(١٣٢) طبقات فحول الشعراء ٥٥/١ .
(١٣٣) الموازنة ١/.
(١٣٤) العمدة ١٠٢/٢ .

هذا مذهب نظرى فى ذكر ابتداع امرىء القيس ، ثم ذهب النقاد القدماء فى اثبات ابتداعاته مذهبا تطبيقيا ، فاستخرجوا من شعره كثيرا من المعانى التى سبق إليها .

فعد قدامى أهل العلم بالشعر : أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) ، وحماد الراوية (١٥٦ هـ) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩ هـ) ، والأصمعى (٢١٦ هـ) — من ابتداع امرىء القيس تقييده الأوابد فى قوله :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وجعلوه من الاستعارات البليغة ، وقالوا : انه اتبع فى هذا فلم يلحق(١٣٥) .

وجلى قدامة بن جعفر كلام من تقدمه فى المسألة وشرحه ، وبين وجهه فقال : إن امرأ القيس « انما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة ، وأنه جواد فلم يتكلم باللفظ بعينه ، ولكن بأردافه ، ولواحقه التابعة ، وذلك أن سرعة الفرس يتبعها أن تكون الأوابد وهى الوحوش ، كالمقيدة له إذا جد فى طلبها ، والناس يستجيدون لامرىء القيس هذه اللفظة فيقولون : هو أول من قيد الأوابد وانما عنى بها الدلالة على جودة الفرس وسرعته ، فلو قال ذلك بلفظه لم يكن عند الناس من الاستجادة ما جاء من اتيانه بالردف له .. »(١٣٦) . فامرؤ القيس لم يخترع وصف سرعة الفرس وإنما اخترع « قيد الأوابد » لتكون صورة مخصوصة لتلك السرعة .. وهذا حقيقة معنى الابتداع فى معانى الشعر كما مر بك .

(١٣٥) إعجاز القرآن للباقلانى ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٨ .
(١٣٦) نقد الشعر ١١٣ . وانظر سر الفصاحة ١٠٩ .

وقد رجعت إلى باب « لحوق الخيل بالصيد » من كتاب المعانى الكبير لابن قتيبة فإذا هو قد جمع فيه شعرا كثيرا ، جد فيه قائلوه فى أثر معنى امرىء القيس ، وطلبوا شركته فيه . وهذه ألفاظهم . قال ابن أحمر : (درك الطريدة) وقال عبد الحميد بن عسلة : (كأنه معلق فيها - أى فى الوحش - بخطاف) . وقال ابن مقبل : (يحول بين حمار الوحش والعصر) - أى الملجأ والمفر - وقال المرار الفقعسى : (يصرع العيرين فى نقعيهما) وقال عدى بن زيد : « يغرق المطرود » أى الطريدة و (يوثق العلجين) - أى الحمارين - و (لخلة الشاة راقعا) - أى ينال الشاة فكأنه رقع الفرجة التى بينه وبينها »(١٣٧) .

فإذا نظرت فيما قاله امرؤ القيس ، وفيما قالوه وجدت لقوله على أقوالهم فضلا هذا مع السبق وهو الفضيلة العظمى .. وهذا المثل يريك كيف يقع السبق والاتباع فى المعانى الشعرية .

وكما زاحم بعض الشعراء امرأ القيس فى معناه هذا انتهبوا لفظته تلك ونقلوها : قال الباقلانى انهم نقلوا (قيد الأوابد) من صفة الخيل .. فقالوا : (قيد النواظر) و (قيد الالحاظ) فى معرض التعبير عن أخذه الجمال ، وقالوا : (قيد الكلام) و (قيد الحديث) ، وقال ابن مقبل فى صفة النبت : (قيد العصا)(١٣٨) يعنى أنه كثيف متداخل - وهى بديعة جدا - ونقل الأعور الشنى اللفظة ووصف بها نفسه فقال:

وإن تنظروا شزرا إلى فإننى
أنا الأعور الشنى قيد الأوابد(١٣٩)

---

(١٣٧) راجع المعانى الكبير ١/٢٤ - ٢٧ .
(١٣٨) إعجاز القرآن ٧٠ .
(١٣٩) الشعر والشعراء ٢/٦٤٤ .

فانظر إلى العبارة الشريفة كيف تلقى بركتها على الكلام ، وانظر إلى الابتداع العالى كيف يصنع صنيع الماء إذا أصلب الأرض الكريمة ؟ .

فصورة المعنى فى قوله : (قيد الأوابد) من الابتداع الفائق غير الميئس..والقدماء على أن امرأ القيس نوزع فيها فلم يلحق وممن شذ عن ذلك ابن سيدة حين زعم أن قول المتنبى فى صفة كلب :

. . . .

وعقـــلة الظـبى وحتـف التتفـــل

وقوله فى حصان :

يتقيلون ظـــلال كل مطهـــــــم

اجـل الظـــليم وربقـــة الســـرحان

من البديع الذى زاد فيه على امرىء القيس ، وصح للمتنبى بهما الشرف عليه (١٤٠) وهذا الرأى ليس بشىء .

وعد من سبق امرىء القيس الفائق الذى اتبع فيه قوله :

كان قلوب الطير رطبا ويابســـا

لدى وكرها العناب والحشـف البالى

وهذا عندهم ابداع فى صنعة التشبيه لحسن المقابلة بـين رطب القلوب والعناب ، وبـين يابسـها والحشف البالى .. مع جودة التقسيم والتشبيه ، قال المبرد : إن الرواة مجمعون على أنه فاق فى هذا التشبيه كل من نازعه فيه (١٤١) .

---

(١٤٠) شرح مشكل شعر المتنبى ٧٧ ، نقلا عن تيارات النقد الأدبى فى الأندلس ٤١٥ .

(١٤١) الكامل ٣٢/٣ ، وقواعد الشعر ٣٢ ، وقراضة الذهب ٢٤ .

وعد من ابتداعه الفائق وصفه للثريا ، وتعرضها فى قوله :

إذا مــا الثريــا فى الســماء تعرضت

تعرض إثنــاء الوشـــاح المفصـــــل

قالوا : فعلى كثرة ما قال الشعراء فى (الثريا) بعده لم يأتوا بما يقارب معناه : أو سهولة الفاظه (١٤٢) .

ومن ابتداعه الفائق ابتداؤه الجامع :

قفا نبك من ذكــرى حبيــب ومنــزل

بسـقط اللوى بـين الدخـول فحومل

قيل فيه : « إنه احسن ابتداعات العرب ، وابرعهما ، واجمعها لعدة معان فى لفظ قليل »(١٤٣) وقال حازم القرطاجنى : « فالمصراع الاول – من البيت السابق – فى غاية الابداع ، ونهايـة الانطباع ... وليس يجاريه احد فى كمال المصراع الأول ، وشرف ما وقع فيه بالنظر إلى ما يجب أن يفتتح به القول فى البكاء على الديار »(١٤٤) .

وذكر ابن رشيق له قوله :

الم تريانى كلمـا جئت طارقــــــا

وجدت بها طيبــا وإن لم تطيـــب

وقال : انه فتحه للناس جميعا ثم أغلقه (١٤٥) ..

وذكر له ايضا قوله :

ومــا ذرفــت عينـــاك إلا لتضربى

بسهميك فى اعشار قلب مقتـــــل

---

(١٤٢) الكامل ٣٣/٣ .
(١٤٣) الموازنة ٥٦٥/١ .
(١٤٤) منهاج البلغاء ٣١١ .
(١٤٥) قراضة الذهب ٤١ .

وقال : إن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى ، ولم يأت الملح منه.وابداعه فيه من جهة (التمثيل) وهو من ضروب الاستعارة وفنونها « فمثل عينيها بسهمى الميسر ، يعنى المعلى وله سبعة انصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء . فصار جميع اعشار قلبه للسهمين الذين مثل بهما عينيها ، ومثل قلبه باعشار الجزور ، فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل »(١٤٦) .

ومن ابتداعه وابتكاره قوله :

إذا ما جرى شاوين وابتل عطفه
تقول : هزيز الريح مرت باثاب

قال ابن رشيق أيضا : « وليس بين الناس اختلاف فى أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى .. فبالغ فى صفته أى الفرس ، وجعله على هذه الصفة بعد ان يجرى شاوين ويبتل عطفه بالعرق ثم زاد ايغالا فى صفته بذكر (الأثاب) وهو شجر للريح فى اضعاف اغصانه حفيف عظيم ، وشدة صوت »(١٤٧) . وهذا يسمى الايغال .

ومن ابتداعه المحاورة التى تقدم فيها وفاق :

تقول - وقد جردتها من ثيابها
كما رعت مكحول المدامع اتلعا

وعيشك لو شىء اتانا رسوله
سواك ... ولكن لم نجد لك مدفعا

فاخذه عمر بن أبى ربيعة وهو من ائمة هذا المذهب ، والضالعين فيه فقال :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى
على الرمل فى ديمومة لم تمهد

---

(١٤٦) العمدة ٢٧٧/١ . (١٤٧) العمدة ٥٧/٢ .

فقالت : على اسم الله امرك طاعـــــة

وإن كنت قـد كلفـت ما لـم أعـــود

قال ابن رشيق : فاين ترى وقع عمر من امرىء القيس ، وإن كان عمر لم يبق غاية(١٤٨) والبصير لا يخفى عليه فرق ما بين الكلامين فى القوة والسبك والسلاسة . وفى بيت امرىء القيس الثانى اختصار يسميه القدماء (كفا) وهو الكف عن ذكر الجـواب اكتفـاء بدليل عليه من الكلام . قـال ابن فارس(١٤٩) : حـق الكلام لو اتانا رسول سـواك لدفعناه . ولكنه ترك الجواب (لدفعناه) اكتفاء بدلالة قوله لم نجد لك مدفعا . و (الكف) بلاغـة لانـه ايجاز بحذف لفظ لا يختل الافهـام بحذفه واللفظ الذى هذا حاله حذفه بلاغة وذكره تطويل وعى إذ لـم تستدع ذكره حاجة فى الكلام .. وفى (الكف) هنا بلاغة أخرى لانه جعل الكلام أشكل بمن كانت فى مثل حال تلك المرأة .. وما هى مقبلة عليه !! . ومن أعاجيب هذا الرجل : امرىء القيس - وحقهـا أن تعـد فى ابتداعاته - انه من أدق الناس حديثا عن المرأة حين ينطقها عامـة وفى الحال التى وصفها خاصة .. وتأمل هنا قوله (شىء ..) وهى لفظة قلما تحسن فى كلام الشعر .. ولكنها هنا حسنت وظرفت لدقـة تصويرها حال هذه المرأة .

هذه جملة من ابتداعات امرىء القيس التى ابتدأها ، وفتحها لمن بعده .. فنوزع فيها فلم يلحق ، وترك المتبعيه فى غباره .. ومنها عرفت أن مسالة (ابتداع امرىء القيس) ليست من آراء الآحاد .. بل هى رأى عتيق قال به عمر وعلى رضى الله عنهما فى أول الإســلام ، وبقى ماخوذا به إلى القرن السابع الهجرى وما بعده ، وعرفت أيضـا

---

(١٤٨) قراضة الذهب ٤٢ . (١٤٩) الصاحبي ٤٣١ .

ان لهم فيه آراء نظرية ، واحكاما تطبيقية ينقلونها من كتاب إلى كتاب، ومن عصر إلى عصر .. ثم توسع ابن رشيق فى استخراج أمثلة ابتداع امرىء القيس وفى تحليلها فى رسالته (قراضة الذهب) ، وبناها على ذلك . وقبله فعل الباقلانى فى (إعجاز القرآن) قريبا من فعله(١٥٠).

ومع هذا كله فإن بعض الباحثين(١٥١) يطعن فيما قال القدماء عن ابتداع امرىء القيس ، وسبقه ، ويحتج بجواز أن يكون (ابن حزام) او غيره قد سبق امرأ القيس إلى المعانى التى قيل : إنه ابتدعها ، فاتبع فيها ، لا بل هو يقطع أن ذلك قد كان . وهذا طعن فى كلام العلماء بالظن . وقد علمت أن ابتداع امرىء القيس ليس من آراء الآحاد ، حتى يرمى قائله بالتوهم ، ويسوغ وصفه بفساد الرأى .. بل هو رأى كالمجمع عليه . وبعيد ان يكون القوم قد وهموا جميعا ، وغفلوا مع قرب العهد بالقضية ، وكثرة الرواية ، وسعة الحفظ .

أما ابن حزام الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا
نبكى الديار كما بكى ابن حزام

فقد كنت توهمت أنه رجل شفه الوجد ، وغلبة العشق ، فلزم دار حبيبته يبكيها بدموع وكلام لا بشعر ، حتى صار مثلا ، فضربه امرؤ القيس مثلا .. وقوى هذا التوهم عندى أن امرأ القيس قال : (نبكى الديار كما بكى ابن حزام) وهو يحتمل المعنيين : معنى نبكى الديار بدمع فعل ابن حزام ، ومعنى : نبكى الديار بشعر كما قال ابن حزام .. ولكنى طرحت هذا التوهم لما وجدت نصوصا عند ابن سنان الخفاجى،

---

(١٥٠) راجع اعجاز القرآن ٦٩ وما بعدها .
(١٥١) الدكتور محمد مصطفى هدارة : مشكلة السرقات ٢٧٠ .

والحاتمى وابن الأثير فى أن ابن حزام كان شاعرا جاهليا سابقا فى الزمن على امرىء القيس ، بل روى ابن الكلبى عن علماء كلب انهم كانوا إذا سئلوا عن ابن حزام ذكروا بعض شعر امرىء القيس ، وزعموا أنه انتحلها من ابن حزام ، وانتزعها ، ونقل أبو عبيدة : أن ابن حزام هذا ممن كان يصحب امرأ القيس ، ويشاركه أسباب العيش(١٥٢) .

فالحجة التى ذكرها المنكر لما اجمع عليه القدماء من ابتداع امرىء القيس ، وسبقه لم تغب عن القدماء ، وذكرها ابن سنان صراحة حين رد على من زعم أن الوجه فى تقديم امرىء القيس (**سبق الزمن**) وحده دون (**السبق الفنى**) فقال : إن مما يبطل هذا الرأى أنه صح انه كان قبل امرىء القيس جماعة من الشعراء منهم من عرف ، ومنهم من لم يعرف ومنهم ابن حزام الذى قيل إنه أول من بكى الديار ، وذكره امرؤ القيس فى شعره(١٥٣) .. فهذا هو وجه الاحتجاج الصحيح لتقدم ابن حزام فى الزمن على امرىء القيس .

فهم لم يقدموا امرأ القيس ، ويحكموا له بالسبق والابتداع على أساس تقدم الزمان وحده .. كيف وقد قالوا : إن امرأ القيس لم يقل ما لم يقله الناس قبله ، وانما استجد للمعانى صورا جديدة ، وهيآت خاصة صارت بها مختصة به(١٥٤) .. وقانون الابتداع فى الشعر عند العرب ـ كما عرفت ـ هو تصوير المعانى بصور مخصوصة وإبرازها على هيآت مختصة . كان الناس يقولون : (أسيلة الخد) فقال امرؤ القيس (أسيلة مجرى الدمع) ، وكانوا يقولون : (تامة القامة) ، و (طويلة

(١٥٢) راجع سر الفصاحة ٢٧٢ ، وحلية المحاضرة ٣٠/٢ نقلا عن الشعراء نقادا ١٢٣ .
(١٥٣) راجع سر الفصاحة ٢٧٢ .
(١٥٤) طبقات فحول الشعراء ١٧/١ ، والعمدة ٩٤/١ .

القامة) أو (جيداء) أو (تامة العنق) وأشباه هذا فقال هو : (بعيدة مهوى القرط) ، وكانوا يقولون فى الفرس : (يلحق الغزال والظليم) وشبهه ، فقال : (قيد الأوابد) ... وهكذا(١٥٥) . فهذا وحده هو وجه حكمهم له بالسبق والابتداع .

ولو افترضت أن ابن حزام أو غيره كان يقول فى بكاء الديار : (بكيت) أو (وقفت بها ابكى) .. أو نحوه ، لم يطعن ذلك فى حكمهم لامرىء القيس بانه الذى أسس الأساس ، وبنى عليه الناس كما قال ابن شرف القيروانى ، لأنهم أرادوا أنه أول من بكى الديار بهذه العبارة (قفا نبك) .. وهذا وان كان وقوفا وبكاء فى الجملة إلا أنه صورة معنى غير (بكيت) أو (وقفت ابكى) ، جمع فيه امرؤ القيس عدة معان فى لفظ قليل كما قال الآمدى وحازم وغيرهما . وقد تقدم(١٥٦) قال : (قفا) فصرح بوقوف صاحبيه وأضمر وقوفه هو ، ثم قال (نبك) فصرح ببكائه وبكائهما ، وجعل البكاء جواب الوقوف ، وغايته ولذا قالوا : إنه وقف واستوقف ، وبكى ، واستبكى .

وفى بحث جيد قائم على الإحصاء ذكر الأستاذ على الجندى أن مجموع ما لامرىء القيس من الصور الشعرية (١٥٦) صورة ، وأن مجموع المصادر التى انتزع منها مادة الصور (١٢٢) مصدرا ، ثم استنتج من هذا أن امرأ القيس كان شاعرا مستجدا ، حريصا على أن ينتزع كل صورة شعرية من مصدر جديد(١٥٧) . وهذا هو معنى أصالة الابتداع .. وهب أن هذا العد ليس دقيقا ، وأنه مما ينازع فيه .. فإنه لا يخلو من دلالة - حينئذ - على ابتداع امرىء القيس وسبقه .. فقد صدق العد ، والنظر المردد ما قاله القدماء .. ويقينى الذى أدين

---

(١٥٥) انظر رسائل الانتقاد ٢٣ ، ٢٤ .
(١٥٦) ص ١٠٢ هنا .
(١٥٧) امرؤ القيس الكندي ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

به ان سلفنا الصالح من العلماء من وراء اقوالهم المرسلة ، واشاراتهم المختصرة جهد وداب وتفتيش طويل ، ومعاناة نظر .. إلا ان القوم ليسوا ممن يمنون ، فيستكثرون ..

***

وكان من حق هذا الموضع من البحث ان اتتبع فيه جملة من احكامهم فى ابتداعات بشار وابى نواس ، وابى تمام وابن الرومى ، والمتنبى كما فعلت مع امرىء القيس ولكنى اعجلت عن تتبع هذا فاكتفى ببعض نصوصهم ..

كان ابو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩ هـ) ، وابو عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ) يعدان ابا نواس فى المبدعين من الشعراء قال ابو عبيدة : ان ابا نواس للمحدثين كامرىء القيس للمتقدمين .. هذا راس طبقته، وذاك راس طبقته(١٥٨) . وتامل هذا فان ابا عبيدة معدود فيمن يتعصب على المحدثين ، ولا يرى لهم فضلا !! . وقال الجاحظ : ان ابا نواس فاق الشعراء ، وتركهم فى اثره فى ابياته الذائعة التى وصف فيها الكاس ، وخمرها وندامها :

ودار ندامى عطلوها وادلجوا
بها اثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى
واضغاث ريحان : جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم
وانى على امثال تلك لحابس
اقمنا بها يوما ، ويوما ، وثالثا
ويوما له يوم الترحل خامس

(١٥٨) نزهة الألباء ٤٩ .

تدار علينا الراح فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى ، وفى جنباتها
مها تدريها بالقسى الفوارس

فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

قال أبو عثمان : « ليس فى الشعراء من تقدمه إلى هذا المعنى، ولا من شاركه فيه »(١٥٩) . كذا عد أبو العباس المبرد (٢٨٦ هـ) هذا المعنى من المعانى التى أجمع النقاد على أن أبا نواس مبتدعها ، وأنه لم يسبق إليها(١٦٠) . والأمر هنا على ما قيل فى (ابتداعات امرىء القيس) فهم لم يريدوا أن أبا نواس أول من وصف الكأس والخمر ، والندامى مطلق وصف ، بل أول من وصف ذلك بالألفاظ والعبارات والصور التى نطق بها .. وعلى النحو الذى نظم عليه الكلام(١٦١) .

وقد ذكر ابن طباطبا العلوى أن أحمد بن يحيى الكاتب جسر على معنى أبى نواس هذا ، وتبعه فيه ، ونازعه إياه ، وأنه جاء به فى كسوة أحسن من كسوة أبى نواس ، فقال :

ومدامة لا يبتغى من ربه
احد حباه بها لديه مزيدا

---

(١٥٩) اخبار أبى نواس لابن منظور ، الأغانى ٩٨٥٥/٣٠ .
(١٦٠) كتاب لروضة نقلا عن (لسرقات الأدبية) للدكتور بدوى طبانة ص ٢٢٤ ، وانظر المثل السائر ١٣/٢ .
(١٦١) راجع المثل السائر ١٤/٢ .

فى كاسها صور تظن لحسنها
عربا برزن من الجنان وغيدا
قد صف فى كاساتها صور جلت
للشاربين بها كواعب غيدا
فإذا جرى فيها المزاج تقسمت
ذهبا ، ودرا توأما وفريدا
فكأنهن لبسن ذاك مجاسدا
وجعلن ذا لنحورهن عقودا (١٦٢)

ومتابعة أحمد بن يحيى لأبى نواس ظاهرة ، واتكاؤه عليه غير خاف ، وله اجادة ، ولكنه - فيما أرى - دون أبى نواس صحة طبع ، وسبك .. وقول أبى عثمان الجاحظ : إنه ليس فى الشعراء من شارك أبا نواس فى معناه لا يسقط، فيما أرى أن أحمد بن يحيى أو غيره قال فى معناه .. لأنهم يريدون بعبارة (شاركه فى معناه) - فيما فهمت عنهم أن ينازع المتبع السابق معناه ، ويزيد عليه فيه ، ويصنعه أحسن من صنعته .. فيكون للسابق فضل السبق ، وللمتبع فضل الزيادة والاحسان .. فهذه مشاركة التالى للأول فى المعنى .. وانها تسقط عبارة الجاحظ عند من يرى أن أبيات أحمد بن يحيى أفضل من أبيات أبى نواس ، وأجود منها صنعة .

وبشار بن برد عند بعضهم فى الابتداع والسبق إلى المعانى لمن بعده كأبى نواس لمن بعده ، قال أبو بكر الصولى : « ان جميع المحدثين قد أخذوا من بشار واتبعوا أثره »(١٦٣) .

وقال حازم القرطاجنى فى ابن الرومى : إن حظه من الاختراع

---

(١٦٢) عيار الشعر ٨٠ .
(١٦٣) اخبار أبى تمام ١٤٢ .

الحظ الأوفر(١٦٤) وقال فيه الشريف المرتضى : إن فلسفة هذا الرجل، وتطلبه لطيف المعانى ، وكثرة توليده ينتهى به كثيرا إلى الاختراع والابتداع فيثير الدفين ، ويخرج العلق الثمين(١٦٥) ، ووصفه ابن شرف القيروانى بانه « شجرة الاختراع وثمرة الابتداع »(١٦٦) .

وقال الآمدى فى أبى تمام : إن له مخترعات كثيرة ، وبدائع مشهورة(١٦٧) وقال فيه أيضا : وقال من قدم أبا تمام إنه انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه إماما وأولا متبوعا ، وهو مذهب البديع .

وقال ابن الأثير : « وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعانى»(١٦٨) وممن علا سهمه فى الابتداع من المحدثين أبو الطيب المتنبى . وفى خبر ينتهى سنده إلى أبى عبيد الله الحسين ابن محمد بن الصقر الكاتب وهو رجل من أهل الأدب ، وممن نشأ بالموصل قال : جرى ذكر المتنبى عند أبى العباس النامى فقال : كان قد بقى من الشعر زاوية دخلها المتنبى ، وكنت أشتهى أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ، ما سبق إليهما ، ولا أعلم أن أحدا اخترعهما قبله وهما ، قوله :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى
فؤادى فى غشاء من نبال

---

(١٦٤) منهاج البلغاء ١٩٥ .
(١٦٥) راجع الشهاب فى الشيب والشباب ٧٩ .
(١٦٦) رسائل الانتقاد ٣٣ .
(١٦٧) الموازنة ١/١٢٣ .
(١٦٨) المثل السائر ٢/٢٣ .

وقـــوله :

في جحفـل سـتر العيـــون غبـاره

فكانمـــا يبصـــــرن بالآذان (١٦٩)

- ٧ -

ويدخل فيما نحن فيه مبحث (القدماء والمحدثين) من بعـض وجوهه . وهو من المباحث المشكلة ، والمسائل المعضلة .

تكلم في باب القديم والحديث في الشعر ثلاث طبقات من العلماء: طبقة صدور أهل اللغة ، وشيوخ العربية ، وطبقة جهابذة الالفـاظ ، ونقاد المعاني من نقاد الشعر .. وطبقة حواشي أهل العلم بالشـعر ، ومعهم أهل العصبيته ، وصنائع الأهواء .

اما صدور أهل اللغة ، وشيوخ العربية فان جل نظرهم في بـاب القدماء والمحدثين كان من وجهة (لغوية) ، هي الاحتجاج بالشعر.. وهذا هو علمهم الذي أبلوا فيه ، واستفرغوا فيه مجهودهم فحين جعلوا شعر القدماء حجة في العربية قدموه وشغلوا به ، وحين لم يجعلـو شعر المحدثين كذلك أخـروه ، وشغلوا عنـه ، وعلى هذا يحمل أكثر ما روى عنهم .

وكانت لهم مع هذا احكام على شعر المحدثين من حيث الاستحسان والاستقباح ، لا من حيث الاحتجاج قدموا فيها أشعارا للمحدثين عـلى نظائر لها من شعر القدماء ، ثم تداخل الكلامان والتبسا عند بعض من لا يتثبت قديما وحديثا فرموا بما رموا به من العصبية ، وضيق العطن ،

---

(١٦٩) من كتاب بغية الطلب .. لابن العديم نقـلا عن (المتنبي) للاستاذ محمود شاكر ٢/٢٨٤ .

وفساد الذوق وقد عرضت لهذه المسألة فى بحث سابق بأوسع من هذا(١٧٠) .

وأما حواشى أهل العلم بالشعر - وفيهم من يعد فى علماء اللغة والرواية وأهل الأدب ممن ضعفت أذواقهم ، وقل بصرهم بالشعر من حيث هو شعر ، وممن أغوتهم العصبية ، وأفسد عليهم آراءهم الهوى وإن كان لهم بالشعر علم يعتد به ، فهم الذين ذهبوا إلى تقديم القدماء، وتأخير المحدثين على أساس الزمن وحده ، أى لأن القدماء تقدم زمانهم، والمحدثين تأخر زمانهم ، وهى علة فاسدة ، ورأى واه ، ومن جهة هؤلاء دخلت الشبهة على النقد العربى القديم فى موقفه من القدماء والمحدثين، وليسوا إلا قوما تكلموا فيما لا يحسنون ، أو أخذت العصبية بأزمتهم ، وزينت لهم فاسد العلل ، قال ابن سنان : وهذا إنما يقع للعامة، وأشباههم من أغمار الأدباء (١٧١) ، ومثلهم يوجد فى كل أمة ، ولا يكاد يخلو منهم عصر .

على أن أهل الرأى ، والذوق من القدماء ردوا على هؤلاء ، وأبانوا عن عللهم الفاسدة ، فقال ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) : « إن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون آخرين ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر »(١٧٢)، وقال ابن سنان (٤٤٥ هـ) : إن تقديم الأوائل من الشعراء على أساس الزمان وحده حجة فاسدة ورأى ذاهب(١٧٣) ، وقال ابن رشيق (٤٦٣ هـ) ، « والمتأخر من الشعراء فى الزمان لا يضره تأخره

(١٧٠) الموازنات الشعرية فى النقد العربى القديم - رسالة مخطوطة فى كلية اللغة العربية بالقاهرة .
(١٧١) سر الفصاحة ١٢٠ .
(١٧٢) الشعر والشعراء ٦٩/١ .
(١٧٣) سر الفصاحة ٢٧١ ، ٢٧٢ .

إذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصر ، وإن كان له فضل السبق فعليه درك التقصير كما أن للمتأخر فضل الإجادة أو الزيادة »(١٧٤).

وقال حازم القرطاجني (٦٨٤ هـ) : « فاما من يذهب إلى تفضيل المتقدمين على المتأخرين بمجرد تقدم الزمان ، فليس ممن تجب مخاطبته في هذه الصناعة »(١٧٥) - يريد صناعة البلاغة ونقد الكلام - فتلك الحجة الداحضة قديمة كما ترى ، والرد عليها قديم أيضا ، أما منزلة القائلين بتلك الحجة من علم الشعر ونقده فقد أبان عنها حازم في قوله السابق أيما إبانة ، ومن قبله ابن سنان الخفاجي .

والطبقة الثالثة ممن تكلم في مسألة القدماء والمحدثين هم جهابذة الألفاظ ، ونقاد المعاني ، وحذاق النقاد من العرب ، وقد نظروا إلى المسألة من جهة السبق إلى المعاني ، وفتح أبوابها ، أو أخذها ثم تصريفها وتوليدها ، أي على أساس (الابتداع والاتباع) .

قال ابن طباطبا العلوي : إن أوائل الشعراء ومتقدميهم « قد سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحلية لطيفة ، وخلابة ساحرة » ثم قال : « وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ، ولطفوا في تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم ، وتكثروا بإبداعها ، فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها »(١٧٦) . وقال الآمدي : إن المحدثين من الشعراء العرب ورثوا فطن الأوائل منهم ، وبنوا على بنائهم(١٧٧) ،

---

(١٧٤) العمدة ١/٧٤ .
(١٧٥) منهاج البلغاء ٣٧٨ .
(١٧٦) عيار الشعر ٩ ، ١٤ .
(١٧٧) الموازنة ١/٢٥٩ .

وقال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى : إن الأوائل من الشعراء قد أخذوا عفو المعانى وسبقوا إلى جيدها ... »(١٧٨) ، فاعترفوا جميعا للأوائل بالسبق أو الابتداع وابقوا لهم فضيلته .. وجعلوه العلة فى تقديمهم اجمالا على المحدثين .

وابن طباطا ، والآمدى ، وعلى الجرجانى من نقاد القرن الرابع الهجرى ، وهو القرن الذى استوى فيه النقد الأدبى على سوقه ، ومن أولى العزم من النقاد ، قالوا ما قالوا فى معرض الاحتجاج للشعراء المحدثين ، أو الاعتذار عنهم(١٧٩) ، وقالوا ما قالوا : وهم واعون عالمون بان باب الابتداع مفتوح ، وباب التوليد مفتوح ، لأن دلالة التاليف لا تنتهى ، واختلاف العبارة عن المعنى الواحد ، وتغير الهيئات عليه يجعل منه معانى مختلفة ، وان كان فى أصله معنى واحدا .. الى آخر ما ستقف عليه من كلامهم فى (باب الاتباع) فلا سبيل مع هذا إلى رميهم بفساد الذوق أو العصبية على المحدثين ، أو الجهل بطبيعة فن الشعر كما رمى بهذا حواشى أهل العلم بالشعر ، وعبيد الهوى ، ولابد لما قالوه من وجه وقد نظرت فيما قالوه فقوى عندى أنهم قالوا عن رأى فى (الأصالة الشعرية) ، وما فيها من إرث وكسب ، كأنما فطنوا إلى أن الشاعر الذى يتاخر زمنه ، ويسبقه غيره لا تكون إجادته كسبا محضا ، ولا إبداعا صرفا ، بل تكون مزيجا من كسب يكسبه بقوة ملكته ، وأصالة موهبته وطول دربته ، ومعاناته القريض ، وإرث يرثه من إجادات الفحول قبله ، وإحسان المحسنين السابقين عليه .

---

(١٧٨) الوساطة : ٥٢ ، ١٧١ .
(١٧٩) عيار الشعر : ١٥ ، والوساطة : ٥٣ .

وهــذا هو ما يقول به أصحاب النظرية الاجتماعية فى تفســير الإبداع الأدبى ، إذ يرون أن الأصــالة الخالصة التى لا يدين صــاحبها لأحــد قبله بشىء لا وجود لها ، وأن فى إبداع كل مبدع وإحســان كل محسن قدراً يرجع إلى غيره ، قل ذلك أو كثر .. ومنهم من يغلو فى مقدار ما فى أصالة الأديب من الموروث فيقول : إن « أكثر الكتاب أصالة هو إلى حــد بعيد راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة ، وثلاثة أرباعه !! مكون من غــير ذاته »(١٨٠) فإذا كان أكثر الكتــاب أصالة ثلاثة أرباعه من غيره ، فكيف بمن دونه ؟! .

وهذا الذى قيل عن الكتاب يصدق على الشعراء أيضــا ، وهو فى الشعر العربى القديم ألزم لمكان الرواية فيــه ، وموضع الحفظ منه ..

وحين أقول : إن حذاق النقاد من العرب قد فطنوا إلى أن الأصالة الشعرية مزيج إرث وكسب ، وأن أصالة الشاعر المحــدث كسب مؤسس على إرث . فإننى لا أحمل عليهم ما لم يقولوه ولا أنسب إليهم ما لا يدل عليــه كلامهم وحد إلى تأمل قول ابن طباطبا : إن فى أشــعار المولدين عجائب استفادوها ممن تقدمهم ، وتلطفوا فى تناولها حتى سلمت لهم ، وقول الآمدى : إن المحدثين من الشعراء العرب قد ورثوا فطن الأوائل وبنوا على بنائهم .. ولابن طباطبا كلام فى موضع آخــر ، هو أقوى دلالة ، قال : إن المذهب الأقوى فى صنعة الشعر أن يديم الشاعر النظر فى الأشــعار المختارة ، والقصائد المنتخبة فتلتصق معــانيها بفهمه ، وتستقر أصولها فى قلبه ، وتصير مادة لطبعــه فمتى قال الشعر سرت عصارة ذلك فى شعره ، وكانت لقاحا لفكره وخاطره فيكون شعره حينئذ

---

(١٨٠) مقال لانسون منهج البحث فى تاريخ الأدب : كتاب النقــد المنهجى عند العرب : ٤٠٢ .

أشبه شيء بسبيكة مفرغة من جميع أصناف المعادن ، أو ماء أمدته سيول جارية من شعاب شتى ، أو طيب طيِّب تركب من أخلاط طيب » وضرب المثل بما حكى عن خالد بن عبد الله القسرى قال - وقد سئل عن السبب في قوة بيانه ، وجيشان لسانه - : « حفظنى أبى ألف خطبة ، ثم قال لى : تناسها ، فتناسيتها ثم لم أرد بعد ذلك شيئا من الكلام إلا سهل علىّ »(١٨١) .

ذلك إذن هو الوجه الذى من أجله قدموا طبقة القدماء جملة على طبقة المحدثين جملة . لأن المحدثين ورثوا فطن الأوائل ، وبنوا على قواعدهم وأخذوا رحيق كلامهم . وينبغى الا يوقف عند حدود ما ظهر ونادى على نفسه من معانى السابق فى شعر اللاحق ، بل يتعدى ذلك إلى ما خفى واستتر ، استتار ما فى العسل من رحيق الزهر ، لأن المعنى يفتح باب المعنى ، والحسن يهدى إلى الحسن ، وإن خفى ما بينهما من نسب وسبب ، وهذا معنى لم يغب عنهم أيضا(١٨٢) . هذا وتقديمهم الأوائل إجمالا لسبقهم إلى المعانى ماض على الأصل الذى أصلوه ، وهو أن السبق فضيلة للسابق إلى المعنى ، وإن زاد عليه الذى نازعه إياه ، لأن السبق هو الفضيلة العظمى ، وقد تقدم القول فى هذا ، وفى بيان وجهه(١٨٣) .

وههنا موضع من النظر دقيق ، وهو أن تقديمهم الأوائل من الشعراء على المحدثين إجمالا شيء ، وأن يكون كل ما قاله الأوائل من الشعر أجود من كل ما قاله المحدثون من الشعر شيء آخر ، ولا يخلط

---

(١٨١) عيار الشعر : ١٦ .
(١٨٢) راجع الصناعتين : ١٩٨ ، والوساطة : ١٦١ .
(١٨٣) انظر ص ٥٢ .

بينهما . وقد علمت أن من أصول نظرية الابتداع والاتباع عندهم أن السبق فضيلة للشاعر لا للشعر ومزية فى القائل لا فى القول ، وهم إنما قدموا الأوائل من الشعراء على المحدثين لسبق الأوائل إلى المعانى .. وربما كان أبو عثمان الجاحظ من أقدم من نبه على ذلك فإنه لما ذهب إلى أن عامة أهل البدو من العرب والأعراب أشعر من أهل الحاضرة قال: وليس ذلك بواجب لأهل البدو فى كل ما قالوه ، ثم نبه عليه ابن سنان الخفاجى من بعد فقال : إن سبق الأوائل من الشعراء إلى المعانى عند من يقول به يثبت لهم الفضل على المحدثين ، ويوجب لهم التقدم عليهم . ولكن لا يدل على أن كل ما قاله الأوائل من الشعر يلزم أن يكون أجود من كلّ ما قاله المحدثون .. (١٨٤)

ويدل على أخذهم بهذا الأصل أنهم أوردوا كثيرا من المعانى التى نازع فيها المتأخر المتقدم ثم حكموا للمتأخر بأنه الأجود شعرا وقدموا شعره على شعر من أخذ منه ، وهو صلب باب الاتباع فى الشعر كما سترى ، ويدل على ذلك أيضا أنهم حين طبقوا المعانى جعلوها ثلاث طبقات : طبقة المعانى التى يسبق إليها الأول ثم ينازعه فيها اللاحق فيستحقها بما زاد فيها ، وأحسن ، وطبقة المعانى التى وقعت للمتأخر وقد أغفلها المتقدم وذهل عنها وطبقة المعانى التى توافى عليها المتقدم والمتأخر ، واقتسما الإحسان فيها فكانا شريكى عنان ، ورضيعى لبان(١٨٥) . كل هذا وغيره مما يشبه دليل على أن مفاضلتهم بين طبقات القدماء والمحدثين إجمالا باب ، ومفاضلتهم بين المعانى الشعرية على أساس نعوت الألفاظ والمعانى باب غيره .

---

(١٨٤) انظر سر الفصاحة : ٢٧٣ .
(١٨٥) انظر إعجاز القرآن للباقلانى : ١٨٣ .

وشىء آخر وهو أنه لما كان الشعراء الذين سبقوا يتفاوتون فى الانتفاع بما ورثوه من فطن من سبقهم ، وفيما يبتدعونه هم لتفاوتهم فى قوة الطبع ، وسلامة الملكة ، ونفاذ الفطنة = وقع التفاوت بين مراتبهم فكان منهم العاجز الطبع ، الناقص الاداة الذى يغير على معانى الشعراء قبله فيمضغها مضغ الأدرد ، ويخرجها فى أوزان مخالفة لأوزان ما أخذ ، وربما ظن أن تغيير الوزن ، وبعض اللفظ يستر سرقته ، ويخفى عواره . وكان منهم من يحسن هضم الأشعار المختارة ، والقصائد المنتخبة ثم تسرى عصارتها فى شعره ، وتكون لقاحا لخاطره ومادة لطبعه(١٨٦) .. وكان منهم من يقع بين بين .. ومن هنا تفاوتت مراتب الاتباع والأخذ ما بين اتباع عال فذ ، واتباع قصير الخطو ، قريب النزع ، وسرقة عاجزة أو محاكاة بليدة .. كما سترى فى مبحث الاتباع الشعرى ومراتبه .

من كل ما تقدم ترى أن مسألة القدماء والمحدثين كانت عند حذاق النقاد القدماء - من بعض وجوهها - بحثا فى لب الأصالة الشعرية ، وغوصا إلى أعماق صنعة الشعر من حيث ابتداع المعانى أو أخذها وتوليدها ، وقد عرضت لى هذه المسألة عند هذا الموضع من البحث فقلت فيها بما حضرنى وأراها تتسع لنظر أعمق وفهم أدق .

وفيما أوردت هنا دلالة أخرى وهى أن نظر النقاد القدماء فى مسألة الابتداع والاتباع لم يقف عند حدود البيت والبيتين ، أو المعانى المفردة ، والأبيات المنتزعة من قصائدها ، وإنما تجاوزوا هذا إلى رؤية أعم فى الابتداع والاتباع . وإذا أضفت إلى ما تقدم ما قالوه من مثل قولهم : إن بعض الشعراء كان يتوكؤ على بعض من سبقه ، ويطرد

---

(١٨٦) انظر عيار الشعر : ١٦ ، العمدة ١/٧٤ .

معانيه ، وقولهم : إن بعض الشعراء كان رأس مذهب اتبع فيه كما قالوا فى زهير ، وقولهم إن بعض الشعراء قد أكثر الابتداع فى باب من أبواب الشعر حتى صار فيه إماما متبوعا كما قالوا فى امرىء القيس فى نعت الفرس ، وأبى زبيد الطائى فى وصف الأسد .. وغيرهما ، وقولهم : إن بعض الشعراء قد سبق إلى ابتداع طرائق فى التشبيه والاستعارة اقتدى به فيها كما قالوا فى امرىء القيس وأبى نواس وغيرهما .. = أقول : إذا أضفت هذا كله ، وما هو من جنسه إلى ما قالوا فى قضية القدماء والمحدثين عرفت أن رؤيتهم فى الابتداع والاتباع قد اتسعت لتشمل المعانى المفردة ، وأبواب الشعر أو أغراض القول ، والمذاهب الشعرية ، وطرائق التصوير الشعرى ، وطبقات الشعراء إجمالا إلى غير ذلك ..

* * *

الفصل الثانى





- ١ -

جرى الأمر فى مصطلح « الاتباع » على مثل ما جرى عليه فى مصطلح « الابتداع » ، فكما انهم لم يلتزموا لفظا بعينه للدلالة على ابتداء الشاعر معنى لم يسبق إليه فقالوا : ابتدع المعنى ، وأبدعه ، وسبق إليه ، وابتكره ، وابتداه ... الخ لم يقفوا أيضا عند لفظ واحد فى الدلالة على متابعة شاعر لآخر فى معنى ابتكره ، ومزاحمته فيه ، فقالوا : تبع ، واتبع ، واخذ واحتذى ، واشتق ، وزاحم ، وتناول ، وشارك ، وولد ، واقتفى واستمد ، واستعان ، وتوكا ... والفاظا اخرى تجرى هذا المجرى والعلة فى هذا هى ما قلته فى أول فصل الابتداع من أن القوم لم يكن من عنايتهم توحيد المصطلح ، وإنما كانوا يطلقون الالفاظ على أساس دلالاتها اللغوية ، فمن وقف على مواضعاتهم اللغوية سهل عليه ادراك مقاصدهم ومرامى كلامهم(١) .

وكما ان الفاظهم الدالة على معنى الابتداع لم تكن على درجة واحدة من حيث دورانها فى كلامهم ، وشيوعها على السنتهم ، بل غلبت الفاظ وكثرت ، وقلت اخرى وغلبت ، وكان لفظا « الابتداع » و « السبق » اغلب الفاظهم فى المعنى ، واكثرها دورانا = كذلك كان الأمر فى معنى « الاتباع » ، وكان أكثر الفاظهم ورودا فيه لفظان : « الاتباع » و « الاخذ » . ولفظ « الاتباع » خاصة من أقدم الفاظهم وأكثرها دورانا ، ويرد فى سياقات الكلام فى الأدب وفى غيره مقابلا للفظ « الابتداع » .

---

(١) راجع ما سبق ص ٤٧ .

واقدم ما وقع لى فى هذا فى غير الأدب قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، « **إنما أنا متبع ، ولست بمبتدع** »(٢) . وأصل الاتباع فى اللغة الاقتفاء ، وأخذ الأثر تقول : اتبعت الرجـل أو الشىء ، وتتبعته إذا قفوته ، وأخذت فى اثره ، والتابع : التالي ومنه سمى الظل تبعا لأنه يتبع صاحبه(٣) .

وأقدم النصوص النقدية التى ورد فيها لفظا « الاتباع » و « الأخذ » قول أبى نواس (١٩٨هـ) حين عاب عليه عمرو الوراق أخـذ معنى من معانى النابغة الذبيانى : « اسكت ، **فلئن كان سبق فما أساء الاتباع** »(٤) وقول رجل معـاصر لدعبل بن على وزعم له دعبل أن أبا تمـام يطرد بعض معانيه ويأخذها : « لئن كان سبق بهذا المعنى **فتبعته** فما أحسنت ، وإن كان **أخذه منك** لقد أجاد فصار أولى به منك »(٥) . وقول البحترى (٢٨٣هـ) - وقد قيل له : إنك أخذت هـذا المعنى من أبى تمام - : مايعاب عكى أن **آخذ** منه ، **واتبعه** فيما يقول »(٦) . فانت ترى أن مصطلحى « الاتباع » و « الأخذ » بمعناهما الفنى جاريان على السنة نقاد الشعر منذ منتصف القرن الثانى الهجرى ، أو قريبا منه ، وانهما يردان فى مقابلة مصطلح « السبق » . وإذا تأملت النصوص النقـدية لنقاد القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ما أثبته فى هـذا الفصل وما لم أثبته عرفت أن لفظ « الاتباع » قد شـاع فى كلامهم ، وغلب على

---

(٢) منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لمجد الدين بن الأثير : ٢٧٣ .
(٣) راجع العين : ٢/٧٨ ، واللسان : (تبع) .
(٤) دلائل الاعجاز : ٣٢٦ .
(٥) الصناعتين : ٢١٣ .
(٦) اعجاز القرآن للباقلانى : ١٠٥ .

السنتهم حتى بلغ مبلغ المصطلح ، وأنه كان يرد أكثر ما يرد مقابلا للفظ « الابتداع » ويردان فى العبارة الواحدة ، وقد يسر ذلك ما بين الكلمتين من توازن لفظى .

وإنما نؤرخ هنا للفظ « الاتباع » متى استعمل ؟ ، أما ما يدل عليه اللفظ من معنى فإنه لم يكن غائبا عن نقاد الطبقة الأولى ، اذ هو مفهوم ضمنا من مقالتى عمر وعلى رضى الله عنهما فى سبق امرىء القيس وتقدمه ، وخسفه عين الشعر لمن بعده(٧) ، وهما أقدم كلام صريح بلغنا فى قضية « الابتداع والاتباع » ، بل هو مفهوم ضمنا من قول حسان :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعرى

والاشارة فى البيت إلى مزاحمة الشعراء بعضهم لبعض فى المعانى وأخذ بعضهم عن بعض قوية ظاهرة .

- ٣ -

عرفت أن الابتداء الفائت ، والابتداع الميئوس منه ، الذى يغلقه الشاعر على من بعده أو يكاد = نادر قليل ، لا يصاب إلا فى اللمعة العزيزة من شعر الشاعر العبقرى ، وأن الابتداع الولود الذى يقبل التلقيح والتوليد هو الأكثر ، والأعم الأغلب فى معانى الشعر ، وهذا يعنى أن جل معانى الشعر دوارة ، قلب يتنازعها الشعراء ، ويولدونها ، ويصرفونها فتطاوعهم ، وتعطيهم إذا أحسنوا التأتى لها .

وهذا أصل تنبه إليه نقاد العرب القدماء فى قضية الابتداع والاتباع ، ودل عليه كلامهم ، وبه عرف أن الشاعرية ليست عندهم فى ابتداء المعانى فقط وأن كل ما سبق إليه المعانى ترك ، بل هى أيضا فى توليد المعانى التى سبق إليها ، وتصريفها بوجوه من التصريف الحسن .

---

(٧) سبق ايرادهما هنا ص ٤٥ .

وتوليد المعانى ، وتصريفها هى دائرة الاتباع الحسن ، وهى المضمار الأعظم فى صنعة الشعر ، والميدان الأرحب الذى تتبارى فيه القرائح وتسخو ، ويتوالد فيه الإحسان ويربو . فالشعر العالى قسمة بين السبق الفائق ، والاتباع المبدع ، لا يكاد يخرج عن هذا ، ولا تعبر العبقرية الشعرية عن نفسها إلا من هذين الوجهين . قال ابن رسيق : إن الشاعر إذا لم يكن عنده اختراع معنى ، أو توليده ، أو زيادة معنى أجحف فيه غيره ، أو اختصار لفظ أطاله سواه ، أو صرف معنى من وجه إلى وجه آخر ، لم يكن شاعرا وكان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة (٨) .

وقد رأيت أن أجمع عند هذا الموضع من البحث طائفة من صريح نصوص القدماء فى الاتباع الشعرى ، يستدل بها على قوة معرفتهم به ، وقدم إدراكهم له ، وتفريقهم بين صوره وحالاته ، وتصحح بعض ما رموا به فى هذا الباب ، وتكون هذه النصوص مادة رواية لما نستنبطه ونسوقه فى سائر حديثنا عن الاتباع الشعرى ، وقد نسقت هذه النصوص على ترتيبها التاريخى ، الأقدم فالأقدم .

١ - أقدم نص وجدته قول أبى الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لولا أن الكلام يعاد لنفد »(٩) يريد - فيما فهمت - أن الأصل فى المعانى أنها تتوالد ، وتقبل العبارة الثانية ، وأن الكلام يعاد تصريفه وتصويره ، وأن الفكرة لو كانت لا يعبر عنها إلا من وجه واحد ، وبعبارة واحدة لا تقبل غيرها لنفد الكلام ، ومات البيان ، وجفت الألسنة ، ولهذا عقب ابن رشيق على عبارة على رضى الله عنه بقوله :

---

(٨) راجع العمدة : ٩٦/١ .
(٩) الصناعتين : ١٩٦ .

« فليس أحدنا أحق بالكلام من أحد »(١٠) . فإن كان ما فهمته من العبارة صحيحا ، فهى أصل لكل ما قيل بعدها فى توليد المعانى ، واستجداد العبارة عنها ، وتصريف العبارة والنظم ولا تستكثرن على أبى الحسن أن يفطن إلى مثل هذا المعنى اللطيف ، فما ذلك عليه بغريب ولا كثير ، فهو فصيح لسن ، بصير بمواقع الكلام وصنعة القول : حدث عن نفسه فقال : « ها . إن ها هنا علما ـ وأومأ إلى صدره ـ لو أصبت له حملة »(١١) . وحدث عنه عكرمة فقال : « كان على أعلم بالمهيمنات ـ أى القضايا ـ »(١٢) .

٢ ـ وروى عن بشار (١٦٧هـ) أنه لما قال :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات اللاهج الفتك

أخذه تلميذه ، سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

فسار بيت سلم لخفته ، وقلة الفاظه ، فغضب لذلك بشار ، وقال : « يعمد إلى معانى التى أسهرت فيها ليلى ، وأتعبت فيها فكرى ، فيكسوها لفظا أخف من لفظى ، فيروى شعره ويترك شعرى ؟! »(١٣). فقول بشار : « فيكسوها لفظا أخف من لفظى ... إلخ دليل على إدراكه معنى الاتباع المشروع ، الذى يمتلك فيه الشاعر المتبع معنى سبق اليه ،

---

(١٠) والعمدة : ٧٤/١ .
(١١) النهاية فى غريب الحديث والاثر : ٢٣٧/٥ . وفسر ابن الأثير (ها) مقصورة بأنها كلمة تنبيه للمخاطب ينبه بها على ما يساق اليه من الكلام ، وقد يقسم بها فيقال : لا ها الله ما فعلت .
(١٢) السابق : ٢٧٦/٥ .
(١٣) المنصف : ١١ .

بوجه من وجوه الامتلاك ، ويستحقه بوجه من وجوه الاستحقاق . ومن تأمل البيتين عرف وجه إحسان سلم فى اتباعه ، وإن كان فضل السبق لبشار ؛ وذلك أن سلما حور اللفظ واختصر منه ، من غير أن ينتقص من المعنى ، فقوله : مات غما أبلغ فى المعنى ، وأوجز فى اللفظ من قول بشار : لم يظفر بحاجته وقوله : الجسور أوجز فى اللفظ من قول بشار : اللاهج الفتك مع سلامتها من التكرار . وقد عرف بشار ذلك ، وهو بصنعة الكلام بصير ، ولذا غضب غضبته ، وأبى أن يقبل فى سلم شفاعة .. ولولا هذا لتركه ولم يلتفت اليه . ومما يوقف عنده من كلام بشار قوله : « أسهرت فيها ليلى ، وأتعبت فيها فكرى » فإنها تضاف إلى جملة ما سردته قبل من النصوص الدالة على أن نظرية الشعر عند العرب مؤسسة على أن الشعر فطنة ومكابدة ، لا إلهام وتلق .

٣ - وقد أوردت قبل لأبى نواس (١٩٨هـ) عبارة(١٤) تدل صراحة على معرفته بالاتباع الحسن فى صنعة الشعر ، وأبو نواس تلو بشار و آخذ عنه .

٤ - وقال أبو عثمان الجاحظ (٢٥٥هـ) - رحمه الله - : « نظرنا فى الشعر القديم والمحدث ؛ فوجدنا المعانى تقلب ، وبعض يأخذ من بعض . وقل معنى من معانى الشعر القديم تفرد بإبداعه شاعر إلا ورأيت من الشعراء من زاحمه فيه ، وأشتق منه شيئا » وعد من هذا القليل أبيات عنترة فى نعت الذباب وأبيات أبى نواس السينية المشهورة

---

(١٤) هذا البحث ص ١٢٤ .

في صفة الخمر ، ومجلسها وكؤوسها(١٥) ، وعبارة أبي عثمان أتم في بيان معنى الاتباع في الشعر من كل ما وجدت قبلها مما وقع لي فقوله : « نظرنا في الشعر القديم والمحدث فوجدنا ٠٠ » يدل على أن فهمه للاتباع الشعري لم يبن على نظر عقلي مجرد ، أو افتراض فلسفي بحت ، وإنما على استنباط من واقع صنعة الشعر العربي : قديمه وحديثه حتى عصره ، وهذا منحى نقدي تطبيقي يؤخذ فيه الرأى من معدنه ، ويحكم فيه على الشعر من الشعر ٠ وقوله : « فوجدنا المعاني تقلب ، ويأخذ بعض عن بعض ٠٠٠ إلى آخر كلامه » ٠ دليل على ما قلته من أن نظرية الشعر عند العرب مبناها على أن أكثر المعاني المبتدعة يقع فيها التنازع ، وقليل فيها الميئوس منه ، المتروك لقائله ، وأن معاني الشعراء دوارة ، قلب تولد ، وتصرف ٠

٥ - وقال أحمد بن أبي طاهر (٢٨٠هـ) : « وكلام العرب ملتبس بعضه ببعض ، وآخذ أواخره من أوائله ، والمبتدع منه والمخترع قليل إذا تصفحته وامتحنته ٠٠٠ ومن ظن أن كلامه لا يلتبس بكلام غيره فقد كذبه ظنه ، وفضحه امتحانه ، ولو نظرنا في معاني الشعر والبلاغة حتى نخلص لكل شاعر بليغ ما انفرد به من قول ، وتقدم فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ولا بعده لألفى ذلك قليلا معدودا ونزرا محدودا »(١٦) وهذا نص دال بين وهو يشبه كلام أبي عثمان قبله ٠

٦ - وقيل لأبي عبادة البحتري (٢٨٣هـ) أخذت معناك هذا من أبي تمام فقال : « ما يعاب على أن آخذ منه ، وأتبعه فيما يقول »(١٧) ٠

(١٥) الحيوان : ٣١١/٣ ٠
(١٦) حلية المحاضرة : ٢٨/٢ ٠
(١٧) اعجاز القرآن للباقلاني : ١٠٥ ٠

وعبارة البحترى مجملة غير محكمة ، ولكنها تتاول على أنه يرى أن الاتباع ليس عيبا كله ، وأن منه حسن سائغ ، ومشروع لا يعاب صاحبه ، ومنه سيء غير سائغ ولا مشروع يعاب فاعله ، وهذا هو تقسيم الاتباع الشعرى عندهم كما سترى ، وهو مفهوم من كلام أبى نواس ، وبشار قبله .

٧ - وقال يحيى بن على المنجم (٣٠٠هـ) : « وحق من أخذ معنى ، وقد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعه السابق إليه ، أو يزيد فيه عليه حتى يستحقه . فأما إذا قصر عنه فإنه مسيء ، معيب بالسرقة مذموم بالتقصير »(١٨) . وعبارة يحيى ظاهرة المعنى ، بينته ؛ فهى تفرق صريحة بين اتباع الصانع ، وأخذ السارق العاجز ، وتوجز حسن الاتباع فى صنعة المعنى المسبوق إليه صنعة أحسن ، والزيادة فيه ، وتلصق وصف السرقة ، والعيب والذم والتقصير بالآخذ المقصر وحده .. وهذا هو الأصل الذى جرى عليه النقاد العرب القدماء فى تحديد معنى الاتباع الحسن ، والتفريق بينه وبين السرقة المذمومة .

٨ - وقال ابن طباطبا العلوى (٣٢٢هـ) : « وإذا تناول الشاعر المعانى التى قد سبق إليها ، فأبرزها فى أحسن من الكسوة التى عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه ، وإحسانه فيه »(١٩) . فجاء ابن طباطبا بمثل عبارة يحيى المنجم ، أو بما يشبهها ، والرجلان متعاصران ، أو كالمتعاصرين وكان ابن طباطبا عارفا بما يصنعه المتبع المحسن من الشعراء ؛ فقد شبهه فى موضع آخر بالصائغ الذى يذيب ما صاغه غيره

---

(١٨) الموشح : ٤٥١ .
(١٩) عيار الشعر : ٧٦ .

من حلى الذهب والفضة ، ثم يعيد صوغها على صورة جديدة ، وبأحسن مما كانا(٢٠) .

٩ - وقال المرزبانى (٣٨٤هـ) : « ولا يعذر الشاعر فى سرقاته ، حتى يزيد فى إضاءة المعنى ، أو يأتى بأجذل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير إليه »(٢١) وليس فى كلام صاحب الموشح زيادة على من تقدمه غير أنه استعمل لفظ « السرقة » فى معنى لفظ « الاتباع » وساعود إلى هذه المسألة .

١٠ - وقال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (٣٩٢هـ) : « والسرق - أيدك الله - داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد الذى صدرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوز ذلك قليلا فى الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة ، والتأكيد ، والتعريض فى حال ، والتصريح فى أخرى ، والاحتجاج والتعليل ، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله »(٢٢) .

وقال فى موضع آخر : « وتشترك الجماعة - أى من الشعراء - فى الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب ، أو ترتيب

---

(٢٠) السابق : ٨١ .
(٢١) الموشح : ٣١٢ .
(٢٢) الوساطة : ١٧٠ .

يستحسن ، أو تأكيد يوضح موضعه ، أو زيادة اهتدى إليها دون غيره ، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع »(٢٣) .

وأنا أرى شبها بين نص القاضي الأول ، وبين عبارة الجاحظ وكأنما أخذ القاضي فكرة أبي عثمان فزادها تأملا ونظرا فاتسعت له ، وأعطته من المعنى بقدر ما أعطاها من النظر ، فقوله : « وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه » قوى الشبه بقول الجاحظ : « نظرنا في الشعر القديم والمحدث ، فوجدنا المعاني تقلب ، وبعض يأخذ من بعض » ، وكأنما إشارة الجاحظ إلى وجود ظاهرة الأخذ والاتباع في شعر القدماء والمحدثين جعلت القاضي يتأمل فرق ما بين الطبقتين في هذا الباب فذهب إلى أن اتباع القدماء كان تواردا ، أو أخذا ظاهرا لا يكاد يخفى ، وأن المحدثين أخفوا أخذهم ، وافتنوا في إخفائه ، وأحسنوا الاتباع حتى بات أحدهم يأتي في المعنى المأخوذ بما لا يقل حسنا عنه مخترعا مبتدعا . وذهب القاضي مذهب المرزباني فعبر عن الاتباع بالسرق ، وجعله داء قديما ، وعيبا عتيقا ، وهذا مما قد يعترض به على ما أثبته من أن الاتباع الحسن هو المضمار الأعظم في صنعة الشعر ، وأنه مما لا يعاب على الشاعر ، ولكن إذا جمع آخر نص القاضي وأوله ، وعجز كلامه وصدره وتؤمل قوله في الشاعر الذي يأخذ المعنى فيضيف إليه ما يكون به في مثل مرتبة مبتدعه ومخترعه = علم أن ليس كل أخذ عنده سرقا ، وأن كل اتباع ليس عنده معيبا ، وأنه كغيره من النقاد في التفريق بين اتباع الصانع الماهر ، وأخذ السارق العاجز .

---

(٢٣) السابق : ١٨٦ .

وقد زاد القاضى فى نصه الثانى أصلا آخر فى هذا الباب ، وهو أن المعنى المشترك ، الذى ابتذل وشاع ، فتساوت فيه الأقدام قد يصيره الشاعر الحاذق بلطف الصنعة مختصا ، ويريكه مخترعا مبتدعا ، فيخرج المعنى الحى من المعنى الميت ، وتدور دورة الحياة فى معانى الشعر كما تدور دورتها فى الأحياء .

١١ - وقال أبو هلال العسكرى (٣٩٥هـ) : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم »(٢٤) . وهذا شبيه قول الجاحظ ، والقاضى الجرجانى .

١٢ - وقال الشريف المرتضى (٤٣٦هـ) : « ومع الاشتراك فى المعانى يقع الإحسان فى حسن النسج ، وسلامة السبك ، وأن تكون العبارة عن ذلك المعنى ناصعة ، وفى القلوب متقبلة »(٢٥) ، وقال : « فالخواطر مشتركة ، والمعانى معرضة لكل خاطر ، جارية على كل هاجس »(٢٦) .

وقال : « ومن عبر عن معنى متداول بأحسن عبارة وأبلغها ، فكأنه مبتدئه ومنشيه ، وما يضره أن سبق إليه ، إذا كان منفردا بإحسان العبارة عنه فحظ العبارة فى الشعر أقوى من حظ المعنى »(٢٧) .

---

(٢٤) الصناعتين : ١٩٦ .
(٢٥) طيف الخيال : ٢٣ .
(٢٦) السابق : ٦٣ .
(٢٧) نفسه : ١٠٤ .

والشريف المرتضى ممن شغلته مسألة الابتداع والاتباع فأعاد القول فيها مرارا فى « أماليه » وفى كتابيه « طيف الخيال » و « الشهاب فى الشيب والشباب » ، وهو يبين فى نصه الأول وجه الإحسان فى الاتباع ، وفى نصه الثالث قانون التوارد ، وتنازع المعانى ، ويعبر فى النص الثالث عما عبر عنه فى الفصل الأول ، ويعيد ما قاله القاضى الجرجانى من أن المتبع المحسن قد يبلغ درجة المبتدىء المنشىء ، ثم يصرح بعلة ذلك ، وهى أن الشعر تعبير ، وأن خطر العبارة فيه أقوى ، وهذا رأى مأخوذ به عند القدماء .

١٣ - وقال ابن رشيق القيروانى (٤٦٣هـ) : « والمخترع معروف له فضله ، متروك له من درجته ، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده ؛ بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزا أو يبينه إن كان غامضا ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا ؛ فهو أولى به من مبتدعه .

وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجهه إلى وجه آخر . فأما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ، فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه ، وسقوط همته ، وضعف قدرته »(٢٨) وهذا من أجمع نصوص هذا الباب ، وأولى به أن يوصف بأنه عمود نظرية الابتداع والاتباع فى النقد العربى القديم ، جمع فيه ابن رشيق ما تفرق فى كلام النقاد قبله ، ونظمه فى نص واحد ، فذكر ابقاء فضيلة الاختراع للسابق المخترع ، وهذا - كما عرفت - من أصول كلامهم فى الابتداع والسبق ، وذكر الوجوه التى يحسن من جهتها المتبع ، وقد سبقه إلى الحديث عنها - ممن نقلنا كلامهم - بشار ويحيى بن علي

---

(٢٨) العمدة : ٢٧٤/٢ .

المنجم ، وابن طباطبا ، والمرزبانى ، والقاضى الجرجانى ولكنه فصل فيها كما لم يفصلوا وأشار إلى أن المتبع المحسن أولى بالمعنى ممن ابتدأه فقصر ، لأن قانون المفاضلة فى الشعر إنما هو الجودة وحسن الصنعة ، وهذا أصل آخر من أصول كلامهم فى هذا الباب ، ثم ذكر أخيراً مراتب الاتباع وجعلها ثلاثا : الاتباع مع الاحسان ، والاتباع مع مساواة المتبع للمبتدع ، والاتباع مع التقصير ..

١٤ - وقال عبد القاهر الجرجانى (٤٧١هـ) : وقال بعض القدماء : « إن من أخذ معنى عاريا فكساه لفظا من عنده كان أحق به » ثم فسر مرادهم باللفظ هنا بأنه « عبارة عن صورة يحدثها الشاعر أو غير الشاعر للمعنى »(٢٩) ، وعبد القاهر هو ترجمان كلام الأوائل ، وفاض مغاليقه ، ولولا تفسيره لمرادهم باللفظ فى هذا النص وأشباهه ما عرفنا المراد به . وإذا كان الشيخ لم يصرح هنا بمن نقل عنهم فإن كلامه ناظر إلى كلام ابن طباطبا ، والشريف المرتضى ، والقاضى الجرجانى الذى نقلته آنفا ، وإن كان أشبه شيء بكلام المرتضى .

١٥ - وقال ابن أبى طاهر محمد بن حيدر البغدادى (٥١٧هـ) فى رسالته : (قانون البلاغة) : « والمعانى - أسعدك الله - لمع ، والألفاظ مشتركة ، فمن سبق إلى معنى ثم جاء بعده من يتعاطاه ، فإن أخذه بلفظه كما هو كان سارقا ، وإن أخذه ببعض لفظه كان سالخا ، وإن أخذه وكساه من عنده كان أولى به من الأول .

ويقال : إن أبا عذر الكلام من سبك لفظا على معنى ، لا من أخذ معنى بلفظه ، وقلما تجد شعر شاعر ، أو رسالة كاتب ، أو خطبة

---

(٢٩) دلائل الإعجاز : ٣١٢ .

خطيب إلا وجـدت فيـه معنى مسبوقا إليـه ، ولفظـا مشهورا قبله »(٣٠) .

١٦ - وفى كلام طويل جدا يقسم أبو الحسن حـازم القرطاجنى (٦٨٤هـ) المعـانى إلى ثلاثـة أضرب : ضرب يرتسم فى كل فـكر ، ويتصور فى كل خاطر ، وضرب يكون ارتسامه فىبعض الخواطر دون بعض ، وضرب لا ارتسام له فى خاطر ؛ وإنما تتهدى إليه بعض الأفكار فى وقت ما استنباطا ، فالأول هو الكثير الشائع ، والثانى هو القليل أو الأقرب إلى القليل والثالث هو النادر الذى عدم نظيره . والقسـم الأول لا سرقة فيـه ولا حجر فى أخذ معـانيه لأنه شائع لا فضل فيـه لأحـد على أحد ، ويقع الاتباع الحسن والسرقة فى القسمين الثـانى والثالث لأن المتبع إذا أخذ معنى السابق فلم يصنع فيـه صنعة ، ولم يزد فيـه حسنا كان ذلك سرقة لا يتسامح فيها ، فإذا ركب التالى على معنى المبتدىء معنى آخر ، أو زاد فى معناه زيادة حسنة ، أو نقل المعنى إلى موضع هو أحق به من الموضع الذى هو فيـه ، أو قلبه وسلك به مسلكا يغاير مسلك الأول ، أو ركب عليه عبارة أحسن من عبارة الأول أو نحو ذلك من مذاهب إحسان الصنعة ، فذلك هو الاتباع السائغ فى الشـعر ، الذى لا حرج فيـه على الشاعر المتبع . ومع حسن الاتباع فى المعـانى المختصة يكون الفضل قسمة بين السابق المبتدع واللاحق المتبع ، فللأول فضل الاختراع والابتكار ، وللثانى فضل تحسين العبارة ، وجـودة الصنعة .. هذا إذا كان الحكم للشاعرين ، فإذا كنا نحكم على المعنى نفسه ، فالحكم للمعنى التالى لأن التقدم والتأخر لا يؤثر فى المعنى

---

(٣٠) رسالة قانون البلاغة ضمن رسائل البلغاء : ٤٣٠

شيئا ، وإنما ترجع فضيلة التقدم إلى الشاعر لا الشعر ، وإلى القائل لا المقول فيه(٣١) .

وهذا اجمال قضية الابتداء والاتباع برمتها ، أجملها حازم وهو وارث كلام سلفه من أهل العلم بالشعر . ويرى حازم فى موضع آخر أن الشاعر البارع إذا اقتفى أثر من تقدمه وجب عليه أن يكون (مستجدا) (متأنقا) ، ويريد بالاستجداد أن يجتهد فى أن لا يواطىء من سبقه فى مجموع عبارته أو جملة معناه ، ويريد بالتأنق أن يطلب الشاعر الغاية القصوى من الإبداع فى ضم أجزاء العبارات والمعانى إلى بعض ، وتحسين هيآت الكلام فى كل ذلك ، لأن العبارة متى استجدت مادتها ، وتأنق الناظم فى تحسين هيئة تأليفها ، وقعت من النفوس بأحسن موقع ، وكذلك المعانى(٣٢) .

هذه طائفة من نصوص النقد العربى القديم نسقتها على تواريخ قولها الأقدم فالذى يليه ولعله قد بان منها أن القدماء فهموا معنى الاتباع فى الشعر فهما حسنا وجروا فيه على أصول مرضية .

والذى أراه - على ضوء ما عرضت من النصوص هنا وما تركت - أن فهمهم للاتباع فى الشعر ، صحيح ، قديم قدم ما بلغنا من نصوصهم ، وأن ليس للطبقات المتأخرة من نقاد العربية فى القرون الأخيرة إلا تفصيل ما أجمله الأولون ، وإظهار ما طوى فى كلامهم ، وكشف ما غمض منه ، ثم البناء على ما أسسوه ، والتفريع على ما أصلوا . وانظر فى عبارة على رضى الله عنه ، وعبارة بشار وأبى نواس ثم فى كلام

---

(٣١) راجع منهاج البلغاء : ١٩٢/١٩٣ .
(٣٢) راجع السابق : ٢١٦ .

ابن طباطبا والشريف المرتضى ، والقاضى الجرجانى ، وابن رشيق ، وعبد القاهر ، وحازم = تر صحة ما قلت ، فليس صوابا بعد هذا ان يقال : إن العرب لم يفرقوا بين السرقة وبين الاحتذاء إلا فى وقت متاخر وفى زمان عبد القاهر الجرجانى(٣٣) ، وأن يقال : ولا شك ان عبد القاهر وحده هو الذى فصل بين السرقة والاحتذاء(٣٤) . وقد عرفت أن التفريق بين السرقة وبين أخذ المعنى وتوليده ، واجادة صنعته (وهو ضرب من الاحتذاء) مفهوم من كلام بشار وابى نواس والبحترى ثم هو أبين واظهر فى كلام من بعدهم من النقاد الذين نقلت كلامهم .

والذى أراه أن نظرية العرب فى الابتداع والاتباع فى الشعر قد دخلت بهم إلى معترك صنعة الشعر ، وافضت بهم إلى قلب أسرارها ، وانتهت بهم إلى دقائق من البحث فى أصالة الشاعر وابداعه ؛ فلا يقال بعد هذا : إن القدماء لم يفهموا عملية الابداع الفنى - وهى عملية معقدة - على وجهها ، واكتفوا بنسبتها إلى الشياطين ، والآلهة !! بينما المحدثون هم الذين درسوها من حيث دوافعها ، وبواعثها ، واختلاف الشعراء فيما بينهم فى هذه الدوافع والبواعث(٣٥) . أو يقال: إن النقاد العرب لم يدركوا مفهوم التقليد من وجهة نظر الفن الجميل(٣٦) . وكم من أحكام رمى بها القدماء ، لقلة الصبر على

---

(٣٣) مشكلة السرقات فى النقد العربى القديم للدكتور هدارة : ٢١٩ ، ٢٢٠ وانظر ٢٢٢ .

(٣٤) السابق : ٢٣٩ .

(٣٥) انظر شياطين الشعراء لعبد الرازق حميدة : ١٨٥ نقلا عن بناء القصيدة لبكار : ٩٤ .

(٣٦) انظر مشكلة السرقات : ٢٧٣ .

تتبع احكامهم ، وجمع بعضها إلى بعض ، وحسن تاولها على وجه يصح ، ولأن بعض الدارسين لا يلتفت إلا إلى النصوص التى صرحت بمعناها ، ونادت على نفسها ، دون ما كان المعنى فيها وحيا ، واشارة إلى الخبىء ليعرف ، ومن المعروف أن اكثر كلام القدماء فى الشعر وبلاغته من النوع الثانى كما قال عبد القاهر .

- ٣ -

قسم نقاد العرب المعانى إلى : ما هو مشترك عام ابتداء ، وهو المعانى الاتفاقية مما هو مركب فى النفس البشرية تركيب الخلق كحسن الشمس ، ومضاء السيف ونحوهما ، وإلى ما كان فى أصله مبتدعا مخترعا ، وخاصا فردا ثم شاع وتدوول ، وأخذته الألسنة فخرج من الاختصاص إلى الاشتراك ، ومن الندرة إلى الشيوع كتمثيل الأطلال بحروف الكتابة ، والمرأة بالغزال ونحوهما .

وهم متفقون على أن القسم الأول لا يكون فيه ابتداع ، ولا اتباع ، ولا سرقة ، فلا يقال فى مثله مبتدع ، ولا متبع ، ولا مسروق ، وأن ما كان من القسم الثانى يقال لمبتدئه مبتدع مخترع لأنه كان فى أصله مختصا ، ولا يقال لمن أخذه - بعد شيوعه وابتذاله - متبع ولا سارق . ترى هذا فى كلام الآمدى والجرجانيين عبد العزيز ، وعبد القاهر ، وزاد حازم القرطاجنى بين الشائع والمختص قسما ثالثا وسطا لا هو شاع شيوع الأول ، ولا ندر ندرة الثانى وهو القليل فى نفسه أو بالنظر إلى كثرة ما عداه ، وجعل حكمه حكم الثانى من القسمين الأولين(٣٧) .

وزاد الجرجانيان : عبد العزيز وعبد القاهر زيادة بارعة حين قالا : إن المعانى الشائعة العامة - ابتداء أو لشيوعها بعد اختصاص -

---

(٣٧) راجع هذا البحث ص ١٣٦ .

والتى لا يدخلها التفاضل قد تولد ولادة جديدة ، وتدور فيها الحياة دورة أخرى إذا لحقتها صنعة ، أو عمل فيها نقش ، أو وصلت بها لطيفة .

قال القاضى : ومن ذلك تشبيه الخد بالورد ، والورد بالخد فقد تزاحمت عليه الشعراء ، واكثروا منه وابتذلوه ثم جاء على بن الجهم فقال :

عشية حيانى بورد كأنه

خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

فصار قول (خدود أضيفت بعضهن إلى بعض) من المختص الذى إن نسب فإليه ينسب ، وإن أخذ فمنه يؤخذ (٣٨) .

وهذا كله دليل على أنهم لم يفهموا الابتداع على أنه مطلق سبق وأولية ، ولا جعلوا كل أخذ اتباعا سائغا فى صنعة الشعر فاعرفه . وقد قلت من قبل : إن الابتداع عندهم (بصمة) الشاعر و (خَصِّيَّة) القائل ، واقول هنا : إن الاتباع الحسن عندهم أيضا بصمة للشاعر فى المعنى ، وخَصِّيَّة له فيه وإن كان سبق إليه .

وقد عرفت قبل أنهم نسبوا (الابتداع) إلى الشاعر ووصفوه به ، وأوقعوه على المعنى فقالوا : سبق إلى المعنى ، وابتدع معنى ، وابتدأ معنى ... الخ . وقد فعلوا مثل ذلك فى (الاتباع) أيضا فقالوا : أخذ المعنى ، واتبع معنى غيره ، أو نازعه معناه ، أو تناول معناه ... الخ .

وقد ذكرت فى الفصل الأول وجه كون الابتداع واقعا فى المعانى ، ونقلت قول عبد القاهر - رحمه الله - إن مرادهم بالمعنى فى هذا المقام

---

(٣٨) الوساطة ١٥١ .

صورة المعنى وهيئته ، أو صورة مخصوصة من اللفظ توجب مزية ...
وهذا أيضا هو تفسير قولهم اتبع المعنى أى : اتبع صورة له وهيئة مخصوصة سبق إليها المبتدع الأول .

فالابتداع والاتباع واقعان إذن فى صور المعانى لأن باب الاحسان فى الابتداع والاتباع واحد وهو حسن الصنعة ، ويرى عبد القاهر أن الأخذ الذى يصيب التغيير فيه ظاهر اللفظ ، وقشرة الكلام ، ولا يزيد فى أصل المعنى لا يكون تصرفا ، أو مغالبة ، ولا يستحق صاحبه وصف المتصرف ، أو المغالب ، إنما المغالبة والتصرف فيما يحدثه الشاعر من زيادات فى أصول المعانى ، بما يزيده من فصاحة وبلاغة ، وتخير لفظ، وهذه أوصاف للألفاظ فى الظاهر ، ولكنها عند التحقيق للمعانى(٣٩) .

وقد نبه عبد القاهر – أيضا – إلى أمر دقيق فى كلام النقاد قبله عن الاتباع ، وموضع من النظر لطيف وذلك أنهم كانوا يقولون فى المتبع : فجاء بمعنى السابق ، أو يقولون : إن المعنى فى بيتى السابق واللاحق واحد ، أو قولا يشبه هذين ، وكان هذا من غائم كلامهم ، ومشتبهه فقال عبد القاهر : إنهم حين قالوا ذلك لم يقصدوا إلى تطابق الكلامين أو اتحاد المعنيين ، لأن تطابق الكلامين ، واتحاد المعنيين مع اختلاف النظم فيهما محال . وليس يتصور أن تكون صورة المعنى فى أحد الكلامين ، أو البيتين مثل صورته فى الآخر البته ، اللهم إلا أن يعمد عامد إلى بيت من الشعر فيضع مكان كل لفظة منه لفظة أخرى فى مثل معناها ، من غير أن يعرض لنظمه وتأليفه ، كأن يقول فى بيت الحطيئة :

---

(٣٩) راجع دلائل الإعجاز ١٧٠ .

دع المكارم لا ترحـل لبغيتهـــــا

واقعـد فإنـك انت الطاعم الكاســى

دع المفاخـر لا تذهـب لمطلبهـــا

واجلس فإنــك أنت الآكل اللابــس !!

وهذا - كما يقول الشيخ - لا يكون اتباعا شعريا ، ولا يدخل فى قبيل ما تكون فيه مفاضلة ، لأنه لا يوصف بأنه عبـارة ثانيـة ، وإنما الاتباع الحسن ، والمفاضلة حيث يقال : ها هنا عبارة ثانية(٤٠) ٠

وقد ضرب عبد القاهر لذلك مثلا طريفـا دالا وهو : قول من قال :

قلت بيتا انا فيه أشعر من حسان : قال حسان :

يغشـــون حـــتى ما تهر كلابهـــــم

لا يسالون عن الســـواد المقبــــل

وقلت :

يغشـون حـتى ما تهـر كلابهـــم

أبـدا ٠ ولا يسألون منْ ذا المقبـــل

فقيل له : هو بيت حسان ، ولكنـك افسـدته(٤١) وهذا مثـال مصنوع ، ولكن الدلالة فيه ظاهرة ، والاحتجاج به قائم ٠ وانتفاء اتحاد المعنيين مع اختلاف النظم فيهما اصل نقدى جليل ، وهو قوام معنى الاتباع فى الشعر لأنه قاعدته ، وعماده ، فاجعله على ذكـر منك ٠٠ ولهذا احتشد له عبد القاهر أيمـا احتشـاد وأنـا أنقــل لك الآن نصّ كلامه لنفاسته ، وإن كنت قد اتيت فيما تقـدم على أكثر معـانيه قـال - رحمه الله - : « واعلم أنه لو كان المعنى فى أحد البيتين يكون على هيئته وصفته فى البيت الآخر ، وكان التالى من الشاعرين يجيئك به

(٤٠) دلائل الإعجاز نقلا وتصرفا ٣١٥ ٠
(٤١) دلائل الاعجاز ٣١٦ ٠

معادا على وجهه ، لم يحدث فيه شيئا ، ولم يغير له صفة لكان قول العلماء في شاعر : إنه أخذ المعنى من صاحبه فاحسن وأجاد ، وفى آخر إنه أساء وقصر - لغوا من القول من حيث كان محالا أن يحسن أو يسيء في شيء لا يصنع فيه شيئا . وكذلك كان يكون جعلهم البيت نظير البيت ، ومناسبا له خطأ منهم ، لأنه محال أن يناسب الشيء نفسه ، وأن يكون نظيرا لنفسه .

وأمر ثالث : وهو أنهم يقولون في واحد إنه أخذ المعنى فظهر أخذه ، وفى آخر إنه أخذه فاخفى أخذه ، ولو كان المعنى يكون معادا على صورته وهيئته ، وكان الآخذ له من صاحبه لا يصنع شيئا غير أن يبدل لفظا مكان لفظ لكان الإخفاء فيه محالا ، لأن اللفظ لا يخفى المعنى ، وإنما يخفيه إخراجه في صورة غير التى كان عليها(٤٢) فانظر إلى قوة احتجاج هذا الشيخ ، وحسن فقهه لكلام سلفة من العلماء، وثقته فيه وبنائه الرأى عليه .. ثم قل فيمن هم سراع إلى اتهام العلماء .

هذا وفى فهم العرب للاتباع الشعرى على النحو الذى وضحته دلالات أخرى منها أنه يخالف رأى من يرى أن الشعر خلق ، وأن الشاعر خالق ، وقد قلت : إن العرب لم يكونوا يرون هذا رأيا ، لأن الخلق - في أظهر معانيه - ايجاد على غير مثال ، والاتباع صنعة على مثال(٤٣) ومنها : أنه يدفع عصبية النقد العربى لكل قديم ، وعصبيته على كل حديث ، وأنه قصر الشعر على الأوائل ، وقال في ما قاله

---

(٤٢) دلائل الاعجاز ٣٣٠ ، ٣٣١ ، وانظر المبحث كله من ٣٢٦ إلى ٣٣٢ .

(٤٣) راجع ما سبق ص ٦٣ .

المحدثون والمولدون : حرّق ، خرّق لأن هذا يسقط نظرية الاتباع من أصلها . ومنها أنه يخالف (مذهب القطيعة) فى الابداع الشعرى لأن نظرية العرب القدماء تقوم على أن الإبداع الشعرى أرحام أدبية موصولة ، وأنه معقود أواخره بأوائله ، آخذ جديده بقديمه .

- ٤ -

رأى النقاد القدماء أن الاتباع الحسن أحد مضمارى الشاعرية ، وأن معانى الشعر تقلب ، وتولد ، وتتناسل ، وأن بعض الشعراء يأخذ من بعض ، ويطوى فى إجادته وإحسانه طرفا من إجادات سابقيه وإحسانهم ، وأن المتبع المحسن يبلغ بحسن الاتباع درجة السابق إلى المعنى المبتدىء له ، ويهب مبتذل المعانى حياة جديدة فيريكها فى صورة المخترع ، وينقلها من الاشتراك إلى الاختصاص ، فما الدواعى التى أوجبت أن يكون تقليب المعانى وتنازعها من قوانين صنعة الشعر عند العرب ؟

ثمت دواع جمعتها من بعض نصوصهم الصريحة ، واستنبطت بعضها من طريقتهم فى صنعة الشعر وروايته :

أولها : داع إنسانى عام ، وهو أن النفوس البشرية تتلاقى بفطرتها فى أمهات معان ، وتشترك فى أصول فكر ، وهذا هو معنى عبارة المرتضى التى نقلتها : « فالخواطر مشتركة ، والمعانى معرضة لكل خاطر ، جارية على كل هاجس » . وهذا هو باب (التوارد) فى الشعر ، وللقدماء فيه نصوص كثيرة ستأتى فى موضعها .

وثانيها : داع خاص يتصل بطريقة العرب القدماء فى حمل الشعر وروايته ، فقد قامت الشاعرية العربية قبل عصر تدوين الشعر على الرواية الشفهية والحفظ ، فكان الحفظ عندهم شرطا لبلوغ مرتبة

الفحولة فى الشعر ، وكان (الحنذيذ) من الشعراء الذى يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ، ويأتى دونه (المفلق) ، وهو الذى لا رواية له إلا أنه جيد الشعر ، ونصوصهم وأخبارهم فى ذلك كثيرة مستفيضة(٤٤) .

وبعد التدوين الشعرى قامت الشاعرية العربية على قدر أقل من الحفظ ، وقدر أكبر من مطالعة الدواوين المكتوبة ، والاختيارات المجموعة ، وهى طريقة كان يركبها كثير من الفحول النوابغ فى الشعر، فكيف بمن دونهم ؟ . ذكر الآمدى أن أبا تمام كان يحتذى على معانى كثير من الشعراء الذين اختار لهم فى اختياراته الشعرية الستة(٤٥) ، وأبو تمام معدود فى المبدعين الذين يتكئون على أنفسهم أكثر مما يأخذون من غيرهم . وزعم أبو سعيد العميدى (٤٣٣ هـ) عمن يثق به أنه وجد فى خرج أبى الطيب المتنبى يوم قتل ديوانا أبى تمام والبحترى بخط يده ، وعلى حواشيهما علامات على الأبيات التى تتبع فيها الطائيين ، ونازعهما أياها(٤٦) .

ولا ريب أن الحفظ ومطالعة الدواوين قد فتحا للشعراء القدماء باب الاتباع الشعرى ، ويسرا لهم سبيل تقليب المعانى وتنازعها ، وتصريفها وتشقيقها ، فبات الشعر ميراثا يأخذه الخلف عن السلف ، وكل شاعر يطوى فى شاعريته أطرافا من شاعرية من سبقه ، ويدخل فى نسيج عبقريته خيوطا من عبقرية من تقدمه . وإذا صح ما قيل فى

(٤٤) راجع فحولة الشعراء المنسوب للأصمعى ، والعمدة ١/٩٥، ١٧٢، والوساطة ٢١ .
(٤٥) انظر الموازنة ١/٥٨ ، ٥٩ .
(٤٦) الابانة عن سرقات المتنبى ٢٥ .

امرىء القيس – وهو السابق – من أنه كان يتوكأ على معانى سلفه أبى دؤاد ، ويطرد شعره(٤٧) ، وما قيل عن أخذ البحترى من معانى أبى تمام(٤٨) ، وما نقلته قبل قليل من أخذ أبى تمام من معانى من اختار لهم ، وأخذ المتنبى من معانى الطائيين = كان ذلك من الأدلة على ان تنزع المعانى من قوانين صنعة الشعر عند العرب فإذا كان هذا وقع الشعر عند العرب ، فليس صوابا إذن أن ننظر فى اجادات المتنبى مثلا على أنها من عطاء عبقريته وحدها ، وأنها مقطوعة عن ميراث الشعر قبله ، غافلين عما فى إجاداته من يد ظاهرة أو خفية لسلفه من الشعراء ، فالشعر ميراث ولكل شاعر يد على من بعده ، ولكل عصر يد على العصر الذى يليه ، ومن أبين نصوص القدماء وأقدمها فى هذا المعنى قول ابن طباطبا (٣٢٢ هـ) « وستعثر فى أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ، ولطفوا فى تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم ، وتكثروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها ، وزخرفتهم لمعانيها »(٤٩) . وفى هذا النص دقائق ولطائف فتأمله .

وكان الجاحظ قد قال:إن نظره فى الشعر العربى قد دله على أن المعانى تقلب ، وإنه قل معنى من المعانى لم ينازع فيه السابق إليه ، ثم استقر هذا الرأى عند من بعده من نقاد الشعر كما رأيت ، ولكن بعض الدارسين وهو الدكتور مندور ينظر إلى قول ابن الأثير : إن الآخر من الشعراء لا يكاد يستغنى عن الأول ، فلا يرى فيه إلا أنه يريد أن يعلم الشعراء

---

(٤٧) انظر العمدة ١/٩٧ .
(٤٨) انظر الموازنة ١/٦ .
(٤٩) عيار الشعر ١٤ .

السرقة(٥٠)!! وقول ابن الأثير فى بيان ما فى الشاعرية من أرث ، فهو فى معنى كلام الجاحظ ، ومن جاء بعده .

والذى اهتدى إليه العرب القدماء هنا ، قال به نفر من نقاد الغرب : قال بن جنسون : إن أولى الضرورات التى تجب على الشاعر أن يستفيد بكتابات غيره(٥١) ، وقال اليوت : إن أى شاعر لا يصح أن يدعى امتلاكه لمعنى من المعانى إذ لابد من وجود صلة ما بين هذا المعنى ، ومعانى الشعراء الأقدمين ، وقال أيضا(٥٢) : إن عقل الشاعر يجب أن يكون (كالمغنطيس) يجذب إليه الأفكار والصور ، والعبارات مما يقرأ . فهل يقال فى اليوت وبن جنسون إنهما يعلمان الشعراء السرقة ؟! .

ولأبى عثمان الجاحظ رأى طريف فى الحفظ والاستنباط ، ومبلغ حاجة الشاعر أو الأديب إليهما معا ، فهو يرى أن الرجل إذا أدام الحفظ وأدمنه أضر ذلك باستنباطه ، واتكائه على نفسه ، واستقائه من قلبه وإذا أدام الاستنباط وأدمنه أضر ذلك بحفظه .. فالأول لا تسرع إليه المعانى ، والثانى لا تعلق بنفسه المعانى ، ولا تمكث فى صدره . قال : ربهما معا يكون التمام ، وتظهر الفضيلة(٥٣) .

وثالث الدواعى داع بيئى مكانى أو زمانى ، فقد أشار الآمدى إلى أن القوم إذا كانوا فى قبيلة واحدة ، أو أرض واحدة ، أو كانو متعاصرين ، أو من أهل بلاد قريبة تقاربت خواطرهم ، كما تتضارع

---

(٥٠) النقد المنهجى ٣٦٩ .
(٥١) نقلا عن مشكلة السرقات ٢٥٨ ، ٢٣٠ .
(٥٢) السابق نفس الصحيفة .
(٥٣) رسائل الجاحظ ٢٩/٣ ، ٣٠ .

أخلاقهم وشمائلهم(٥٤) وهذا أصل يرجع إليه فى تفسير تشابه بعض معانى من تعاصر من الشعراء العرب ، أو من جمعتهم أرض واحدة ، أو مذهب فنى واحد .

والداعى الرابع لغوى ، فاللسان العربى فيه اتساع وتصرف مما ييسر تصوير المعنى الواحد بصور شتى ، واختلاف المعانى باختلاف العبارة عنها ، وهذا معنى أشار إليه الباقلانى من قديم(٥٥) ، وإليه يذهب كثير من أهل البصر بلغة العرب .

وخامس الدواعى فنى ، وهو (شهوة الشعر) ، وهى عند الشاعر الكبير من أقوى الشهوات وأعرمها ، فهو يمر بالمعنى المبتكر ، والصورة المبتدعة ، والفطنة الشاردة ، فتقع فى نفسه ، وتستولى عليه شهوة المزاحمة ، وتدفعه طبيعة المغالبة فلا يزال يقوم لذلك المعنى ويقعد ، ويحتال له احتيال الرامى الماهر لفريسته حتى يقع له مثل ذلك المعنى بوجه من الوجوه ، ويعطيه نفسه على نحو من الانحاء وحتى يضرب فيه بسهم ، ويأخذ منه بنصيب . والأصل أن الشعراء يفعلون هذا ولا يصرحون به ، ولا يخبرون عن انفسهم ومن صرح عن نفسه منهم قليل وممن أخبر عن نفسه بشار بن برد فى خبره المشهور : قال : إنه لما مر بتشبيه امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى

أحب أن يأتى بمثله ، وأن يأخذ من ابداعه بنصيب ، فلم يزل يجهد لذلك نفسه ، ويسهر ليله ، ويتعب فكره حتى قال :

---

(٥٤) الموازنة ١/٥٦ .
(٥٥) إعجاز القرآن ٣١ .

كان مثار النقع فوق رءوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومن صرح وأخبر عن نفسه أيضا أبو تمام ، فقد روى أن ابن أبى دؤاد سأله عن قوله :

وما سافرت فى الآفاق إلا

ومن جدواك راحلتى وزادى

مقيم الظن عندك والأمانى

وإن قلقت ركابى فى البلاد

أهذا المعنى مما اخترعته ؟ قال : بل أخذته من قول الحسن بن هانىء :

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة

لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى(٥٦)

ولولا ما أخبر به أبو تمام عن نفسه لخفى علينا من أين أخذ معناه .

فشهوة الشعر تحمل الشاعر على منازعة غيره من المجيدين وأحر بها أن تكون سببا من أسباب النبوغ ، وسجية من سجايا النوابغ ولمثل هذا قال الأخطل : «نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة»(٥٧) وربما استحالت شهوة الشعر اغتصابا وانتهابا لا اتباعا ومزاحمة كالذى روى عن الفرزدق من أنه كان مقداما جريئا على اغتصاب البيت الفذ ، والقطعة النادرة مما هو أشبه بمذهبه ونفسه ، كأنما كان يرى أنها معانيه هو ونمطه هو خرجا على لسان غيره ، فهى ضالته وجدها وهو

---

(٥٦) الموازنة ٥٦ ، ٥٧ .
(٥٧) الموشح ٥٧٥ .

أولى بها !! ، وكان يقول فى ذلك : « والله لضوال الشعر أحب إلى من ضوال الابل »(٥٨) . ولكنه كان يأخذ الضال وربما أخذ من ليس بضال !! . وقد روى عن جرير وأبى نواس مثل الذى روى عن الفرزدق(٥٩) .

- ٥ -

عرفت إن الاتباع الحسن سائغ فى صنعة الشعر عند العرب ، وأنه منهل مورود يحمد فيه الشاعر ولا يعاب به فما الأصل فى ذلك ؟ ذلك راجع عندهم إلى **طبيعة دلالة التاليف** فى الفن اللغوى من وجه ، و**طبيعة معانى النفس** من وجه آخر . أما **دلالة التاليف** فاقدم ما قيل فيها عبارة على رضى الله عنه على الوجه الذى تاولتها عليه ، وياتى فى معناها قول الرمانى : « إن دلالة التاليف ليس لها نهاية ولو قال قائل : قد انتهى تاليف الشعر حتى إن أحدا لا يمكنه أن يصنع قصيدة لم تقل لكان ذلك باطلا »(٦٠) ، وقول الشريف المرتضى : إن المعنى يصور باختلاف العبارة عنه،وتغير الهيئات عليه،وإن كان واحدا كانه مختلف فى نفسه(٦١) . وعبارة الرمانى والمرتضى على وجازتهما من أدق الكلام فى هذا الباب وأوسعه دلالة ، وصفوة القولين : أن العبارة فى الادب مرنة طيعة بطبيعتها تاخذ أشكالا عدة ، وهيئات شتى وهى فى كل شكل وهيئة تعطى معنى جديدا ، ومن هنا كان كل تغيير فى تاليف الكلام يتغير به المعنى ، ومرجع هذا إلى ما هو معمول به

(٥٨) الأغانى ٩٨٠٤/٢٩ ، وأمالى المرتضى ٦٠/١ .
(٥٩) السابق والصحيفة .
(٦٠) النكت فى إعجاز القرآن ١٠٧ .
(٦١) الشهاب في الشيب والشباب ٣ .

عندهم وهو أن حظ العبارة فى الكلام الفصيح منظوما ومنثورا أقوى من حظ المعانى(٦٢) .

وأما طبيعة معانى النفس فقد أشار حازم القرطاجنى إلى أن المعانى : معانى النفس والعقل ولود منجبة بطبيعتها ، إذ تجد لكل معنى من المعانى معنى أو جملة معان تناسبه وتقاربه ، وآخر أو أخرى تضاده وتباينه ، وتجد لمناسبة معانى تخالفه ، ولمخالفه معانى تناسبه ... وهكذا وإنما تنال هذه المعانى المتعددة بوجوه من النظم وضروب من التاليف(٦٣) .

وللشريف المرتضى قبل حازم كلام فى هذا المعنى : فقدر ذكر كثيرا مما قاله الشعراء فى ذم الطيف ومدحه ثم قال : « وهذه المعانى فى المدح والذم قد تتشعب ، وتتركب ، وتمتزج فيتولد بينها من المعاني ما لا ينحصر ولا ينضبط بحسب قوة طباع الشاعر ، وصحة قريحته وغريزته »(٦٤) . وفى آخر كلام الشريف ما يدل على أن مشروعية الاتباع المنتج ، وتقليب المعانى وتنازعها تعود من بعض الوجوه إلى قوة طباع الشاعر وصحة قريحته وغريزته ، فبهذا يكون قادرا على تصريف تاليف الكلام ، واستنفاذ أوضاعة المنتجة ، وهيآته الدالة ، وقادرا على اخراج خبىء النفس والعقل وكنوزهما ولأجل ما فى دلالة التاليف من الاتساع ، وما فى النفس من قدرة لا تحد على انتاج المعانى قال القدماء : إن باب الاختراع والتوليد لا يغلق أبدا ، وإن معينهما من اللغة والنفس لا ينضب ما بقيت الحياة ، ومن أوضح النصوص فى هذا

---

(٦٢) راجع طيف الخيال ٣٣ .
(٦٣) راجع منهاج البلغاء ١٤ .
(٦٤) طيف الخيال ١٦ .

قول ابن رشيق : « وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا وتولد »(٦٥) ، واوضح منه قول ابن الاثير : « إن باب الابتداع للمعانى مفتوح إلى يوم القيامة ومن ذا الذى يحجر على الخواطر ، وهى قاذفة بما لا نهاية له »(٦٦) . على ان هذا المعنى ليس وليد القرون المتاخرة فإن عبارة على - رضى الله عنه - التى سبق ذكرها تتاول على هذا المعنى وكذا عبارة الجاحظ .

ومن الباحثين(٦٧) من يرى ان الحضارة من بواعث ولادة المعانى ولادة جديدة ، وان الناس كلما ضربوا فى الحضارة بسهم وافر ، اختلفت لديهم هيات المعانى ، وهيات الاحساس بها ، وهذا حق ولكن ذلك لا يرجع إلى التحضر وحده ، وإنما يرجع ايضا إلى اختلاف النفوس ، وما اودعته من اسرار ، ورزقته من بصائر إن فى الحضارة، وإن فى البداوة . وآية ذلك ان هيئات المعانى والاحساس بها كثيرا ما تختلف باختلاف الشعراء فى العصر الواحد ، والبلد الواحد ، بل وإنها لتختلف باختلاف مراحل حياة الشاعر واطواره . وإن عاش فى بيئة واحدة .

هذا والاستجداد والاستطراف من سجايا النفس الانسانية ، مما يدفع إلى البحث عن ولادة جديدة للمعانى ، وقد نبه ابن طباطبا إلى هذا المعنى فقال : إن السمع إذا وردت عليه المعانى المكررة ملهـا ولذا عاودته الصفات المشهورة لمشاعة مجها ، وثقلت عليه ، فإذا لطفها

---

(٦٥) العمدة ٢٦٣/١ .
(٦٦) المثل السائر ٣١١ .
(٦٧) الدكتور حلمي مرزوق ، النقد والدراسة الأدبية ١١٤ .

الشاعر ، وشابها بحسن فقرب بعيدا ، أو بعد قريبا أو لطف جليلا ، أو جلل لطيفا أصغى إليه السمع ودعاه ، واستحسنه السامع واجتباه ، وهذا سبيل تناول المعانى واستعارتها والتلطف فى استعمالها وتصريفها على اختلاف الجهات التى تتناول منها (٦٨) .

- ٦ -

مبحث السرقات من مشكل النقد العربى القديم وعويصه ، وهو باب يدق إلا على البصير الفذ من النقاد لقلة محكمه ، وكثرة متشابهه . وإنما كان مشكلا دقيقا لأنه يقتضى استفاضة فى الرواية ، ولطفا فى الفهم يعرف بهما ما بين المعانى من أنساب وان بعدت ، وذوقا صحيحا يعرف به الاحسان والتقصير وإن استترا ، وخفيا .

والقاضى الجرجانى - رحمه الله - ممن تنبه إلى هذا المعنى ، ونبه عليه فقال : إن السرق باب عظيم شائك لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعلامة المبرز ، فليس كل ناقد تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه ، واستكمله وليس بعد من جهابذة النقاد من لا يفرق بين أصناف السرق وأقسامه ، ويحيط علما برتبه ومنازله ، وقال : إن من النقاد فى عصره من لا يعرف من السرق إلا اسمه ، فان تجاوز ذلك لم يحصل إلا على الظاهر ، ولم يقف إلا عند الأوائل لا ينفذ إلى المشكل ، ولا يبلغ اللب (٦٩) . وحسبك بها قوله من ناقد بارع ، وشهادة من قاض عادل .

وزاد فى اشكال هذا الباب ، وكثرة متشابهه أمران : **الأول** يرجع إلى لفظ (السرقة) نفسه ، **والآخر** يرجع إلى حال بعض من خاض فى السرقات من القدماء .

---

(٦٨) راجع عيار الشعر ١٢٥ .

(٦٩) من نص طويل نقلت منه بتصرف . راجع الوساطة ١٤٨ .

أما الأول : فإن فى لفظ (السرقة) فى كثير من نصوص التراث النقدى شيوعا لا يكاد يضبط إلا بكثرة النظر وشوبا لا يكاد ينقى إلا بطول التأمل ، وهذه بعض المعانى التى ورد عليها اللفظ :

١ - ورد لفظ (السرقة) وأريد به انتحال الشعر ، وادعاؤه ، وأخذه برمته ، من ذلك ما روى من أن النابغة الجعدى دخل على الحسن بن على - رضى الله عنهما - ، فاستنشده الحسن فانشده النابغة:

الحمـد للـه لا شـريك لـه
من لـم يقلهـا فنفسـه ظلمـا

فقال : « ياأبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت !! » فقال النابغة : « يابن رسول الله ، والله إنى لأول الناس قالها ، وإن السروق من سرق أمية شعره »(٧٠) . والخبر من مرويات ابن سلام الجمحى ، فهو عتيق ، فإن كان اللفظ للنابغة فهو دليل على أنهم كانوا يطلقون لفظ السرقة فى أواخر الجاهلية ومطالع الاسلام ، والمراد به انتحال الكلام بأسره وأخذه كله كما هو . ويؤيد هذا قول طرفة - وهو أول من ذم السرق فيما أعلم - :

ولا اغير على الأشعار اسرقها
عنها غنيت . وشر الناس من سرقا(٧١)

ووجه الاستدلال به أنه جمع بين (أغير) و (أسرق) . والغارة الخيل المغيرة : تاخذ ما وقع لها ، فكانه قال : أنا لا انتحل شعر غيرى لان لى فى قدرتى على قرض الشعر غناء . ويمكن أن يعد من هذا الباب أيضا قول حسان :

---

(٧٠) طبقات فحول الشعراء ٢٧ .
(٧١) ديوانه ٢١٦ .

لا أسرق الشعراء ما نطقوا

بل لا يوافق شعرهم شعري (٧٢)

على أن العربي ربما أخذ بيتا أو أكثر من شعر غيره ، وضمنه شعره من غير أن يكون سارقا . من ذلك ما روى ابن سلام عن خلف الأحمر أنه سمع أهل البادية ينشدون للزبرقان بن بدر بيت النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

وتتقى مربض المستنفر الحامي

فسأل ابن سلام يونس بن حبيب عن البيت فقال : « هو للنابغة أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه ، لا مجتلبا له ، وقد تفعل ذلك العرب لا يريدون السرقة » (٧٣) .

وفي خبر لقاء البحتري وأبي تمام أول مرة عند أبي سعيد محمد ابن يوسف الثغري - من رواية الآمدي - قال أبو تمام لمحمد بن يوسف - وقد علق أبياتا كثيرة من قصيدة البحتري - : « .. ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتي حتى اليوم .. » (٧٤) فاستخدم أبو تمام السرقة بمعنى الانتحال .

٢ - ورد لفظ (السرقة) في بعض النصوص بمعنى مطلق أخذ المعنى : حسن الأخذ أو قبح ، وظهر أو خفي ، ومن ذلك نص القاضي الجرجاني الطويل الذي نقلته في فقرة سابقة ، والذي يقول في أوله: (والسرق - أيدك الله - داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر

---

(٧٢) ديوانه ٨ .
(٧٣) طبقات فحول الشعراء ١٧ .
(٧٤) الموازنة ١ / ، وانظر أمثلة في المنصف ٢٣ ، ٣٥ ، ٣٧ .

يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ... »(٧٥) .

فتمام النص - كما قلت هناك - يقوى أنه أراد بالسرق مطلق أخذ الشاعر معنى غيره وإن أحسن في ذلك ولا أدرى لم جعله داء وعيبا ؟! ولعله جعله كذلك قياسا إلى الاختراع والاتكاء على النفس ، وهو أعلى المرتبتين في الشعر . ومن ذلك قول القاضي أيضا : « وأول ما يلزمك في هذا الباب الا تقصر السرقة على ما ظهر ، ودعا إلى نفسه ، دون ما كمن ، ونضح عن صاحبه ... »(٧٦) . فإنه عبر فيه بلفظ (السرقة) عن ظاهر الأخذ ، وخفيه .

٣ - وقد يعبر بلفظ (السرقة) عندهم عن أخذ المعنى مع الزيادة فيه والاحسان ، زيادة واحسانا يستحق الآخذ بهما المعنى - وهو الاتباع المشروع كما علمت - ويمكن أن يعد من هذا قول الأخطل أو جرير : « نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة »(٧٧) فان الصائغ صانع ، والصائغ إذا أخذ حلى الذهب أو الفضة صهرها ، وأعاد تشكيلها(٧٨) ، وكذا يفعل الشاعر الحاذق حين يأخذ المعنى . ومن ذلك قول المرزباني - وقد سبق ذكره - « ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في اضاءة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ... » فإن مع اضاءة المعنى ، أو الزيادة فيه أو تحسين اللفظ يكون الأخذ اتباعا مشروعا يستحق به الآخذ المعنى كما عرفت .

---

(٧٥) راجع ما سبق ص ١٣١ .
(٧٦) راجع النص بتمامة في الوساطة ١٦١ .
(٧٧) الموشح ٢٢٥ .
(٧٨) عيار الشعر ٨١ .

٤ - ويستخدم لفظ (السرقة) عندهم كثيرا فى معنى أخذ المعنى المسبوق إليه مع التقصير والاساءة وهو الذى يتبادر إلى الذهن إذا ذكر لفظ السرقة ، ومن ذلك قول يحيى بن على المنجم (٣٠٠ هـ) : « وحق من أخذ معنى وقد سبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه ، أو يزيد فيه عليه حتى يستحقه فاما إذا قصر عنه فانه مسىء معيب بالسرقة مذموم بالتقصير »(٧٩) .

***

الأمر الثانى الذى زاد باب السرقات إشكالا واضطرابا أن بعض ما كتب فى السرقات من رسائل وكتب ، ألف فى سياق خصومة ومكايدة، وقاده الهوى والعصبية . وهذا هو حكم بعض كبار النقاد على بعض من سبقهم أو عاصرهم وهم أقرب إلى أصل المسألة ، وبزمانهم أعرف : قال الآمدى فى أبى الضياء بشر بن تميم الكاتب : وقد أفرط فى استقصاء سرقات البحترى حتى تجاوز إلى ما ليس بمسروق ، وأدخل فى باب السرقة ما ليس منه عند التحقيق(٨٠) . وقال القاضى الجرجانى: إن ما أخرجه أحمد بن أبى طاهر ، وأحمد بن عمار من سرقات أبى تمام وما أخرجه بشر بن يحيى من سرقات البحترى ، ومهلهل بن يموت من سرقات أبى نواس مما يدل على أثر الهوى ، ويزين الانصاف ويحبب فيه »(٨١) . ومن الدارسين من حين رأى هذا العسر والاضطراب فى مبحث السرقات لم يحمله على تخليصه وتحريره ، والصبر على نفى قشوره عن لبابه بل سارع إلى رمى جمهور النقاد القدماء بالجهل

---

(٧٩) الموشح ٤٥١ .
(٨٠) الموازنة ٣٢٠ .
(٨١) الوساطة ٢٠٩ .

بنظرية السرقات ، ووصمهم بالضيق والجمود ، وزعم أن النقاد العرب قد عقدوا مشكلة السرقات لأنهم لم يفهموا طبيعة الإلهام وعملية الإبداع الفنى(٨٢) . وهذا تعميم عرفت خطأه فيما مر بك فى فصل الاتباع، وتعرفه أكثر فيما يقبل عليك منه إن شاء الله . وغيرهم أنصف وأقسط فقال : إن العرب قد أعطوا السرقات مزيد عناية ، وإنها لم تظفر فى نقد أدب آخر بما ظفرت به فى نقد الأدب العربى(٨٣) .

ولست أعرض هنا لمبحث السرقات برمته ، وإنما آخذ منه ما يعنينى هنا والذى يعنينى أنه نشأ عن ذلك الاضطراب والشوب أن تداخلت مسائل الاتباع السائغ ، والسرقات المعيبة ونصوصهما ، ووقع بهذا التداخل خلط بين ما هو اتباع مشروع وما هو سرق مذموم عند غير المحققين من النقاد .

لا بل أن هذا قد أضر كثيرا بنظرية العرب فى الإبداع والاتباع الشعرى ، وعض على محاسن ما قاله أوائلهم فيها ، وما استنبطوه من أصولها مما هو أمس كلامهم رحما بلباب الشعر ، وأكثره تغلغلا فى أصول صنعته . فصارت قضية السرقات هى الأصل عند بعض الناس ، وصارت مسائل الابتداع والاتباع تذكر فى ثناياها وتطوى فى جملتها. مع أن الابتداع والاتباع هما مضمار الشاعرية عند العرب كما عرفت ، وما السرق إلا شذوذ ونشوز .

---

(٨٢) راجع ما كتبه الدكتور هدارة : مشكلة السرقات ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، وما كتبه الدكتور مندور : النقد المنهجى ٣٥٦ ، ٣٦٥ .

(٨٣) د. حسين نصار : نقاد البحترى بحث فى مهرجان الشعر الثالث بدمشق ١٩٦١ ، ص ٢٣١ . ود. عبد القادر القط ، بحث فى كتاب : إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ص ٤٤٦ .

وإنما نصصت على وقوع الاشتراك الملبس فى لفظ (السرقة) ، ووقوع الاضطراب فى بعض أحكام باب السرقات لأدل على أنه باب يقتضى الناظر فيه تعبا ونصبا فى جمع النصوص ، وغربلتها ، وتمحيصها رواية ومتنا ، لا لأقول إن المسألة برمتها مضطربة مخلطة فى النقد العربى اضطرابا لا يهتدى فيه إلى صواب ، وتخليطا لا يحرر . إنما وقع الاضطراب والخلط من ضعفة النقاد ، وأهل الهوى - ولم يخل منهم أمة ولا عصر - أما فحول النقاد ، وثقاتهم فى كل جيل وطبقة ، فلهم فى ذلك أصول محكمة ، ومذاهب مرضية .

وقد وقفت على أصولهم المحكمة فى باب الاتباع المشروع . ولهم فى السرق كذلك أصول ليس هذا موضع استقصائها ، ولكنى أذكر منها:

١ - لا سرقة فى المعانى الاتفاقية المشتركة(٨٤) وبهذا الأصل رد الآمدى والقاضى الجرجانى كثيرا من أحكام أهل الهوى والعصبة مما حكم فيه على المعنى بالسرقة . وهو من المشترك الذى لا يختص بأحد دون أحد فلا يقال فيه : سرق فلان من فلان .

٢ - إنما السرقة فيما هو تأليف ، ونظم مختص بقائل . فلا يقال سرق فى أخذ الألفاظ المفردة ، ولا فى أخذ أسماء الأشخاص والمواضع ونحوها مفردة أو مضمومة(٨٥) . وبهذا الأصل صحح حذاق النقاد أحكاما بالسرق لتشابه الشعرين فى كلمة أو علم ، وليس فى مثله سرقة.

٣ - لا سرقة فيما أخذه الشاعر من غيره فزاد فيه زيادة حسنة امتلكه بها واستحقه . وهو أصل عتيق تقدمت النصوص الدالة عليه . وهو موضع الفرق بين السرقة والاتباع .

---

(٨٤) انظر الوساطة ١٥٠ .
(٨٥) الموازنة ١٢٤/١ ، والوساطة ١٦٧ .

والذى يعنينى بيانه هنا هل فرق النقد العربى القديم بين الاتباع والسرقة ؟ والجواب . نعم فرق بينهما الحذاق منذ وقت مبكر، وقد تقدمت النصوص فى أول هذا الفصل عن بشار وأبى نواس فى القرن الثانى ، والبحترى ، ويحيى بن على بن المنجم ، وأحمد بن أبى طاهر فى القرن الثالث ، وابن طباطبا ، والمرزبانى ، والآمدى ، والقاضى الجرجانى من القرن الرابع ، والشريف المرتضى ، وابن رشيق وعبد القاهر من نقاد القرن الخامس .

وقس ما لم أذكره - وهو كثير - على ما ذكرته - تر أن الأمر عند الأولين والآخرين بين . نعم كان تفريق الأولين إشارات موجزة فى ألفاظ قليلة ، ثم شرح الآخرون وفصلوا ، واحتجوا وعللوا ، لكن الفرق واضح عند أولئك وضوحه عند هؤلاء . وإنما اشتبه الأمر على ضعفة النقاد وأهل الهوى .

لا . بل هم نصوا من زمن مبكر جدا على أن الآخذ المتبع يبلغ بحسن الصنعة درجة المبتدع المخترع ، ويصير مستحقا للمعنى وأولى به من السابق إليه ، وراجع فى هذا ما نقلته عن بشار ، وابن طباطبا، والشريف المرتضى ، والقاضى الجرجانى - وهو من أقوى الأصول فى بيان نظرية الاتباع ومباينتها لنظرية السرقات .

وثمت نصوص بعد هذا هى أقوى من غيرها دلالة على تفريقهم بين الاتباع والسرقة :

قال القاضى الجرجانى - فى نص طويل : « ... ولست تعد من جهابذة الكلام ، ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه - أى السرق ويريد به الأخذ - وأقسامه ، وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق

والغصب وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز إدعاء السرق فيه ، والمبتذل الذى ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدىء فملكه ، وأحياه السابق فاقتطعه فصار المقتدى مختلسا سارقا ، والمشارك له محتذيا تابعا ... »(٨٦) .

يقول القاضى : إن الأخذ ليس صنفا واحدا بل أصناف وأقسام ، وليس رتبة واحدة بل رتب ومنازل ، ذكر منها (السرق) وهو أخذ المعنى على وجهه سرا (والغصب) وهو أخذ الشعر علانية ، (والاختلاس) وهو أخذ المعنى مع تحويله من غرض إلى غرض ، و (الإلمام) وهو الاتيان بضد المعنى و (الملاحظة) وهى الأخذ الخفى الذى يدق ويمنع نفسه .. وكل هذه الأصناف تكاد تجتمع فى رتبتين : الاتباع والسرقة لان الآخذ إما ان ياخذ المعنى فيزيده حسنا أو ياخذه ويقصر فيه ... وعد إلى تامل آخر كلام القاضى فإنه صرح بالفرق بين الاتباع والسرقة ، واتى بلفظين آخرين هما الاقتداء والمشاركة ، وجعل المقتدى من ياخذ المعنى على وجهه ولا يزيد فيه فهو مختلس سارق ، والمشارك من ياخذ المعنى ويصير شريكا فيه بما يزيده .. وهو محتذ تابع .

وقال ابن رشيق : « والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له ايضا سرقة إذ كان ليس آخذا على وجهه »(٨٧) فابن رشيق يفرق تفريقا جليا بين ثلاث مراتب فى

(٨٦) الوساطة ١٤٨ .
(٨٧) العمدة ٢٦٣/١ .

الشعر : بين التوليد - وهو الاتباع الحسن - وبين الاختراع ، وبين السرقة ..

وعبد القاهر الجرجانى من أكثر النقاد القدماء تفصيلا فى التفريق بين الاتباع والسرقة لطبيعته العقلية التحليلية الجدلية ، ولأنه وارث علم من تقدمه ... يقول : إن الاتباع والاحتذاء الذى يقع بين الشعرين او الشعرين إما ان يكون فى الغرض على الجملة كان يتفق الشعران أو الشاعران فى وصف الممدوح بالشجاعة أو السخاء او نحوهما ، أو يكون فى وجه الدلالة على الغرض كأن يتفقا فى التشبيه بما يوجب الشجاعة او السخاء مثل التشبيه بالأسد أو البحر ، أو فى ذكر هيئات تدل على الصفة كالوصف بالابتسام ، وسكون الجوارح فى موقف اللقاء ، وهذا يدل على الشجاعة ، او بالتهلل عند البذل والعطاء ، وهذا دليل السخاء.

فإذا اشترك الشاعران فى عموم الغرض فهذا لا يقال للتالى فيه : سرق لان عموم الغرض من المشترك لا من البديع الخاص ، وإنما يقع لعجب فى هذا ممن لا يحسن التحصيل ، أو ينعم التامل .

وإذا كان الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض : أى فى تشبيه أو ذكر هيئة نظر ، فإن كان مما يشترك الناس فى معرفته لظهوره لم يوصف الآخذ له بالسرقة كما لا يوصف السابق إليه بابتداع أو سبق . وإن كان مما لا ينال إلا باجتهاد ونظر وتدبر فهو الذى يوصف السابق إليه بالسبق والأولية ، وينعت المتبع فيه بأنه سارق أو مقصر إن قصر ، ومحسن إن زاد وأحسن .

ومن البين ان عبد القاهر قد بنى كلامه على أصول ثلاثة ذكرها النقاد قبله وهى : انه لا سرقة ولا اتباع إلا فى المختص ، وأن السرقة

---

(٨٨) راجع أسرار البلاغة : ١/١٩٩ - ٢٠١ .

في أخذ المعنى المختص مع التقصير ، والاتباع في أخـذه مع الزيادة فيـه والإحسـان .

- وجـاء حازم القرطاجني ففصل المسالة تفصيلا أوسع ، في مبحث : قديم المعاني ومخترعها ، وقال : إن الشاعر التالي لا يستحق المعنى الذي أخذه من الأول إلا بشروط : أن يركب عليه معنى آخـر ، أو يزيد عليـه زيادة حسـنة ، أو ينقـله .. أو يقلبه ، أو يركب عليـه عبارة أحسن من الأولى ثم قال : « فما وجد فيه شرط من هذه الشروط أو ما جرى مجراها فـائقة مجاذبة الشاعر فيـه من تقدمه ، وما ليس داخلا تحت تلك الشروط أو ما جرى مجراها مما يزيد في المعنى زيادة مقبولة فهو سرقة محضة »(٨٩) . ثم قال « فمراتب الشعراء فيما يلمون به من المعـاني إذن أربعة : اختراع ، واستحقاق ، وشركة ، وسرقة . فـ (الاختراع) هو الغاية في الاستحسان ، و (الاستحقاق) تال له ، و (الشركة) منها ما يساوي الآخر فيه الأول فهذا لا عيب فيـه ، ومنها ما ينحط فيه الآخـر عن الأول فهذا معيب ، و (السرقة) كلها معيبة وإن كان بعضها أشـد قبحا من بعض »(٩٠) .

ومن البين لك بعد ما تقدم أن النقاد العرب يحتكمون في المسالة إلى أصول عامة ، عنها يصدرون .. وإنما يفصـل أحـدهم ما أجمل الآخـر ، أو يفصح عما طواه وهو به عارف ، أو يزيد الزيادة اليسيرة ، أو الكبيرة .

وبقيت كلمة في لفظ « السرقة » . فقد ذكرت أن فيه اشتراكا ، وأنه يستعمل بدلالات عدة ، ومرد ذلك أنه يستخدم تارة بالمعنى اللغـوي

---

(٨٩) منهاج البلغاء : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٩٠) السابق : ١٩٦ وانظر ص ٢٠٢ منه .

- وهو اخذك ما ليس لك سرا(٩١) - فيدخل فيـــه الانتحال والأخذ والاتباع تجوزا ، ويستخدم تارة أخرى بمعناه الاصطلاحى وهو أخـــذ المعنى المختص مع التقصير فيه ... وكثيرا ما نجـد فى سـياق كلام الناقد ما يعين أحـد المعانى .

وقد رأيت من النقاد من يفـر من لفظ السرقة ويستعمل فى مكانه لفظ « الأخـذ » كما فعل ابو هلال ، فقال : « فصل فى حسن الأخذ » و « فصل فى قبح الأخذ » . والبلاغيون المتأخرون كابن الأثير وغيره يقولون : « السرقات المحمودة » و « السرقات المذمومة » وما أرى ذلك إلا فرارا من إيهام لفظ السرقة .

وقـد بدا لى عنـد هذا الموضع من الكلام أن أراجع النصوص التى نقلتها فى أول الفصل فوجدت أن الأوائل من النقـــاد العرب قـد تجنبوا لفظ « السرقة » فاستخدم أبو نواس لفظ « الاتباع » واستخدم الجاحظ الفاظ « الاخذ » و « الاتباع » واستخدم ابن طباطبا وأبو هلال عبـارة « تناول المعنى » ، وستخدم القاضى الجرجانى لفظ « الاشـتراك » والمقياس الذى تحتكم إليه عند النظر فى النصوص التى يرد فيها لفظ سرق هو : إذا رأيتهم يصفون الآخذ بأنه سرق ثم يتبعون هذا بأنه زاد أو أحسن أو ما أشبه ذلك(٩٢) فالسرقة هنا هى « الاتباع المحمود » ، وإن رأيتهم يصفونه بالسرقة ثم ينسبونه إلى التقصير ، ويرمونه بالإساءة فتلك هى السرقة المعيبة .

وحاصل ما تقدم أن قانون الاتباع والسرقة عند العرب : أن الاتباع

---

(٩١) المسائل والأجوبة لابن قتيبة : ٤٦ .
(٩٢) راجع الموازنة : ٢٤٨/٢ .

اقتدار وصنعة ، والسرقة بلادة وعجز · وقد عرفوا الفرق بينهما منذ وقت مبكر من تاريخ النقد العربى ·

- ٧ -

التقليد هو المحاكاة ، والمقلد هو المحاكى ، والمحاكى يفعل مثل فعل من يحاكيه أو مثل قوله سواء بسواء(٩٣) ، وأصل التقليد فى اللغة يرجع إلى معانى الجمع والضم · يقال : قلد الماء فى الحوض ، واللبن فى السقاء ، والسمن فى النِّحى : إذا جمعه فيه ، والقَلْدُ : لى الشىء على الشىء ومنه قلد الحبل : أى فتله · وقلده الولاية : عهد إليه بها ، وتقلد الأمر : احتمله ، وتقلد السيف : حمله وألزم نفسه به ، والمقلد من الخيل : السابق يقلد شيئا يعرف به أنه قد سبق(٩٤) · وهذا كله وغيره فيه معنى الضم والجمع ، وفى اكثر معانيه القوة · فمن أين صار التقليد محاكاة معيبة يعاب صاحبها ، وينتقص ؟

كنت أظن أن اللفظ بهذا المعنى محدث ، ولكنى وجدته فى نصوص قديمة من كلام الجاحظ ، والمرتضى ، وابن سنان(٩٥) · وربما كان مرجع ذلك إلى الدلالة الشرعية وتفريق الفقه الاسلامى بين المجتهد الذى يتكىء على نفسه فى استنباط الحكم ، وبين المقلد الذى يفزع إلى رأى المجتهد الثقة ويلزم نفسه به لضعف استنباطه ، أو عجزه ·

وذهب بعض الدارسين إلى أن العرب القدماء لم يدركوا مفهوم التقليد من وجهة نظر الفن الجميل(٩٦) وقد عرفت مما تقدم

(٩٣) العين : ٢٥٧/٣ ·
(٩٤) نفسه : ١١٦/٥ ·
(٩٥) رسائل الجاحظ : ١٢٥/١ ، والشهاب ... : ٣ ، وسر الفصاحة : ١٣٥ ·
(٩٦) الدكتور هدارة : مشكلة السرقات : ٢٧٣ ·

من حديث الاتباع أن الاتباع الحسن عند العرب شيء ، والتقليد الذى هو نقل ومحاكاة شيء آخر فإذا كان المقلد لا يصنع شيئا ، ولا يوجب عمله مزية ، فإن المتبع المحسن يصنع شيئا ، وتجب له باحسانه مزية يصير بها مستحقا للمعنى بالاحسان كاستحقاق السابق له بالسبق والابتداع ، بل إنه ليبلغ باحسانه - أحيانا - درجة المخترع ... فإن كان التقليد من وجهة نظر الفن الجميل هو الاتباع بهذا المعنى فقد عرفوه .

والأصل الذى يجمع رأيهم فى هذا الباب أن الاتباع الحسن اقتدار وصنعة ، والتقليد بلادة وعجز . وقد مر ما قاله ابن رشيق من أن الشاعر إذا لم يكن عنده اختراع للمعانى أو توليد لها فاسم الشاعر عليه مجاز ، وما قاله غير واحد منهم من أن على الشاعر الأخذ أن يستجد ويتانق ويصنع فرما أخذ صنعة ينجو بها من الذم والعيب .

ومن نصوص هذا الباب قول الباقلانى : إن من قصد من الشعراء إلى معنى من المعانى ، فليس من حكمه أن ياتى باشياء منقولة ، وأمور مذكورة ، وأن سبيله أن يغرب ويبدع(٩٧) . وهذا وأمثاله دعوة إلى الاجتهاد فى صنعة الشعر لا إلى التقليد . واستحضر ها هنا أيضا قولهم إن باب الابتداع والتوليد فى الشعر مفتوح إلى يوم القيامة .

وهذا ومثله مما يدفع رأى من يقول : إن النقد العربى القديم يؤسس لمبدأ التقليد فى الشعر ، ويرفع بنيانه . ولقد توسع بعض المعاصرين فى ذكر لفظ « التقليد » وأكثروا منه حتى بات من أشنع الألفاظ وأخبثها

---

(٩٧) إعجاز القرآن : ٢٣٨ .

يرمون به كل من خالفهم ، ويصمون به كل من أخذ بشيء من القـديم ولو كان حسنا صوابا ٠

- ٨ -

وكما فرقوا بين ((الاتباع الحسن)) و ((السرقة)) ، فرقوا بينه وبين ((التوارد)) ، فالاتباع الحسن - كما عرفت - أخذ المعنى مع الزيـادة والاحسان ، والسرقة أخذه مع العجز ٠ وفى الحـالتين لابد أن يكون الآخذ - محسنا أو غير محسن - ملما بالمعنى المـاخوذ ، واقفا عليه لأن إلمـامه به ووقوفه عليه شرط فى كونه متبعا أو سارقا ٠

أما التوارد فهو أن يقع للشاعر من المعنى مثل معنى غيره من غير علم به ولا معرفة ، ولا وقوف عليـه ، ولكن كما وقع للأول وقع للثانى فعدم وقوف المتوارد على معنى السابق شرط فى كون عمله تواردا ٠

والعلم بمعنى السابق المبتدع ، الذى هو شرط لكون الآخذ اتبـاعا أو سرقة لا تواردا قد يكون علما حاضرا ، واعتمادا للاخذ وقد يكون عن علم نسى ، أو أخذ بغير وعى ولا قصد حاضر ٠ وذلك أن الشاعر ربمـا مر به المعنى الشريف ، واللفظ النادر من كلام غيره فيعجبه فيأسره ، وحينئذ لا يستطيع فكاكا من أخذه المعنى ، فلا يزال به حتى يصرفه ويولده ، ويأتى به على نحو من الانحاء ، يصير به شريكا فيه ، وقد يمر به المعنى الجيد الفائق فيعجبه فيديره فى نفسه ثم ينساه ، ويأتى عليه الزمن الطويل ، ثم إنه يوجد فى شعره على صورة بينها وبين صورة المعنى الأول سبب ونسب ٠

والآمدى أقدم من أشار من نقـاد الأدب إلى هـذين الضربين من الأخذ : الواعى وغير الواعى - فيما أعلم - وذلك فى معرض حديثه عن أخذ البحترى من معانى أبى تمام لقرب البلدين ، وكثرة ما يطرق سمع

البحترى من شعر صاحبه . قال : فلذا يعلق شيئا من معانى أبى تمام معتمدا للأخذ ، أو غير معتمد (٩٨) .

والشريف المرتضى يخرج الأخذ غير الواعى من الاتباع ويجعله من التوارد ، يقول : إن الشاعر إذا سمع القول ثم نسيه وذهب عنه ، ثم اتفق له مثله لا يقال فيه : أخذ ولا سرقة (٩٩) . ومن رأيى أن نسيان المعنى بعد الوقوف عليه ، وتمثله لا يخرج من الاتباع بمعناه العام ، ولا يكون من قبيل التوارد الصرف ، لأن هذا قد يخل بمعنى الاتباع من أصله لأن أكثر الأخذ هكذا يكون أما وضع المعنى نصب العين ثم أخذه قصدا فليس من همة الشاعر الكبير .

وقد ذكر أبو عثمان الجاحظ أن الوجه النافع من أخذ الشعر أن يدور المأخوذ فى سمع الآخذ ، ويغيب فى قلبه ، ويخيم فى صدره ، فإذا طال مكثه تناكح ثم تلاقح ، فكانت نتيجته أكرم نتيجة ، وثمرته أطيب ثمرة ، وفرق بيّنٌ بين الشيء إذا عشش فى الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، وبينه حين يكون قصدا أو اختيارا ، واعتسافا واغتصابا (١٠٠) .

هذا . وقد ذكرت من قبل أن ابن طباطبا العلوى يشبه الآخذ الحاذق ، والمتبع المحسن بالصائغ الذى يذيب ما صاغه غيره من حلى الذهب أو الفضة ثم يعيده صوغا جديدا (١٠١) .

---

(٩٨) الموازنة : ١/٨ وانظر ص ٥٥ ، وتراصنة الذهب : ٨٣ .
(٩٩) الشهاب في الشيب والشباب : ٧ ، ٣٠ .
(١٠٠) انظر أمراء البيان : ٣١٤ .
(١٠١) انظر ما سبق ص ١٣١ .

ومعرفتهم بالتوارد ، ومشروعية وقوعه في صنعة الشعر قديمة ونصوصهم في ذلك كثيرة ، واقدم نص اعرفه قول مشهور لأبى عمرو ابن العلاء - وقد سئل توارد الشعراء على المعانى ، وتواطئهم عليها - : « عقول رجال توافت على ألسنتها » . ومن اقدمها قول الجاحظ إن الشاعرين قد يتنازعان المعنى ، ثم يجحد الثانى انه سمع به ، ويقول : إنما خطر على بالى كما خطر على بال الأول(١٠٢) .

ثم أكثر نقاد القرن الرابع والخامس من النص على التوارد ونعوا على من عده من باب الاتباع أو السرقة ، قال القاضى الجرجانى (٣٩٢هـ) فى معرض دفاعه عن المحدثين : إن بعض من يتكلم فى شعر المحدثين إذا رأى الشاعر المحدث قد وافق بعض ما قيل ، أو اجتاز منه بأبعد طرف قال : لقد سرق بيت فلان ، وأغار على قول فلان ، ولعل ذلك البيت ما قرع سمعه قط ، ولا مر له بخلد كأن التوارد ، واتفاق الخواطر والهواجس عندهم ممتنع غير ممكن(١٠٣) .

وقال أبو هلال العسكرى (٣٩٥هـ) : إن المتأخر من الشعراء قد يقع له المعنى سبق إليه من غير إلمام به ، ولكن كما وقع لذاك وقع لهذا ، وقال : إن ذلك حدث له هو فى بعض ما قال(١٠٤) .

وتحدث الشريف المرتضى (٤٣٦هـ) عن التوارد فى غير موضع من كتابيه « طيف الخيال » و « الشهاب فى الشيب والشباب » ، وقال : إن الشعر يقع فيه التوارد من غير قصد ولا تعمد ، لأن الخواطر مشتركة ، والمعانى معرضة لكل خاطر ، جارية على كل هاجس ، وكرر

---

(١٠٢) راجع الحيوان : ٣١١/٣ ، ٣١٢ .
(١٠٣) الوساطة : ٥٢ .
(١٠٤) الصناعتين : ١٩٦ .

ما قاله أبو هلال من أن ذلك وقع له في بعض شعره(١٠٥) .

وقال ابن رشيق (٤٦٣هـ) : إن الشاعرين قد يتواردان على المعنى ، ويكون ذلك من باب اتفاق القرائح ، ولا يكون أحد آخذاً من أحد(١٠٦) وكلام من لم أذكر من النقاد في هذا الباب ككلام من ذكرت(١٠٧) .

وزاد الشريف المرتضى في هذا الباب معنى وهو أن « من أخرج إليه خاطره بعض المعاني من غير أن يكون سمعه ولا قرأه ولا احتذاه ، فله فضل الاستخراج والاستنباط الدالين على قوة الطبع وصحة الفكر ، وما عليه بعد ذلك أن يكون قد تقدمه متقدم فيه فوقع التوارد فيه من غير عمد ، فإن تجويز ذلك لا يسلب مدحا ، ولا ينقص فضلا »(١٠٨) .

ولابن رشيق أيضا زيادة في هذا الباب ، وذلك أنه حاول أن يفسر وجه وقوع التوارد في الشعر فقال : « والذي أعتقده ، وأقول به ، أنه لم يخف على حاذق بالصنعة أن الصانع إذا صنع شعرا في وزن ما وقافية ما ، وكان لمن قبله من الشعراء شعر في ذلك الوزن ، وذلك الروي ، وأراد المتأخر معنى بعينه ، فأخذ في نظمه = أن الوزن يحصره والقافية تضطره ، وسياق الألفاظ يحدوه ، حتى يورده نفس كلام الأول ومعناه ، حتى كأنه سمع به وقصد سرقته ، وإن لم يكن سمعه قط »(١٠٩) وهذا كلام حسن ضارب في لباب صنعة الشعر ، لأن

---

(١٠٥) انظر طيف الخيال : ٨٩ ، ٩٠ ، ٦٣ والشهاب : ٣٠ ، ٧

(١٠٦) قراضة الذهب : ٨٤ .

(١٠٧) راجع الباقلاني في الاعجاز : ٨١ ، وابن وكيع في المنصف : ٣١ ، ١٠٠ والعلوي في الطراز : ١٧٠/٣ وابن الأثير في المثل السائر : ٣١٥ وغيرهم .

(١٠٨) طيف الخيال : ٩٠ .

(١٠٩) قراضة الذهب : ٨٦ .

للمعانى والألفاظ والأوزان مجارى يدفع القائل إليها ، شريطة أن يكون ذلك قليلا غير مطرد ولا كثير لأنه إن اطرد وكثر وجب ألا تتباين الأشعار فى المعنى الواحد وهذا غير حاصل ، ثم إنه نقض لمعنى الاتباع ، ومن هنا قال ابن وكيع : إن مبنى التوارد على اليسير دون الكثير(١١٠) أى إنما يتسامح فى اليسير منه دون الكثير ، وقال ابن الأثير : إن التوارد الذى يقع على المعنى واللفظ معا من أقل القليل لأنا إن سوغنا اتفاق الخواطر فى استنباط المعانى ، فكيف نسوغ اتفاق الألسنة فى صوغ الألفاظ(١١١) .

والناظر فيما تقدم يقف على جملة من المقاصد استنبطها النقاد القدماء فى باب التوارد :

١ ـ أن التوارد ممكن فى صنعة الشعر عقلا وواقعا ، والأصل فى هذا عبارة أبى عمرو بن العلاء رحمه الله ـ وما بعدها شروح عليها وزيادات . أما عقلا فلأن العقل لا يمنع اتفاق الخواطر ، وتلاقى الهواجس والمشاعر ، وأما واقعا فلأن الشعراء منهم من أخبر عن نفسه بأنه ربما وقعت له معان وهى لغيره قبله ـ من غير أن يلم بها ، ومن أخبر منهم عن نفسه ناطق عمن لم يخبر إذ باب الشعر واحد . وقد يعترض على هذا بأن الشاعر يقع له المعنى ثم ينساه لطول عهده به . ثم يلقى على لسانه يوما من عقله الباطن فيظن نفسه مبتدعا له ، وهو فى حقيقة الأمر منتفع فيه . وهذا اعتراض قوى ، وأحر به أن يضيق من دائرة التوارد كما قلنا .

---

(١١٠) المنصف : ١٠٠ .
(١١١) المثل السائر : ٣١٥ .

٢ ـ أن التوارد ليس اتباعا فنيا ، فلا يفاضل فيه بين السابق والتالى على أساس من السبق والاتباع ، وليس سرقة فلا يعاب التالى فيه ولا يرمى بالسرقة لأن العلم بالمأخوذ شرط فى الاتباع والسرقة كما تقدم . وهذا من إنصافهم ، وهو تضييق لباب السرقة .

٣ ـ أن الشاعر إذا ألم بالمعنى ، ثم نسيه ، ثم وقع على لسانه كان اتباعا أو تواردا على خلاف بينهم فى ذلك . وأن يعد اتباعا أقرب عندى .

٤ ـ أن الشاعر المتوارد مبتدع للمعنى مخترع فى الحقيقة ـ عند الشريف المرتضى ـ إذ كان لم يعلم بمعنى السابق . وهذا من انصاف الشريف . وهو توسيع لدائرة الابتداع .

٥ ـ أن للتوارد أصلا فنيا ـ عند ابن رشيق ـ وهو أن للمعانى والألفاظ والأوزان إذا أخذ فيها مساقات يساق القائل فيها ، ومضايق يدفع إليها .

٦ ـ ان التوارد ليس بابا مطردا ـ وهذا قول ابن وكيع وابن الأثير وهو مفهوم من كلام الجاحظ والقاضى الجرجانى قبلهما ـ بل هو قليل إذا كان واقعا على المعانى ، فإذا كان واقعا على المعانى وشىء من الألفاظ معا فهو أقل من القليل .



فمن تدبر هذه الآراء وجمعها إلى ما أصله القدماء فى باب الابتداع ، وباب الاتباع ، وباب السرقة ، وأضاف إليها ما يأتى فى تضاعيف ما بقى من البحث استقر عنده أن القوم قد فرّقوا بين صور تشاكل المعانى الشعرية ، ولم يخلطوا ، وجدوا فى البحث عن دقائقها ولم يهزلوا ، وأنهم جمعوا فى ذلك نظرية بعضها آخذ بأطراف بعض ، وأنهم أصابوا فى مباحث هذا الباب كثيرا من لُباب صنعة الشعر .

* * *

وربما كان الأصل فى عنـاية نقاد المـائة الرابعة والخامسة ببيان معنى التوارد والاحتجاج لصحة وقوعه فى الشعر ، والنص على أنه ليس أخذا ولا سرقة ، وإن كانت المعرفة بذلك قديمة = راجعا إلى تطور أصـاب طبيعة الحـكم النقـدى فى باب الابتداع والاتباع ٠ فالحـكم على شاعر بأنه سـبق وابتدع ، وعلى غيره بأنه اتبع فأحسن ، أو سـرق فقصر يقتفى سـعة فى الرواية ، واستفاضة فى الحفظ ، وسـلامة فى الذوق ، وقوة فى التمييز حتى تكون « خريطة » الشعر فى عقل الشاعر مصورة ، ومعانى الشعراء فى المعنى الواحد محضرة ، وما بينها من أرحام - وإن دقت - ظاهرة ٠٠٠ وذلك باب جد عسير ٠ ولذلك كان نقاد الطبقات الأولى ربما أقدموا على الحـكم للشاعر بالسبق أو الاتبـاع فأصابوا ، ينصرهم فى ذلك سـعة الرواية ، وقوة الحفظ ، وأن ديوان الشعر العربى كان لمـا يغزر ويتسع ٠ ولـم يكن حكمهم مـع ذلك من المقطوع بصـحته ، بل كان اجتهادا يصيب ويخطىء بدليل أن بعضهم استدرك على بعض ، ولكنهم كانوا - إجمالا - أقل إقداما على هـذا الضرب من الحـكم ، وأكثر أصابة فيما أقدموا عليه منه ٠

فلما انتهى الأمر إلى نقـاد الطبقات المتأخرة من أهل المـائة الرابعة وما بعدها كان ديوان الشعر العربى قد غزر واتسع ، والرواية قد نضب معينها إلا قليلا ، وأصبحت القراطيس - لا الصدور - أوعيـة الأشعار ، وتكلم فى الشعر من لا يحسنه ، واتسعت فتنة السرقات فلج بعض النقاد فى الحـكم على الشعراء بالأخذ والسرقة ، أو بالاختـراع والابتداع ، وأقدموا على ذلك وأكثروا منه ، وصارت لجاجة ، ونفـق سوق العصبية ، فنهض لهـذا رجـلان يقيمان الوزن بالقسط ، وهمـا القاضى الجرجانى ، والشريف المرتضى ٠

أما القاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) فقال : إن اتساع ديوان الشعر العربي ، وكثرة معانيه تمنعانه - وكذا غيره من النقاد - من أن يتسرع في الحكم بالابتداع أو يعجل به ، وإنما يفاضل بين المراتب ، ويذكر المقدم والمؤخر ، ويميز ما يقرب عنده من الإبداع عما يشهد عليه بالأخذ(١١٢) . ويقول في نص أطول وأوضح : إنه لن يقدم على النص على البديع ، والمعنى المخترع في شعر المتنبي كما فعله من استهدف للألسنة ، ووضع نفسه موضع التهمة ، فقال : معنى فرد ، ولم يسبق فلان إلى كذا ، وانفرد فلان بكذا « لأني لم أدع الإحاطة بشعر الأوائل والأواخر ، بل لم أزعم أني تصفحته سماعا وقراءة فدع الحفظ والرواية ، ولعل المعنى الذي أسمه بهذه السمة ، والبيت الذي أضيفه إلى هذه الجملة في صدر ديوان لم أتصفحه ، ولم أعثر بذلك السطر منه ، أو عساني أن أكون رويته ثم نسيته ، أو حفظته لكني أغفلت وجه الأخذ منه ، وطريقة الاحتذاء به وإنما أجسر في الوقت بعد الوقت فأقدم على هذا الحكم انقيادا للظن ، واستنامة إلى ما يغلب على النفس . فأما اليقين والثقة ، والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه »(١١٣) . وهذا كلام يحدوه الفقه والورع ويمليه العلم والعدل .

ومن الواضح أن القاضي لا يبطل أصل الحكم على الشعراء بالابتداع والسبق ، بل هو يذكر الدواعي التي وجدت ، والطوارىء التي طرأت فأوجبت على الناقد ألا يعجل إلى هذا الضرب من الحكم . وهي بينة في كلامه .

---

(١١٢) الوساطة : ١٣٧ .
(١١٣) نفسه : ١٦٠ وانظر ص : ٢١٥

وكرر الشريف المرتضى (٤٣٦هـ) كلام القاضى أو قريبا منـه فى غير موضع من كتابه « طيف الخيال » . ونقل ما قاله القاضى فى ابتداع المعانى إلى سرقتها فقال : « وكما قلت فى كثير من كتبى وأمالى إنـه لا ينبغى لمنصف أن يقول : هذا البيت مسروق المعنى من فلان لأنه قاطع على ما لا يأمن أن يكون كذبا ، فربما تواردا فيـه من غير قصـد ، والأولى أن يقال هذا نظيره وشبيهه(١١٤) .

وهكذا فإن الحكم النقدى فى مسائل الابتداع والاتباع والسرقـة قوامه الحفظ ، وسعة الرواية والضبط ، وحضور الذهن فإذا عدمت هذه أو ضعفت لم يحسن بالناقد أن يقدم على هذا الضرب من الحـكم قاطعا لأنه لا يأمن على نفسه حينئذ من الكذب ، وفساد الرأى .

- ٩ -

والاتباع - عنـدهم - على صـورتين : جـلى منكشـف ، وخـفى محتجب : فالجلى هو الذى أعطى نفسه ، ودل عليها ، فتساوت الأقدام فى معرفته ، وميزة الحاذق من النقاد وغير الحاذق . وذلك عنـدما يأخذ المتبع ظاهر معنى السابق ، أو بنية كلامه ، وأسلوبه ثم لا يخفى أخذه بأى وجه من وجوه الإخفاء . والاتباع الخفى هو الذى ســتره صاحبه إلا عن البصير بأنساب المعانى الشعرية ، وما بينها من أرحـام ، وأواصر وذلك عندما يأخذ الشاعر المعنى الذى سبق إليـه ثم يتصرف فيه ، ويخفيه بوجه من وجوه إخفاء المعنى .

وربما كان القاضى الجرجانى أول من نص بكلام صريح على الفرق بين الصورتين ، وتحدث عنهما فى غير موضع من كتاب « الوساطة » .

---

(١١٤) طيف الخيال : ٨٩ .

وشاركه فى هذا معاصره أبو هلال العسكرى . ولكن التفريق بين الصورتين مفهوم ضمنا من كلام سلفهم من النقاد . قال القاضى : إن أول ما يلزم الناقد فى باب الأخذ الا يقصره على ما ظهر ، ودعا إلى نفسه ، دون ما كمن ونضح عن صاحبه . والا يكون جل همه فى تتبع الأبيات المتشابهة ، والمعانى المتناسخة ، وأن يطلب التشابه فى الألفاظ والظواهر دون الأغراض والمقاصد . قال : ولن يكون الناقد كامل الأداة قويها حتى يعرف التناسب بين قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يَوْماً أن ترد الودائع

وقول الأفوه الأودى :

إنما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

وإن كان الأول ذكر المال والولد وجعلهما وديعة ، والثانى ذكر الحياة وجعلها عارية (١١٥) .

ونعى القاضى فى موضع آخر على من لا يعرف الأخذ إلا فى السافر الظاهر الذى أخذ فيه اللفظ والمعنى ، ونقل البيت بجملته ، أو المصراع بتمامه (١١٦) وقال فى موضع ثالث : إن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه ، أو عن وزنه ونظمه ، أو عن رويه وقافيته ، فاذا مر بالغفل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن عرف ما بينها من قرابة ونسب (١١٧) . وقال أبو هلال - وهو شبيه بعبارة القاضى الأخيرة - : « والحاذق يخفى دبيبه إلى المعنى ، يأخذه فى

---

(١١٥) الوساطة : ١٦١ ببعض التصرف .
(١١٦) السابق : ١٥٥ .
(١١٧) نفسه : ١٦٤ وفى النص تصحيف فى الأصل .

مثرة فيحكم له بالسبق أكثر من يمر به »(١١٨) .

وفى كلام القاضى وأبى هلال عدة معان : **أولها :** أن الشاعر الحاذق قد يدب إلى المعنى فيصرفه ، ويصنعه ، فيلبسه حتى على البصير ، بحسن تصرفه ، وجودة صنعه ، ولطف إخفائه وذلك بوسائل ذكر منها القاضى هنا تغيير النظم والوزن ، والقافية والروى ، وذكر منها فى موضع آخر : النقل ، والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، والزيادة على المعنى والبناء عليه إلى غير ذلك(١١٩) . وهذا كلام ينضم إلى ما قلته عن مشروعية الأخذ الفنى فى النقد العربى القديم ، وأن ليس كل أخذ عندهم سرقة ، ولا كل اتباع بلادة **وثانى** تلك المعانى : أن الحذق فى النقد إنما يكون بالوقوع على ما بين المعانى المتواطىء عليها من أنساب خفية ، وأواصر عصية ، وأن من لا يقع على هذا غفل فى النقاد ملصق بهم وليس منهم . وهذا ينفى عن النقاد العرب القدماء تهمة أنهم لم يعرفوا من الاحتذاء الفنى إلا أخذ المعنى كما هو ، ونقل اللفظ بتمامه ، وما أشبه هذا . **الثالث :** أن إخفاء المعنى ولطف الدبيب إليه قد يجعل الحكم على المعانى بالابتداع أو الاتباع بابا من الحكم عسيرا .. وهذا ينتهى إلى ما قاله القاضى نفسه فى موضع آخر من أن الحكم على ما بين المعانى من أنساب يقتضى أدوات جمة من الرواية ، وقوة الحافظة وسعتها ، وحضور الذهن ، وصحة الذوق ، ولطف التهدى إلى دقائق الفوارق .. ولذا لا ينبغى التسرع إليه ، والاقدام عليه . أو الاكثار منه والولوغ فيه .

---

(١١٨) الصناعتين : ١٩٨ .
(١١٩) انظر الوساطة : ١٧٠ .

وقد ذكر ابن حنى أن المتنبى حدثه أن أبا الفضل جعفر بن حنزابة وزير كافور قال له يوما . أعلمت أنى أحضرت كتبى كلها - وكان من أكثر النـاس كتبا - وجماعة من الأدباء يطلبون لى من أين أخـذت قـولك :

ازورهم وسواد الليـل يشـفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فلم يظفروا به . قال ابن جنى : ثم إنى عثرت بالموضع الذى أخذ منه المتنبى وهو قول ابن المعتز :

فالصـبح نـمّامة والليـل قـوّاد (١٢٠)

فانظر إلى ما يدل عليه هذا الخبر من عسر تخليص انساب المعانى الشعرية ، وأنه باب من أبواب نقد الكلام دقيق .

هذا والمعول عليه فى تقسيم الأخذ والاتباع إلى جلى وخفى ما يكون للأخذ المتبع من صنعة فى المعنى وتصريف ، ولذا فإن الاتباع الجـلى لا يدل فى الجملة على كبير صنعة ولا يوجب لصاحبه - غالبا - كثير مزية .. ثم هو نفسه مراتب فقد يعلو الشاعر المتبع فى الإخفاء والصنعة حتى يقـارب الاتباع الخفى المصنوع . وقد يسفر سفورا شديدا ، وينحط انحطاطا ظاهرا ، حتى يقـارب السرقة المذمومة ، أو يكون هو هى .

والأمثلة لذلك فى كلامهم كثيرة جدا . فمن ذلك قول الآمدى : إن قول أبى تمام :

نم فما زارك الخيـال ولكنك بالفكر زرت طيف آخيـال

من قول جـران العود :

أهلاً بطيفك من زور اتاك به حديث نفسك عنـه وهو مشغول

(١٢٠) ترجمة المتنبى من تاريخ دمشق لابن عساكر عن المتنبى لشاكر : ٣٣٧/٢ .

قال : وقول جران العود : (وهو مشغول) ، يعنى لم يزرك على الحقيقة ، فبنى الطائى على هذا قوله : (ما زارك الخيال) وبنى قوله (ولكنك بالفكر زرت طيف الخيال) على قول جران : (أتاك به حديث نفسك) ثم قال : « فالمعنى كله لجران العود ، وإنما غير أبو تمام اللفظ »(١٢١) . فهذا أخذ ظاهر يقارب الخفى ، لما فيه من تغيير اللفظ وحسن الصنعة .

ومن ذلك ما رووه ، وأودعوه الكتب من تواطىء جميل وجرير على معنى لنصيب : قال نصيب فى هزال الناقة ، وفناء شحمها ولحمها :

اضر بها التهجير حتى كانها　　اكب عليها جاذر متعرق

فقال جميل :

اضر بها التهجير حتى كانها　　بقايا سلال ، لم يدعها سلالها

فقال جرير :

إذا بلغوا المنازل لم تقيد　　وفى طول الكلال لها قيود

وقد حكم لجرير بهذا المعنى ، وذهب به(١٢٢) .

فجميل أخذ بنية بيت نصيب ، ونقل شطره ، ولكنه كأنه لم تعجبه الصورة التى عبر بها عن الهزال وهى (كانها اكب عليها ...الخ) ، فوضع فى موضعها صورة أخرى هى (كانها بقايا سلال ...الخ) وصورة جميل عندى أصح موقعا من النفس ، وأدل على المراد . وكلاهما قصد إلى الهزال صراحة وأراد لازمه وهو الكلال ، والمتابعة ظاهرة أما

---

(١٢١) الموازنة :
(١٢٢) الأغانى : ٢٨٠٥/٨ وأمالى المرتضى : ٥٨٠/١ .

جرير فقد تصرف ، وأحسن ، وأخفى ، وصرح بذكر الكلال ، وترك الهزال مفهوما . فهذا مثال جمع بين اظهار الأخذ وإخفائه . وإنه ليقوم في نفسي أن معنى جرير من قول امرىء القيس : « قيد الأوابد » فإن كان كذلك فإنه أبعد في الأخذ جدا .. ودب إليه أخفى دبيب .

وقد يظهر الأخذ ، ويفتضح الآخذ ، حتى يكون الكلام هو هو وقد ذكر عبد القاهر من ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يجيء حديثها بخير ، وقد أعيا كليبا قديمها ؟

وقال إنه احتذى فيه على قول الفرزدق :

أترجو ربيع أن تجيء صغارها
بخير ، وقد أعيا ربيعا كبارها ؟(١٢٣)

وبنية الكلام كما ترى واحدة ، وليس للثاني فضل صنعة ... ، ولا تكاد أمثلتهم في الأخذ الظاهر المستعلن تخرج عن هذا .

وأما **الأخذ الخفي** فهو باب الصنعة في حسن الاتباع ، ومزرعة الإحسان في توليد المعاني ، وتصريفها . وقد سماه النقاد المتأخرون « الملاحظة » . وأصل التسمية واضح لأن اللحاظ : مؤخر العين ، واللَّحْظة : خفي النظرة(١٢٤) .

وقد تقدم قول القاضي : إن المتبع يخفي المعنى بنقله ، أو قلبه ، أو تغيير منهاجه ، أو غير ذلك من وجوه إخفاء المعنى ، واستجداد صورة له يبدو بها كأنه معنى جديد ، وهو من الأول عند التحقيق .

---

(١٢٣) دلائل الاعجاز : ٣٠٥ .
(١٢٤) العين : ١٩٨/٣ .

وقد أكثروا الأمثلة فى هذا الباب من الأخذ جدا(١٢٥) . فمن أمثلته عند الآمدى قول البحترى من أبيات :

لولا التفجع لادعى هضب الحمى وصفا المشقر أنه محزون

قال : « وهذا المعنى غاية فى حسنه وجودته ، وإنما حذا على قول الأحوص :

إذا كنت غرهاة عن اللهو والصبا فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

ولكنه عبر عنه بعبارة أغرب فيها ، حتى صار كأنه ليس ذلك المعنى ، وهو هو بعينه »(١٢٦) . ومراد الأحوص أن الذى يعرف به عشق العاشق من الناس نطقه عن ذات نفسه ، وركوبه أفراس اللهو والصبا وما يقتضيه ذلك من فعل وقول ولولا هذا لما باين الحى الحجر الأصم ، ولا اختلف قلب هذا عن قلب ذاك .. فأخذ البحترى هذا المعنى ونقله من الحب والعشق إلى الفجيعة والفقد ، وأغرب فى العبارة ، فأخفى الأخذ ، وستر المتابعة .

ومن أمثلته عند القاضى الجرجانى قول أبى نواس :

خليت والحسن تأخذه تنتقى منه وتنتخب

فاكتست منه طرايفه واستزادت فضل ما تهب

وقول عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكما عليهم تخير فى الأبوة ما تشاء

قال : فأحد البيتين هو الآخر فى المعنى ، وإن كان أبو نواس

---

(١٢٥) راجع الصناعتين : ١٩٨ وما بعدها ، وقراضة الذهب : ٩١ وما بعدها ، ودلائل الاعجاز : ٣٣١ وما بعدها .

(١٢٦) الموازنة : ١٢١/٢ .

يتخيرُ الحسن ، وعبد الله يتخيرُ الأبوة ، قال : وهما معـا من قـول بشـار :

خلقت على ما فِيَّ غيرَ مخير هواي . ولو خيرت كنت المهذبا

ثم أخذ أبو تمام المعنى فأخفاه ، فقال :

ولـو صورت نفسـك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع(١٢٧)

فهذا من الأخذ الذى خفى لتغيير المنهاج وبعد المناسبة .

وانظر الآن كيف تتناسل المعانى ، وتتـوالد الصـور ، وتنعقـد القرابات . وانظر إلى لطف إدراك القاضى - رحمه الله - لهذه الأنساب والأرحام والقرابات . وليتامل الزارى على القدماء أتراه لو خلى ونفسه عرف الرحم الموصولة بين هذه الأبيات ، وهدى إلى دبيب هؤلاء الفحول إلى معنى بشـار ؟

ومن إخفاء الأخذ صرف المعنى من باب من أبواب الشعر إلى باب آخـر ، ويسمى المتأخرون هذا النوع : **الاختلاس أو نقـل المعنى** ، والاختلاس : أخذ الشيء مكابرة ، وفى معناه الاجتذاب(١٢٨) . وكأن الشاعر بنقل المعنى بات كالمستحق الذى يرى لنفسه حقا . وأمثلتـه كثيرة جدا لأن النقل أحد أبواب صنعة الاتباع الشعرى .

فمن أمثلته عند الآمدى قول أبى تمام :

سما العـلا من جانبيها كليهما سمو عباب المـاء جاشت غواربه

وقول امرىء القيس :

سموت إليهـا بعـد ما نام أهلها سمو حباب المـاء حالا على حال

---

(١٢٧) انظر الوساطة : ١٦٤ .
(١٢٨) العين : ١٩٧/٤ .

قال : إن أبا تمام أخذه من امرىء القيس ، وعدل به إلى وجـه المـديح(١٢٩) .

ومن أمثلته عند القاضى الجرجانى قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقول أبى نواس :

ملك تصور فى القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مثال

قال : فإن العالم بالشعر . البصير بأنساب المعانى لا يشك فى أن قول أبى نواس من قول كثير ، وإن كان معنى هذا نسيبا ، ومعنى ذلك مديحا(١٣٠) .

وعدّ ابن رشيق من نماذجه قول زهير فى نعت الفرس :

بذى ميعـة لا موضـع الرمح مسلَم لبطء ولا ما خلف ذلك خـاذله

فأخذه القطامى فنقله إلى صـفة الابل - وهو بالنساء أشـبه كما قالوا - وصنعه أحسن صنعة ، فجاء به ذهبا إبريزا فقال :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل(١٣١)

وعد عبد القاهر من نقل المعنى قول أبى نواس :

تتـــأيى الطـير غدوته ثقـة بالشـبع من جزره

بعد قول النابغة - وهو الأصل :

إذا ما غدا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدى بعصائب

---

(١٢٩) الموازنة : ٨١/١ .
(١٣٠) الوساطة : ١٦٤ .
(١٣١) قراضة الذهب : ٦٧ وانظر مثالا آخر فى ١١٦

جـوانح قـد أيقن أن قبيـــله إذا ما التقى الحيان اول غالب

قال : إن أبا نواس « نقل المعنى من صورته التى هو عليها فى شعر النابغة إلى صورة أخرى ، وذلك أن ها هنـا معنيين أحـــدهما أصل وهو علم الطير بان الممدوح إذا غزا عدوا كان الظفر له ، وكان هو الغالب ، والآخر فرع وهو طمع الطير فى أن تتسع عليها المطـاعم من لحوم القتلى . وقد عمد النابغة إلى الاصل الذى هو علم الطـير بان الممدوح يكون الغالب فذكره صريحا ، وكشف عن وجهه ، واعتمد فى الفرع الذى هو طمعها فى لحوم القتلى وانها لذلك تحلق فوقهم عـلى دلالة الفحوى . وعكس أبو نواس القصة فذكر الفرع الذى هو طمعهـا فى لحوم القتلى صريحا فقال - كما ترى « **ثقـة بالشبع من جـزره** » وعول فى الأصل الذى هو علمها بأن الظفر يكون للممدوح على الفحوى . ودلالة الفحوى على علمها بان الظفر يكون للممدوح هى فى أن قـال : « من جزره » وهى لا تثق بأن شبعها يكون من جزر الممدوح حتى تعلم أن الظفر يكون له »(١٣٢) . وهذا ضرب من النقل خفى فنى كما ترى ، وتحليل الشيخ له بارع وبصير .

وذكروا من نقل المعنى نقله من الشعر إلى النثر ، ومن النثر إلى الشعر(١٣٣) . ويدخل فى هذا الرسالة الحاتمية فيما وافق فيه المتنبى

---

(١٣٢) دلائل الاعجاز : ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(١٣٣) راجع الصناعتين : ٢١١ وما بعدها وقراضة الذهب : ٩٥ وما بعدها .

معانى أرسطو فى الحكمة .. للحاتمى(١٣٤) وهى بحث فى الاتباع المقارن . وندع هذا الضرب من النقل الآن لأنه يقتضى بحثا مفردا .

ومن إخفاء المعنى أن ينقض الشاعر معنى الأول ويقلبه ، وجعل القاضى الجرجانى منه قول المتنبى :

أأحبه وأحب فيه ملامة
إن الملامة فيه من أعدائه

قال : قد نقض فيه قول أبى الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذة
حبا لذكرك فليلمنى اللوم

والأصل فيه قول أبى نواس :

إذا غاديتنى بصبوح عذل
فممزوجا بتسمية الحبيب
فإنى لا أعد اللوم فيه
عليك إذا فعلت من الذنوب(١٣٥)

ومن قلب المعنى ، وتغيير المقصد عند القاضى أيضا قول ذى الرمة:

رجيعة أسفار كأن زمامها
شجاع على يسرى الذراعين مطرق

وقول المتنبى :

تجاذب فرسان الصباح أعنة
كأن على الأعناق منها أفاعيا

---

(١٣٤) انظر نشرة فؤاد البستاني : المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٣١ .
(١٣٥) الوساطة ١٦٥ .

قال القاضى : فابو الطيب قلب المعنى ، وزاد فى صنعة التشبيه ، وجاء بغرض ومقصد لم يتعرض له ذو الرمة ، وكلام القاضى على إحكامه يقتضى شرحا فإن ارتضيت شرحى له فخذه مثالا لكيفية فهم كلام الأوائل ، وقس عليه نظائره مما جعلوا فيه الإشارة فى موضع التصريح ، والإجمال فى موضع التفصيل ، واعرف به ما لم ينصوا عليه مما نصوا عليه ، وما كان فى عقولهم ولم يبلغنا خبره ، أو يفصح عنه اللفظ بما بلغنا خبره ودل عليه القول .

أراد ذو الرمة أن يصف كلال الناقة وإعياءها فجاء بالصورة الدالة على هذا فقال : ان الناقة ضعفت قواها فخف مرحها ، وسكتت حركتها وفتر نشاطها فلم تعد تجاذب راكبها الزمام فالقاه على يسرى ذراعيها لأن التعب قام لها مقام الزمام . وهذه صورة أخرى لقول جرير :

إذا بلغوا المنازل لم تقيد
وفى طول الكلال لها قيود

فجاء أبو الطيب فنقل المعنى من الناقة إلى الخيل ، وقلبه من الدلالة على الكلال إلى الدلالة على المرح والنشاط ، وعبر بتحرك الأعنة على الأعناق وتلويها تلوى الأفاعى عن تدفق الخيل ونشاطها وسورة مرحها ، ولا تنس لذى الرمة قوله : **رجيعة أسفار** وقوله : **على يسرى الذراعين** فذكر اليسرى دليل على أن الراكب أمن مرحها وتركها لكلالها ولا تنس لأبى الطيب قوله : **تجاذب فرسان الصباح** فالخيل هى التى تجاذب وتجاذب من ؟ فرسان الصباح ... وهذا على الجملة مثال للأخذ المفتن ، وصنعة الحاذق . ونقض المعنى وقلبه فى الشعر كثير .

وعد ابن رشيق من الاتباع الخفى الذى بعدت فيه المناسبة أن يورد الشاعر لفظا لمعني فيفتح به لغيره معنى سواه لولاه - أي اللفظ - لم

ينفتح للمتبع ذلك المعنى ، وعد له جملة من الأمثلة ، وزعم أن أحدا من المؤلفين قبله لم يسبقه إلى التنبيه على هذا الوجه من الأخذ والاتباع(١٣٦) . ومما ذكره قول النابغة :

فى ساعة فيها الجفون سواكن

قد شمن أعينهن فى الأغماد

قال : إن هذا هو الذى فتح لأبى الطيب المتنبى الباب إلى قوله :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها

من أنها عمل السيوف عوامل(١٣٧)

يريد أن استعارة الأغماد للجفون فى بيت النابغة هى التى أوحت لأبى الطيب أن يحرك المعنى فيقول : إن جفون العين لم تسم جفونا إلا لأن العيون فواعل بالقلوب فعل السيوف بالرقاب .

ومن طرائف صور الاتباع التى أشار إليها ابن طباطبا اتباع الشاعر نفسه وذلك بأن يبتدع الشاعر معنى فيحسن فيه ويعجبه فيكرره فى شعره على عبارات مختلفة وبصور شتى(١٣٨) . وهذا يفتح بابا من النظر فى بيان الشعراء طريفا وعجيبا .

***

وأما الوجوه التى يقع فيها الاتباع : جليه وخفيه فهى : الاتباع فى (**المعنى**) والاتباع فى شىء يتعلق (**بصنعة العبارة**) ، وقد تقدمت أمثلتهما . ووجه ثالث وهو الاتباع فى (**الأسلوب**) ، ويسمونه (الاحتذاء) نقل عبد القاهر عن أبى هلال العسكرى من كتاب (**صنعة الشعر**) عن ابن الرومى أن البحترى قال له : إن قول أبى نواس :

---

(١٣٦) راجع قراضة الذهب ٤٣ - ٤٨ .
(١٣٧) السابق ٤٨ .
(١٣٨) عيار الشعر ٨٣ ، وانظر فيها الأمثلة التى ضربها .

ولم ادر من القى عليه رداءه
سوى انه قد سل من ماجد محض

قال ابن الرومى : فقلت للبحترى : قد اختلف المعنى . فقال : أما ترى حذو الكلام حذوا واحدا (١٣٩) ؟! . وذكر الباقلانى فى حديثه عن (الاستطراد) أو (المستطرد) قول أبى تمام - وأنشده البحترى :

وسابح هطل التعداء هتان
على الجراء امين غير خوان
اظمى الفصوص ولم تظما قوائمه
فخل عينيك فى ريان ظمآن
ولو تراه مشيحا والحصى فلق
بين السنابك من مثنى ووحدان
ايقنت - إن لم تثبت - إن حافره
من صخر تدمر او من وجه عثمان

قال : وسأل أبو تمام البحترى عن هذا المذهب من الشعر . ما هو ؟ فلم يعرفه فقال له : هو المستطرد أو الاستطراد . أراك انه اراد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان بن ادريس الشامى . فقال البحترى بعدها :

ما إن يعاف قذى ولو اوردته
يوما خلائق حمدويه الاحول

فقيل له : اخذت معنى أبى تمام !! فقال : « ما يعاب على أن آخذ منه وأتبعه فيما يقول » (١٤٠) .

---

(١٣٩) دلائل الاعجاز ٣٠٦ ، وانظر دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ١٦ .
(١٤٠) إعجاز القرآن ١٠٥ .

فأبو عبادة البحترى(١٤١) من أقدم من نص على الاتباع فى الأسلوب ، ومنزع الكلام ، ومن بعده قال عبد القاهر : إن الاتباع فى الأسلوب هو (الاحتذاء) - ومن الواضح أن اللفظ للبحترى - قال : « وهو عند أهل العلم بالشعر أن يبتدىء الشاعر فى معنى له وغرض أسلوبا - والأسلوب هو الضرب من النظم والطريقة فيه - فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجىء به فى شعره ... فيقال : قد احتذى على مثاله » وذكر لذلك أمثلة(١٤٢) .

هذا عن اتباع شاعر لأسلوب شاعر آخر فى معنى من المعانى .

ومن الاتباع فى الأسلوب أيضا أن يتبع شاعر شاعرا أخر فى مجمل أسلوبه فى شعره وطريقته فى نظمه ، ومذهبه فى فنه . ويقول الدكتور هدارة : أن هذا من جملة فنون الأخذ عند الأوربيين ، وإنهم يسمونه (التأثر)(١٤٣) ومعرفة النقد العربى بهذا الضرب قديمة قدم قولهم: إن زهيرا رأس مدرسة فى التحكيك والتجويد تذهب مذهبه ، وتحذو حذوه . وقول الآمدى فى البحترى : « وعن أبى تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى »(١٤٤) . ومن أوضح نصوصه قول حازم القرطاجنى : « ومن الشعراء من يمشى على نهج غيره فى المنزع ، ويقتفى فى ذلك أثر سواه ، حتى لا يكون بين شعره وشعر غيره ممن حذا حذوه فى ذلك كبير ميزة ، ومنهم من اختص بمنزع يتميز به

---

(١٤١) وذكر اسامة بن منقذ الاستطراد وقال : نبه عليه أبو تمام والبحترى : البديع ٧٥ .

(١٤٢) دلائل الاعجاز ٣٠٥ .

(١٤٣) مشكلة السرقات ٢٣٨ .

(١٤٤) الموازنة ٦/١ .

شعره من شعر سواه نحو منزع مهيار ، ومنزع ابن خفاجة »(١٤٥)
والمنزع عنده هو : « الهيئة الحاصلة من كيفيات مآخذ الشعراء فى
أغراضهم ، وأنحاء اعتماداتهم فيها ، وما يميلون بالكلام نحوه أبدا ،
ويذهبون به إليه »(١٤٦) . هذا وقولهم : إن الاتباع يكون فى الأسلوب
ـ الأسلوب بعامة ، أو فى معنى من المعانى ـ يفهم منه أن الابتداع أيضا
يكون فى الأسلوب . فيسبق الشاعر إلى أسلوب من أساليب القول ،
أو منزع من منازعه يؤخذ عنه ويتبع فيه .

***

ذكرت من قبل(١٤٧) قول حازم القرطاجنى : إن مراتب الشعراء
فيما يلمون به من المعانى أربع : **اختراع ، واستحقاق ، وشركة ،
وسرقة** . وهذا القول يكاد يلخص نظرية الابتداع والاتباع فى النقد
العربى ، وصريح عبارة حازم أن مراتب الأخذ ثلاثة : الأخذ مع
الإحسان ، وجودة الصنعة وهو : (الاستحقاق) ، والأخذ مع اقتسام
الأخذ والسابق الإحسان ، وتساويهما فيه ، وهو : (حسن الشركة) ،
والأخذ مع العجز عن درجة السابق وهو : (سوء الشركة) و (السرقة)
وزاد غير حازم(١٤٨) مرتبة رابعة وهى اشتراك الآخذ والسابق فى
الإساءة ، بدأبها الأول فقفى الثانى على أثره . وكأنما هذه المرتبة تتمة
القسمة العقلية .

---

(١٤٥) منهاج البلغاء ٣٦٦ .
(١٤٦) السابق ٣٦٥ .
(١٤٧) راجع ما سبق ١٦٣ .
(١٤٨) ابن رشيق في العمدة ٢/٢٧٥ .

وقد أتيت فيما تقدم من هذا الفصل على ما يسره الله لى من إثبات واستنباط أصولهم فى باب (الاتباع) وضروبه ، وما فرعوه على تلك الأصول ، وإنما اذكر هنا جملة من النماذج التطبيقية التى ميزوا فيها بين درجات الأخذ ، ومراتب الآخذين يتم بها الوقوف على مبلغ علمهم فى هذا الباب من أبواب نقد الشعر ، وفقه صنعته .

أما **الأخذ مع الاحسان من المتبع** ، وحسن صنعته للمعنى ، فهو صلب (باب الاتباع) الفنى السائغ فى صنعة الشعر ، حيث يستحق المتبع المعنى بحسن الصنعة وجودة الكسوة ، كما استحقه الأول بالسبق إليه . وقد نقلت جملة موفورة من نصوصهم التى أوجبوا فيها على المتبع أن يزيد فى المعنى إذا أخذه ، وأن يحسن كسوته . وهذا الضرب من ضروب الاتباع هو الذى قالوا فيه : فلان يأخذ المعنى خرزة فيرده جوهرة ، وعباءة فيجعله ديباجة ، وعاطلا فيصيره حاليا ... الخ . وقد أكثروا من أمثلته وحللوها فى الأبواب التى عقدوها تحت عنوان « حسن الأخذ »(١٤٩) .

فمن حسن الاتباع عندهم أن يزيد المتبع فى المعنى يأخذه زيادة مستحسنة ، ومن قديم نصوصهم فى هذا قول الأصمعى : إن النابغة فى قوله :

جيش يظل به الفضاء معضلا
يدع الأكام كأنهن صحارى

احتذى قول أوس بن حجر :

ترى الأرض منا بالفضاء مريضة
معضلة منا بجمع عرمرم

---

(١٤٩) انظر على سبيل المثال الصناعتين ٢٠٠ وما بعدها ، والعمدة ٢٧٥/٢ ، وقراضة الذهب ٤٣ وما بعدها ، ودلائل الإعجاز ٣١٣ وما بعدها .

قال : فجاء النابغة بمعنى أوس،وزاد عليه(١٥٠).قلت : وزيادة النابغة في تصويره الفذ العالى : « يدع الاكام كانهن صحارى » ، فاشبع الصفة وبالغ فى عظم الجيش ، والمقام مقام أشباع ومبالغة ، وقول أوس : (معضلة منا بجمع عرمرم) دون هذا فى التصوير الشعرى .

ومن زيادة المتبع عند الآمدى زيادة أبى تمام على معنى أخذه من أبى العتاهية . قال أبو العتاهية :

كم نعمة لا تستقل بشكرها
لله فى طى المكاره كامنة

فقال أبو تمام :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

قال الآمدى : فاخذ أبو تمام معنى أبى العتاهية ، وأحسن لأنه اتى بالزيادة التى هى عكس المعنى الأول(١٥١) . قلت : وليست زيادة أبى تمام فقط انه جاء بعكس المعنى ، بل إن عكس المعنى قد زاد فى المعنى الاول نفسه فزيادته زيادة كم وكيف . فسبيل النابغة فى زيادته غير سبيل أبى تمام لأن الأول زاد المعنى نفسه عن طريق المبالغة فيه، والثانى زاد فى المعنى ، وزاد على المعنى .

وإنما تكون زيادة المعنى عندهم بابا من الاحسان إذا اقترنت بابقاء اللفظ على ما هو عليه ، أو باختصاره واقلال عدد حروفه ، وهذا جار

---

(١٥٠) الشعر والشعراء ٢١٢/١ وقال فى اللسان (ع ض ل) : ويقال عضلت الأرض باهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم وأورد بيت أوس.
(١٥١) الموازنة ٩١/١ ، وانظر مثالا شبيها بهذا فى الوساطة ٢٢٨ .

على قاعدة الايجاز وهو قانون البلاغة العربية ، والأصل المعمول به عندهم : أن المعنى إذا فهم مع حذف اللفظ ، حذفوا ، فإذا أشكل المعنى لم يحذفوا(١٥٢) .

وقال ابن سنان الخفاجي : « ولحمد الايجاز فضل احد الشاعرين على صاحبه إذا كانا قد اشتركا فى معنى وأوجز احدهما فى الفاظه أكثر من الآخر ، ولذا قدموا قول الشماخ بن ضرار :

إذا ما راية رفعت لمجد

تلقاها عرابة باليمين

على قول بشر بن ابى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوما

وقصر مبتغوها عن مداها

وضاقت اذرع المثرين عنها

سما أوس إليها فاحتواها

فبشر وإن كان سبق الشماخ إلا انه جاء بالمعنى فى بيتين ، وجاء به الشماخ مختصرا فى بيت واحد(١٥٣) .

وقد علل ابن سنان فى موضع آخر لحمد الايجاز ومدحه فقال : « والأصل فى مدح الإيجاز والاختصار فى الكلام أن الألفاظ غير مقصودة وإنما المقصود هو المعانى والأغراض ، التى احتيج إلى العبارة عنها بالكلام ، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعانى التى هى مقصودة »(١٥٤) .

---

(١٥٢) انظر المنصف ١٢٠ ، وسر الفصاحة ٢٥٤ .
(١٥٣) سر الفصاحة ٢٥٤ .
(١٥٤) سر الفصاحة ٢٠٦ .

فإذا زاد الشاعر المتبع المعنى ، بزيادة اللفظ ، وطول فى الكلام أخذوا عليه زيادة اللفظ ، وطول الكلام ، وهذا عندهم أصل كالمجمع عليه ، ومن أمثلة ذلك قول أبى بكر الصولى : إن على بن جبلة سرق قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال :

وما لامرىء حاولته عنك مهرب
ولو رفعته فى السماء المطالع
بلى ، هارب لا يهتدى لمكانه
ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

قال : « ولابن جبلة أنه زاد فى المعنى وأشبعه ، وعليه أنه جاء به فى بيتين والنابغة جاء به فى بيت واحد ، وله السبق »(١٥٥) .

قلت : وزيادة ابن جبلة المعنى ، وإشباعه اياه أنه قال : (ولو رفعته فى السماء المطالع) ، وأنه قال (لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع) .

ولمعترض على كلام الأوائل فى هذه المسألة أن يقول : أليس الأصل والأكثر أن اللفظ إذا زاد زاد معه المعنى ، قلت الزيادة أو كثرت ، وإذا نقص اللفظ ذهب النقص ببعض المعنى قل ذلك الناقص أو كثر ، لأن القول لا يخلو من دلالة ، واللفظ لا يكون عاريا من معنى ؟ ولو أننا نظرنا مثلا فى بيتى بشر المذكورين آنفا لوجدنا زيادة اللفظ جاءت

---

(١٥٥) أخبار أبى تمام ٢١ .

بزيادة معنى . وهب أنك اختصرت بيتى بشر هكذا ، وصيرتهما بيتاً واحدا :

إذا ما المكرمات رفعن يوما
سما أوس إليها فاحتواها

افيكون معنى بشر هو هو ؟ ويكون ما اسقطناه من الألفاظ عاريا من معنى ؟ لا يكون هذا لأن قول بشر : (وقصر مبتغوها عن مداها) وقوله (وضاقت أذرع المثرين عنها) دلا صراحة على أن أوسا احتوى ما احتوى من المكرمات حين عجز عنها سواه ، وقعد دونها من دونه وهذا أبلغ فى المعنى ، لأنه أبلغ فى المدح ، وأرفع من قدر الممدوح . وليس هذا مصرحا به فى بيت الشماخ .

وجواب هذا المعترض : أن حسن الظن بالقدماء ، وجميل الاعتقاد فيهم يمنع من اعتقاد انهم جهلوا ما أورده الاعتراض ، ويدعو إلى اعتقاد أنهم اقدموا على القول ثقة بمن يفهم عنهم ، وجروا على قاعدة معروفة من كلامهم وهى ان المفهوم من نقد الشعر لمحا واشارة كانما صرح به ، ونص عليه . وعلى هذا فإن ما زاده بشر تصريحا فى قوله : (وقصر مبتغوها عن مداها) ، وقوله : (وضاقت أذرع المثرين عنها) ملموح مفهوم ضرورة من بيت الشماخ ، إذ المعنى لا محالة على أن عرابة المذكور نالت يمينه راية المجد حين قصرت عنها أيمان الآخرين، يرنه إذا تلقى راية المجد باليمين ، وتلقاها غيره بالأيمان خرج الكلام عن أن يكون مدحا ، والكلام معقود على المدح . هذا وقد دل الشماخ على هذا ، وعبر عنه بفنون من صنعة البيان العالى : بإذا التحقيقية وتنكير التفخيم فى (راية) وطى الفاعل فى (رفعت)، وتخصيصه اليمين فى قوله : باليمين .

ويكون إحسان الآخذ المتبع أيضا من جهة أنه حرر اللفظ ، فضبط المعنى إذ كل تجويد فى صنعة الألفاظ راجع إلى المعانى ، ومن قديم نصوصهم فى هذا قول كثير :

ألا إنما ليـلى عصـا خيزرانـة
إذا لمسـوها بالأكـف تلـين

وقول بشار محتذيا قول كثير :

إذا قامت لحاجتهـا تثنـت
كأن عظامهـا مـن خـيزران

فقد حكم بشار لنفسه بأنه استحق المعنى بتحريره اللفظ ، وقال : جعلها كثير عصا ثم يعتذر لها ، ولو جعلها عصا مخ أو زبد لكان قد هجنها بذكر العصا . ولا يقال إن بشارا حكم لنفسه ، ورأى الانسان فى نفسه متهم ، فإن النقاد(١٥٦) نقلوا هذا الحكم ، وارتضوه ، ولم يتعلقوا على قائله بشىء من الخطأ . والذوق يشهد بأن أبا معاذ حرر اللفظ فضبط المعنى وصححه ، فأحسن الاتباع وإن كان أصل التشبيه لكثير .

ويمكن أن يقال : إن ما أخذه بشار وغيره على كثير مرده إلى خضوع الشعر لروح العصر ، وتأثر الصوغ الشعرى بخلائق التبدى والتحضر فكثير من بقية عصر التبدى ومن خلائق التبدى الإقدام على الكلام والجسارة ، وترك التأنق ثقة واقتدارا ، وبشار طليعة عصر التحضر ومن خلائق التحضر ضبط المعانى ، والتأنق فى إخراجها .

---

(١٥٦) المبرد فى الكامل ١١٤/٣ ، وأبو الفرج فى الأغانى ١٥٤/٣ ، والمرزبانى فى الموشح ٢٤٧ وغيرهم .

فكثيره أراد ما أراده بشار من الدلالة على لين حركتها ، وحسن تأودها وتثنيها . ولكنه لم يهذب ألفاظه ، ولم يتأنق .

وقد يستحق الشاعر المتبع المعنى ، ويوصف بحسن الاتباع إذا أتى في المعنى ببديعة ، أو وصل به لطيفة تنقله من الاشتراك إلى الاختصاص ، وتلده ولادة جديدة ، ومن هذا قول القاضي الجرجاني : إن الشعراء قد تداولوا في الغزل تشبيه عيون النساء بعيون الجاذر ، ونواظر الغزلان وأشاعوه بينهم حتى لم يعد فيه تفاضل ، والأول فيه امرؤ القيس في قوله :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى
بناظرة من وحش وجرة مطفل

حتى جاء عدى بن الرقاع فقال :

وكأنها بين النساء أعارها
عينيه أحور من جاذر جاسم
وسنان أيقظه النعاس فرنقت
في عينه سنة ، وليس بنائم

فزاد على كل قائل في هذا المعنى ، واقتطعه وامتلكه ، ونقله من الاشتراك إلى الاختصاص فذهب بالفضل فيه(١٥٧) .

هذا . وإحسان المتبع الآخذ لا تكاد تحصى وجوهه ، وهي راجعة إجمالا إلى عناصر الصنعة الشعرية ، وأركانها : اللفظ ، والمعنى ، والنظم ، والأسلوب(١٥٨) .

---

(١٥٧) انظر الوساطة ٤٦ .
(١٥٨) منهاج البلغاء ٣٧٣ .

المرتبة الثانية من الاتباع هى الاخذ مع اقتسام الإحسان ، وأن يذهب كل من السابق والمتبع بنصيب من الحسن ، وكفل من الصنعة ، ويرى عند كل واحد منهما تجويدا وتصويرا واستاذية كما قال عبد القاهر .

وامثلة هذا عندهم كثيرة منها قول الآمدى : قال منصور النمرى فى مدح الرشيد :

وعين محيط بالبرية طرفها
سواء عليه قريبها وبعيدها

فاخذه ابو تمام ، فقال :

اطل على كلى الآفاق حتى
كان الأرض فى عينيه دار

قال : « وعجز بيت ابى تمام حسن جدا ، وبيت النمرى أحب إليه لان معناه اشرح وانور(١٥٩) . وتفسير كلام الآمدى أن قول ابى تمام : (كان الأرض فى عينيه دار) أبلغ فى معنى سيطرة الملك وضبط الرعية من قول النمرى (سواء عليه قريبها وبعيدها) مع ما فى عبارة أبى تمام من سلاسة النظم ، وحسن انعطاف اللفظ : بعضه على بعض ، ومن هنا حسن جدا . ولكن عبارة النمرى أبين فى الدلالة على المعنى ، واظهر لمراد الشاعر ومن هنا حبب إلى الآمدى قوله ، وكان معناه أشرح .

---

(١٥٩) الموازنة ٦٧/١ وانظر مثالا أخر ص ٦٨ ، وقال التبريزى : كلى جمع كلية ، واستعارها للآفاق لان من اطلع على كلية الشىء فقد خبر أمره ، إذ كانت الكلية لا تكون إلا في الباطن » هامش رقم ٢ من الصحيفة المذكورة .

المرتبة الثالثة من الأخذ هى الأخذ مع اساءة الآخذ وتقصيره وعجزه وتفريطه ، وذلك بأن يتناول المعنى بلفظه كله أو بأكثره وهو اللفظ المدعى هو ومعناه معا(١٦٠) ، أو يعرضه فى معرض مستهجن ، أو يكسوه كسوة بالية رديئة(١٦١) . أو غير ذلك مما ينتهى إلى سقوط الصنعة . وهذه المرتبة والتى بعدها ليست من الاتباع الفنى السائغ فى صنعة الشعر ، وإنما هى من السرقة ، وسوء الشركة كما عرفت وحقها ان تستوفى فى باب (السرقات) وإنما نذكر هنا بعض امثلتها مزيد بيان لمعنى الاتباع الفنى لا غير .

فإذا أخذ الشاعر المعنى المحرر اللفظ ، النير الدلالة فجاء به موهما منغلقا عيب بذلك ومن امثلة ذلك عند القاضى الجرجانى : قول المتنبى :

انت طـورا امـر مـن ناقـع السـ
ـم وطـورا احـلى من السلسـال

وقول لبيد وهو الأصل :

ممقـر مـر عـلى أعدائـه
وعـلى الأدنـين حـلو كالعسـل

قال القاضى فى بيت المتنبى : « وهو بيت لبيد لفظا ومعنى ، وقد قصر عنه لأن لبيدا فصل الحالين ، بين الأعداء والأدنين ، وأجمل ابو الطيب القول »(١٦٢) وابو الطيب قصد صريح ما قصد إليه لبيد من ان ممدوحه أمر من ناقع السم على الأعداء ، وأحلى من العذب البارد مع الأصفياء ، ولكنه لم يبال بتهذيب الفاظه ، وتحريرها ، وكان

(١٦٠) المنصف ١٠٧ .
(١٦١) انظر الصناعتين ٢٢٩ .
(١٦٢) انظر الصناعتين ٢٢٩ .

حقه أن يبالى ولا يتسع العذر هنا لأبى الطيب كما اتسع للشماخ من قبل ، لأن المتنبى حضرى متانق مهذب . هذا وفى بيت المتنبى زيادة اضر بها انه ترك تهذيب الفاظه ، وذلك انه قال : امر واحلى بوزن (افعل) فبالغ فى الصفة واشبع ، والمقام مقام مبالغة واشباع ، وقال لبيد : مر ... وحلو ...

ومن إساءة الأخذ لايهام فى لفظه ايضا عند الآمدى قول ابى تمام:

وقمنا فقلنــا بعد ان افــرد الــثرى

بــه ما يقــال فى الســحابة تقلـــع

وقول مسلم بن الوليد - وهو الأصل - :

فاذهب كما ذهبت غـــوادى مزنـــة

اثــنى عليهــا الســـهل والاوغـــار

قال الآمدى : اخذ ابو تمام المعنى وقصر فى العبارة لان مسلما قال : (اثنى عليها السهل والأوعار) فجاء بلفظ محرر محكم للدلالة على عظم نفع هذه السحابة وعلى عمومه ، وقال الطائى (.. ما يقال فى السحابة تقلع) فجاء بلفظ موهم مشتبه ، ولم يفصح بالثناء على السحابة او بعينه لان السحابة قد يقال فيها ما هو ذم بعد إقلاعها ، إذا جاءت فى غير مكانها ، أو فى غير وقت الحاجة إليها(١٦٣) .
ولا يتسع العذر هنا أيضا لأبى تمام .

ففى هذا المثال والذى قبله أساء الأخذ ، لانه لم يحرر اللفظ ، ولم يضبطه فأضر ذلك بالمعنى لأن اللفظ معرضه ودليل عليه(١٦٤) ولا خير فى دليل مضل .

---

(١٦٣) الموازنة ٧٣/١ .
(١٦٤) انظر دلائل الاعجاز ٣٤١ .

وقد تكون إساءة الآخذ لا من جهة أنه لم يحرر اللفظ ولم يضبطه، بل من جهة أخرى لها علاقة باللفظ كقبح الاستعارة ، واستكراه الكلام ونحوهما . وقد تعلقوا على أبى تمام بأشياء من هذا الباب وذلك لأنه يتكىء على نفسه ، ويحمل عليها ، ويسومها السوم العنيف فى طلب المعنى البعيد ، والاستعارة الشاردة ، ويأتى إلى المعنى الذى تناوله غيره بسماحة طبع ومن الوجه القريب ، فيوغل فيه ، ويغرب ، فربما وقع على الجوهرة النفسية ، والدرة العذراء ، وربما أفسد وسمج(١٦٥)

ذكر الآمدى قول أبى نواس :

فالخمـــر ياقوتـــة ، والكاس لـؤلـؤة
من كف لـؤلـؤة ممشـــوقة القـــــد

وقال : أخذه أبو تمام ، وأساء فى أخذه فقال :

أو درة بيضـــــاء بكـــر اطبقـــت
حبـــلا عـلى ياقوتـــه حمـــــراء

لأن قوله : أطبقت حبلا « كلام مستكره قبيح جدا »(١٦٦) .

فأبو تمام رأى أبا نواس يصف كاس الخمر فى يد بيضاء ، ذات نعمة فيقول : (ياقوتة .. من كف لؤلؤة) فلم يرضه هذا المجاز القريب وحدثته نفسه بالاغراب ، ونزعت إليه ، فجعل الدرة تطبق حبلا على ياقوته حمراء ، ولو غير أبى تمام ورد هذا المورد لكفاه أن يقول : درة أطبقت على ياقوته حمراء ، أو نحوها ولكنه قال : (حبلا) فجاء بطريقته وركب مذهبه .

وذكر الآمدى والقاضى الجرجانى مثالا آخر مما أخذه أبو تمام

---

(١٦٥) راجع الموازنة ١٤٧/١ ، والوساطة ٤١٧ .
(١٦٦) الموازنة ٦٨/١ . وانظر مثالا آخر فى الموشح ٤٦٨ .

من ابى نواس ، فأساء وقصر لنفس العلة السابقة : قال ابو نواس :

يبكى فيـذرى الدمـع مـن نرجـس

ويلطـم الـورد بعنـــــاب

فقال ابو تمام :

ملطومـة بالـورد اطـلق طرفهـا

فى الخـلق فهـو مع المنـون محكـم

قال الآمدى : فأساء أبو تمام كل الاساءة ، وقصر فى صدر البيت وقبح(١٦٧) .

وقال القاضى : فحاز أبو نواس فضلى السبق والإحسان ، وحصل ابو تمام على نقيصتى السرق والتقصير ، ولكنه احسن فى عجز البيت فجبر بعض النقص(١٦٨) . وهذا باب فتحه أبو تمام على نفسه للعائبين عليه(١٦٩) .

وإذا كانوا قد مدحوا الأخذ إذا زاد المعنى زيادة يحتاجها الكلام فإنهم ذموه إذا نقص المعنى عما حقه أن يكون عليه ، والمدح بشىء يقتضى الذم بنقيضه لا محالة ، وابن سنان يسمى نقصان المعنى : (الاخلال)(١٧٠) . من ذلك ما ذكره الخطابى عن هشام بن ادهم المازنى - وكان علامة - قال : زعم الأخطل أنه فاق الشعراء بقوله فى الخمر :

وتظل تنصـفنا بهـا قرويـة

إبريقهـا برقاعـة ملثـوم

---

(١٦٧) الموازنة ١/٩٧ .
(١٦٨) الوساطة ٤١ .
(١٦٩) راجع الموازنة ١/٢٤١ - ٢٦١ .
(١٧٠) سر الفصاحة ٢١١ .

فإذا تعاورت الأكف زجاجها

نفحت فنال رياحها المزكوم

فقال له الشعبي : بل أسبق منك وأشعر الأعشى حيث قال :

وادكن عاتق حجل سبحل

صبحت براحه شربا كراما

من اللائى حملن على الروايا

كريم المسك تستل الزكاما

ثم قال الخطابي : « فتأمل أين منزلة أحدهما من الآخر ؟ لم يزد الأخطل حين احتشد وافتخر على أن جعل رائحتها لذكائها تنفذ حتى تخلص إلى الرأس ، فينالها المزكوم ، وجعلها الأعشى لحدتها وفرط ذكائها مستلة للزكام ، طاردة له ، قد طبت دائه ، وتأيت لبرئه وشفائه »(١٧١) .

ومما أساء فيه الآخذ أيضا لأنه نقص المعنى عما حقه أن يكون عليه ما قاله الآمدي من أن البحتري أخذ قوله :

لعمر الرسوم الدارسات لقد غدت

بريا سعاد وهي طيبة العرف

من قول الآخر :

واستودعت نشرها الديار فما

تزداد إلا طيبا على القدم

قال : « وهذا البيت أجود من بيت البحتري لما فيه من الزيادة الحسنة وهي قوله : (فما تزداد إلا طيبا على القدم)(١٧٢) .

---

(١٧١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٦٤ ، و (الذكاء) هنا : القدم والعتق اللسان (ذكا) وتأيت الداء : تتبعته .

(١٧٢) الموازنة ١/٤٧٩ .

وإنما نقص المعنى فى بيتى الأخطل والبحترى عما حقه أن يكون عليه ، لأن المعنى الذى نازع فيه كل واحد منهما من سبقه مبناه عـلى المبالغة لا القصد ، فبالغ السابقان وأشبعا ووقع الآخذان دون ذلك ٠

وهذا المعيار الذى بنى عليه الحكم فى المثالين ، وهو (الاخلال) أو (نقص المعنى) كثير الأمثلة فى كلامهم جدا(١٧٣) ، وهو الوجه المقابل لمعيار حسن الصنعة فى باب المعانى أعنى (زيادة المعنى) ٠

وقد يأخذ الشاعر المعنى سبق إليه فيأتى به ناقصا من وجه آخر غير ترك إشباع الصفة ، وهو أن يأخذ بعض المعنى الذى احتذاه ويدع بعضه ، وعد الآمدى من هذا قول أبى تمام :

كـل يـوم لـه وكـل أوان
خـلق ضـاحك ومـال كئيـب

فقد أخذه من قول أبى نواس :

تبـكى البـدور لضـحكه
والسـيف يضـحك إن عبـس

ولكنه قصر عن معنى أبى نواس ، لأن بيت أبى تمام كله بإزاء قول أبى نواس (تبكى البدور لضحكه) ، وباقى بيت أبى نواس زيادة ومعنى جديد(١٧٤) ٠

وبيان كلام الآمدى أن أبا نواس وصف ممدوحه بثلاث خـلال : البشاشة والبذل والشجاعة ، وأثبت له أبو تمام البشاشة والبذل فانقص أبو تمام المعنى وبيته أكثر عدد كلمات من بيت أبى نواس ، زد عـلى

---

(١٧٣) انظر السابق ٧٠/١ ، وديوان المعاني ٢٠ ٠
(١٧٤) الموازنة ٧٦/١ ٠

هذا أن بيت أبى نواس أجود نظما وسبكا ، وأحسن مطابقة وتقسيما والمعيار المأخوذ به هنا هو : زيادة المعنى مع اختصار اللفظ ٠

وكما أن إحسان المتبع درجات ، فكذلك إساءة الآخذ درجات ، وقد يتردى الآخذ فى الإساءة حتى يمسخ المعنى مسخا(١٧٥) ٠

والمرتبة الرابعة والأخيرة من مراتب الأخذ الشعرى هى التى يسىء فيها الأول ، فيجاريه فى ذلك الآخذ،ويرث إساءته٠٠٠وهذا أسوأ الأخذ وأشنعه ، لا مزيد عليه فى سقوط الرأى والملكة الفنية معا : سقوط الرأى لأن المسىء - كما قيل - لا يقتدى به وإنما يقتدى بالمحسن(١٧٦)، وسقوط الملكة لأنه إذا عجز عن قلب إساءة المسىء إحسانا ، فهو أعجز عن ابتداع الإحسان ، أو الزيادة على إحسان المحسن ، وهذان هما بابا صنعة الشعر كما عرفت ٠

وهذه المرتبة هى مرتبة ضعفة الشعراء ، وحشو أهل البيان ٠ وقلما يقع فيها الشاعر الكبير ، وقد عد ابن رشيق من أمثلتها قول المتنبى :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة

ففى الناس بوقات لها وطبول

وقول أبى تمام - ومنه أخذ المتنبى فيما يرى - :

باشرت أسباب الغنى بمدائح

ضربت بأبواب الملوك طبولا(١٧٧)

---

(١٧٥) انظر الموشح ٤٤٩ ، والموازنة ٤٤١/١ ، والعمدة ٢٧٥/٢ ٠
(١٧٦) انظر عيار الشعر ١٠ ٠
(١٧٧) العمدة ٢٧٥/٢ ، وانظر مثالا آخر فى الصناعتين ٢٣٥ ٠

فكلمة (الطبول) فى البيتين غـير مستطابة ، وهى فى بيت أبى تمام أقرب إلى القبول . ولكن هذا لا يعد من الأخـذ أو السـرقة طبقا للأصل المستقر عندهم وهو أن لا أخذ ولا سرقة فى الألفاظ المفردة. والبيتان - فيما أرى - لا يشتركان إلا فى لفظ (الطبول) .

***

ويظهر مما تقدم أن طبيعة الحكم النقدى فى الأمثلة التى ذكرتها فى مبحث مراتب الاتباع ، وفنون الأخذ هى هى فى غيره من مباحث هذه الدراسة لا بل هى هى فى سائر أبواب نقد الشعر عند العـرب : يصرحون بالرأى تارة ، ويشيرون إليه تارات ، ويفصلون مرة ويجملون مرات ، وينصون على علة الحكم حينا ، ويدعون النص عليها أحيانا هذا هو مذهبهم فى طور (الحكم الشفهى) وإن كانوا فى الطور الثانى (طور التاليف) أكثر تصريحا ، وتفصيلا ، وتعليلا .

والذى أدين به أن حذاق النقاد فى الطورين معا لم يدعو التصريح ، والتفصيل ، والتعليل جهلا به أو عجزا عنه .. فهذا عبد القاهر الذى ألح على ضرورة التعليل للحسـن ، وبيان وجـه المزيـة فى الكلام ، وخاصم فى هذا أشد مخاصمة(١٧٨) ، والذى حلل أمثلـة فى بـاب الابتداع والاتباع أبان فيها عن ذائقة نقدية وقاعة على الدقائق ، نافذة إلى الخفايا يورد واحدا وخمسين مثالا من أمثلة الاتباع الشعرى عارية عن التحليل والتعليل ثم لم يزد على أن قال فى أثرها : « فانت ترى عيانا أن للمعنى فى كل واحد من البيتين من جميع ذلك صورة وصفة

---

(١٧٨) دلائل الاعجاز ٢٦ ، ٤٤ .

غير صورته وصفته فى البيت الآخر »(١٧٩) .

وتأمل قوله : (ترى عيانا) فهو دلالة على الأصل المعمول به عنده ، وعند غيره من حذاق النقاد وهو أن نقد الشعر محتاج إلى نظر لطيف ، وذوق حصيف وأن ليس كل الحسن فى الشعر يعلل له ، ولا كل إنسان تستطيع أن تفهمه إياه(١٨٠) ولهذا كان مدار الحكم النقدى«على استشهاد القرائح الصافية ، والطبائع السليمة التى طالت ممارستها للشعر فحذقت نقده ، وأثبتت عبارة وقويت على تمييزه » لأن « الشعر لا يحبب إلى النفوس بالنظر والمحاجة ، ولا يحلى فى الصدور بالجدال والمقايسة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربها منه الرونق والحلاوة ، وقد يكون الشىء متقنا محكما ولا يكون حلوا مقبولا ، ويكون جيدا وثيقا ، وإن لم يكن لطيفا رشيقا . وقد تجد الصورة الحسنة والخلقة التامة ،قلية ممقوته وأخرى دونها مستحلاة موموقة . ولكل صناعة أهل يرجع إليهم فى خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها »(١٨١) . وهذا كلام حقه أن يطول تأمله .

فالاشارة ، والإجمال ، وإغفال العلة فى كثير من أحكام النقد العربى القديم مرجعها إلى مذهب القوم فى الحكم وما اعتادوه ، أو إلى أنه من الظاهر الذى يكفى التنبيه عليه ، أو من الخفى الروحانى الذى تحيط به المعرفة ولا تدركه الصفة ، وإنما يحال فى هذا وذاك على القرائح التى صفت ، والطبائع التى سلمت ، والأذواق التى قويت

---

(١٧٩) دلائل الإعجاز ٣٢٩ .
(١٨٠) انظر الموازنة ٤١١/١ ، والوساطة ٨٩ ، ودلائل الاعجاز ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ومنهاج البلغاء ٣٧٩ .
(١٨١) الوساطة ٨٩ .

وحذقت ويسال عنه أهله ، فتقويم الإبداع فى الشعر وفى غيره من الفنون جد عسير(١٨٢) ٠

وبعد.فلقد اجتهدت أن أجمع فى هذا البحث أطراف ما قاله النقاد العرب القدماء فى ابتداع المعانى الشعرية ، واتباعها ، والأصول والفروع التى قامت عليها نظريتهم فى هذا الباب من أبواب صنعة الشعر، وهذا ما يسره الله بمنه وإحسانه ، فله الحمد فى الأولى والآخرة وصلى الله على محمد عبده ورسوله ٠٠

وكان الفراغ منه بعد عصر يوم
الجمعة ٨ من رجب ١٤١٣ هـ الموافق
١ يناير سنة ١٩٩٣ م

* * *

(١٨٢) راجع الابداع العام والخاص لالكسندرو روشكا ٤٤ ٠

المصادر والمراجع

١ - **الابداع العام والخاص : تأليف الكسندرو روشكا ، ترجمة الدكتور/** غسان عبد الحى أبو فخر ، عالم المعرفة العدد ١٤٤ .

٢ - **الإبانة عن سرقات المتنبى لأبى سعد محمد بن أحمد العميدى(٤٣٣هـ)** تحقيق إبراهيم الدسوقى البساطى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ م .

٣ - **أخبار أبى تمام لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى (٣٣٥ هـ) :** لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م .

٤ - **أخبار أبى نواس لجمال الدين بن منظور (٧١١ هـ) :** تحقيق إبراهيم الابيارى لحق الأغانى ، طبعة دار الشعب .

٥ - **الاستدراك فى الرد على رسالة ابن الدهان المسماه بالمآخذ الكندية من المعانى الطائية لضياء الدين بن الأثير (٦٣٧ هـ) :** تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ، م الأنجلو المصرية ١٩٥٨ .

٦ - **أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) :** تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٢.

٧ - **إعجاز القرآن لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٤٠٣ هـ) :** تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧٧ م.

٨ - **الأغانى لأبى الفرج على بن الحسين الأصبهانى (٣٥٦ هـ) :** طبعة دار الشعب وطبعة بيروت المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .

٩ - **الامتاع والمؤانسة لأبى حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى** (نحو ٤٠٠ هـ) : تحقيق الأستاذ أحمد أمين وآخر المكتبة العصرية بيروت .

١٠ - **أمالى المرتضى أو غرر الفوائد ودرر القلائد لعلى بن الحسين المرتضى (٤٣٦ هـ) :** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار

احياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ١٩٥٤ م .

١١ - **البديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ :** تحقيق الدكتورين أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، ط وزارة الثقافة والارشاد القومى سنة ١٩٦٠ م .

١٢ - **البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى :** ط بيروت .

١٣ - **بنية اللغة الشعرية لجان كوهن :** ترجمة محمد الولى ومحمد العمرى ، سلسلة المعرفة الأدبية ، المغرب .

١٤ - **البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ) :** تحقيق عبد السلام هارون ، الخانجى الطبعة الرابعة ١٩٧٥ .

١٥ - **تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى :** للأستاذ طه إبراهيم ، ط دار الحكمة ، بيروت.

١٦ - **الثابت والمتحول .. لأدونيس :** على أحمد سعيد ، طبعة بيروت.

١٧ - **الحيوان للجاحظ :** تحقيق عبد السلام هارون مطبعة مصطفى الحلبى ، الطبعة الثانية .

١٨ - **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادى** (١٠٩٣ هـ) : تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

١٩ - **دلائل الإعجاز فى علم المعانى لعبد القاهر الجرجانى :** تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، نشر مكتبة القاهرة ١٩٦١ .

٢٠ - **دلالات التراكيب :** دراسة بلاغية للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٩٨٧ م .

٢١ - **رسائل البلغاء لمحمد كرد على :** مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٦ .

٢٢ - **سر الفصاحة لابن سنان عبد الله بن محمد الخفاجى (٤٦٦ هـ):** تحقيق عبد المتعال الصعيدى ، مطبعة صبيح ١٩٥٢ .

٢٣ - **سرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت بن المزرع** : ترجمة الدكتور محمد مصطفى هدارة ، دار الفكر العربى .

٢٤ - **السرقات الأدبية** : دراسة فى ابتكار الاعمال وتقليدها للدكتور بدوى طبانة ، دار الثقافة بيروت ١٩٨٦ .

٢٥ - **الشعر بين نقاد ثلاثة** : ترجمة الدكتور منح خورى ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ .

٢٦ - **الشعراء نقادا** : للدكتور عبد الجبار المطلبى ، وزارة الثقافة والاعلام بغداد ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦ .

٢٧ - **الشعر والشعراء لأبى عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ)**: تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٧.

٢٨ - **شاعرية المتنبى فى نقد القرن الرابع الهجرى** : لمحى الدين صبحى ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى بدمشق سنة ١٩٨٣ .

٢٩ - **الشهاب فى الشيب والشباب** : للشريف المرتضى ، مطبعة الجوانب، الطبعة الأولى ضمن مجموعة رسائل سنة ١٣٠٢ هـ .

٣٠ - **الصناعتين : الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى** : تحقيق على محمد البجاوى ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبى.

٣١ - **الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمنى** : دار الكتب العلمية ، بيروت

٣٢ - **طيف الخيال للشريف المرتضى** : تحقيق محمد سيد كيلانى ، مطبعة مصطفى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٩٥٥ م .

٣٣ - **العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ)** : تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازى ، الطبعة الأولى ١٩٣٤ م .

٣٤ - **العين للخليل بن أحمد (١٧٥ هـ)** : تحقيق مهدى المخزومى ود. إبراهيم السامرائى ، طبعة مؤسسة دار الهجرة ، ايران ، سنة ١٤٠٩ هـ .

٣٥ - **عيار الشعر لابن طباطبا محمد بن احمد العلوى (٣٢٢ هـ) :** تحقيق الدكتورين طه الحاجرى ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٥٦ .

٣٦ - **الفهرست لمحمد بن إسحاق بن النديم (٣٨٥ هـ) :** ط دار المعرفة بيروت .

٣٧ - **القراءة والكتابة :** مقالات مجموعة من منشورات الجامعة التونسية، طبعة المطبعة الرسمية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٨ .

٣٨ - **قراضة الذهب فى نقد اشعار العرب لابن رشيق القيروانى :** تحقيق الشاذلى بو يحيى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ١٩٧٢ .

٣٩ - **قواعد الشعر لأبى العباس احمد بن يحيى ثعلب (٢٩١ هـ) :** شرحه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، مطبعة مصطفى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٩٤٨ .

٤٠ - **الكامل فى اللغة والأدب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد** (٢٨٦ هـ) : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار نهضة مصر .

٤١ - **لسان العرب لابن منظور :** ط دار المعارف .

٤٢ - **المرصع .. لمجد الدين لمبارك بن محمد المعروف بابن الأثير** (٦٠٦ هـ) : تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائى ، ط احياء التراث الإسلامى ببغداد سنة ١٩٧١ .

٤٣ - **المزهر فى علوم اللغة وانواعها للسيوطى :** مطبعة محمد على صبيح .

٤٤ - **مسائل فلسفة الفن المعاصر لجان مارى جويو :** ترجمة سامى الدروبى ، دار اليقظة العربية ، بيروت سنة ١٩٦٥ .

٤٥ - **المسائل والأجوبة فى التفسير والحديث لابن قتيبة : دار ابن كثير بدمشق سنة ١٩٩٠ م .**

٤٦ - **مشكلة الابداع الفنى :** رؤية جديدة للدكتور على عبد المعطى محمد نشر دار الجامعات المصرية ، الاسكندرية .

٤٧ - **مشكلة السرقات فى النقد العربى :** للدكتور محمد مصطفى هدارة ، الانجلو المصرية ١٩٥٨ .

٤٨ - **معجم الأدباء لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى (٦٢٦ هـ):** دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠ .

٤٩ - **المعانى الكبير فى أبيات المعانى لابن قتيبة :** مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن بالهند ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ .

٥٠ - **مفتاح العلوم لأبى يعقوب السكاكى (٦٢٦ هـ) :** دار الثقافة العلمية ، بيروت .

٥١ - **منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لمجد الدين ابن الأثير (٦٠٦ هـ) :** تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحى ، مطبعة المدنى .

٥٢ - **الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء فى عدة أنواع من صناعة الشعر للمرزبانى :** تحقيق على محمد البجاوى ، دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥ .

٥٣ - **الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠ هـ) :** دار المعارف ، الطبعة الثانية .

٥٤ - **نزهة الألباء فى طبقات الأدباء أو تاريخ الأدباء النحاة لأبى البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى (٥٧٥ هـ) :** قدم له الأستاذ على يوسف ، بدون مطبعة أو تاريخ .

٥٥ - **نظرية اللغة فى النقد العربى :** للدكتور عبد الحكيم راضى ، مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٨٠ .

٥٦ - **نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) :** تحقيق

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .

٥٧ - **النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير** : تحقيق طاهر الزاوى ومحمود الطناحى ، مؤسسة اسماعيليان بايران .

٥٨ - **الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى (٣٦٦ هـ)** : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى بن محمد البجاوى ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية سنة ١٩٥١ م .

٥٩ - **يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (٤٢٩ هـ)** : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازى ، القاهرة .

فهرس تفصيلى لمسائل الكتاب

المقدمـــة

إدراك بعض القدماء أن مراعاة السنن لا يغنى الغفلة عن ما يفعله اختلاف الزمان والمكان (٨٦) .

الفقرة « ٦ » : مراتب الابتداع

من ٨٧ إلى ١١٢

الابتداع مرتبتان : ميئوس منه ومذتهب (٨٧) أقدم من نبه على هذا (٨٧) العلة فى تقسيم المعانى الشعرية إلى عقيم وولود (٨٩) ندرة الابتداع الميئوس منه (٨٩) معنى عنترة فى الذباب والياس منه (٩٠) نص طويل لحازم فى الفرق بين مذهب اليونان ومذهب العرب فى قول الشعر ونقده (٩٤) الابتداع الولود هو مضمار صنعة الشعر (٩٧) ابتداع امرىء القيس وما قيل فيه (٩٨) مناقشة من طعن على القدماء فى حكمهم لامرىء القيس بالابتداع (١٠٥) إلمامة قصيرة بابتداعات بشار ومن بعده من المحدثين (١٠٨) .

الفقرة « ٧ » : الابتداع وقضية القدماء والمحدثين

من ١١٢ إلى ١٢٠

طبقات العلماء بالشعر عند العرب ، وطبيعة علم كل طبقة (١٢٢) تقديم النقاد للشعراء الأوائل على المحدثين اجمالا ذو صلة وثيقة بقضية الأصالة الشعرية (١١٩) الأصالة ارث وكسب ، وأصالة الشاعر التالى كسب مؤسس على أرث (١١٦) القدماء عرفوا الابتداع فى المذهب والطريقة (١٢٠) .

الفصل الثانى : « الاتباع »

من ١٢٣ إلى ٢٠٨

الفقرة « ١ » : تاريخ مصطلح (الاتباع) وما استعمل فى معناه من الألفاظ (١٢٣)

الفقرة « ٢ » : معنى الاتباع فى الشعر ، ومشروعيته

من ١٢٥ إلى ١٣٩

توليد المعانى باب عظيم من أبواب الشاعرية (١٢٥) عبارة لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه فى توليد الكلام (١٢٦) بشار من أقدم من تنبه للاتباع الحسن فى الشعر (١٢٧) نص حسن للجاحظ فى الاتباع وتقليب المعانى (١٢٨) يحيى بن على المنجم من اقدم من فرق بين أخذ الصانع وأخذ السارق (١٣٠) نص للقاضى الجرجانى فيه تفصيل عبارة الجاحظ السابقة (١٣١) من الأصول الكبرى فى الاتباع الشعرى قولهم : إن المتبع المولد قد يبلغ درجة المبتدىء المنشىء (١٣٣) ابن رشيق يحدد « عمود الابتداع والاتباع » عند العرب (١٣٤) عبد القاهر هو ترجمان كلام من قبله فى باب الابتداع والاتباع (١٣٥) رأى حازم القرطاجنى فى الاتباع (١٣٦) نقاد المائتين الرابعة والخامسة ومن بعدهم يفصلون أصول ما قيل قبلهم فى باب الاتباع (١٣٨) نظرية العرب فى الابتداع والاتباع دخلت بهم فى معترك صنعة الشعر ، وأصالة الشاعر (١٣٨) خطأ من قال : إن العرب لم يفهموا الابداع فى الشعر على وجهه ، أو انهم لم يدركوا مفهوم التقليد من وجهة نظر الفن الجميل (١٣٨).

الفقرة « ٣ » : دائرة الاتباع الشعرى

من ١٣٩ إلى ١٤٤

الاتباع أيضا فى المعنى المختص لا فى المشترك (١٣٩) الأخذ ليس كله سرقة (١٣٩) الاتباع يكون فى صورة للمعنى (١٤١) تفسير عبد القاهر لقول من كان قبله : جاء بمعنى السابق (١٤١) فهم القدماء للاتباع الشعرى يقوى القول بأن الشعر عندهم فطنة لا إلهام ، وصنعة لا خلق ، ويضعف القول بتعصب النقاد العرب للقدماء (١٤٣).

الفقرة « ٤ » : دواعى الاتباع فى الشعر عند العرب

من ١٤٤ إلى ١٥٠

داع إنســـانى (١٤٤) ، داع عربى (١٤٤) ، داع بيئى (١٤٧)، داع لغوى (١٤٨)، داع فنى (١٤٨) .

الفقرة « ٥ » : الأصل فى مشروعية الاتباع فى الشعر

من ١٥٠ إلى ١٥٣

دلالة التأليف فى الفن اللغوى لا حد لها (١٥٠) معانى النفس لا تنتهى ومعينها لا ينضب (١٥١) .

الفقرة « ٦ » : بين الاتباع والسرقة

من ١٥٣ إلى ١٦٥

السرق باب شائك وعويص (١٥٣) مصطلح « السرقة » يستخدم عند العرب بدلالات عدة (١٥٤) التركيز على قضية السرقات أضر كثيراً بنظرية العرب فى الابتداع والاتباع ، وكاد يعفى على محاسن ما تالوه فيها (١٥٨) الأصول الكبرى لنظرية السرقات عند العرب (١٥٩) تفريق القدماء بين الاتباع المشروع وبين السرقة، ومتى كان ذلك (١٦٠) قانون الاتباع الشعرى غير قانون السرقة (١٦٠) .

الفقرة « ٧ » : بين الاتباع والتقليد

من ١٦٥ إلى ١٦٧

مصطلح التقليد (١٦٥) الفرق بين المتبع والمقلد (١٦٦) .

الفقرة « ٨ » : بين الاتباع والتوارد

من ١٦٧ إلى ١٧٥

التوارد غير الاتباع (١٦٧) الآمدى أول من فرق بينهما (١٦٧) نصوص نقدية فى مشروعية التوارد فى الشعر (١٦٩) الشريف المرتضى يعد الموارد مبتدعا لا آخذا (١٧٠) ابن رشيق والعلة الفنية لوقوع التوارد (١٧٠) عناية نقاد المائتين الرابعة والخامسة ببيان معنى التوارد والفرق بينه وبين الاتباع أو السرقة ، ووجه تلك العناية (١٧٣).

الفقرة ((٩)) : صور الاتباع ، ووجوهه ، ومراتبه
من ١٧٥ إلى ٢٠٨

رقم الايداع ١٩٩٣/٧٢٤٠
تحريرا فى ١٩٩٣/٣/٤